فرانسواز ساغان

قليل من حرارة الشمس في الماء البارد

ترجمة
علي باشا



دار علاء الدين

Fraçoise Sagan

Un peu de soleil dans l'eau froide

فرانسواز ساغان

قليل من
حرارة الشمس في الماء البارد

ترجمة
علي باشا

منشورات دار علاء الدين

- **قليل من حرارة الشمس في الماء البارد.**
- تأليف: فرانسواز ساغان.
- ترجمة: علي باشا.
- الطبعة الأولى ٢٠٠٨.
- عدد النسخ /١٠٠٠/ نسخة.

- تمت الطباعة في دار علاء الدين للنشر.
- **هيئة التحرير في دار علاء الدين:**

- الإدارة والإشراف العام: م. زويا ميخائيلينكو.
- المتابعة الفنية والإخراج: أُسامة راشد رحمة.
- التدقيق اللغوي: ريا نصر الحلاق.
- الغلاف: أمل كمال البقاعي.
- معالجة نصوص: اسماعيل نصر الحلاق.

دار علاء الدين

للنشر والتوزيع والترجمة

سورية، دمشق، ص.ب: ٣٠٥٩٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١، فاكس: ٥٦١٣٢٤١

البريد الإلكتروني: ala-addin@mail.sy

إلى أختي

مجهولة، كانت صيغتي المفضلة تلك التي أزالت عني الهم بكوني رجل، وأنا أراها وأفقدها، وأعاني، متحملاً ألمي، كقليلٍ من حرارة الشمس في الماء البارد.

بول ايلورا
Pacul Eluard

الجزء الأول

باريس

١

كان ذلك يحصل له عملياً، كل صباح، في الوقت الحاضر. إلا إذا كان قد ثمل بصورة مفرطة في الليلة السابقة، وأن جهد نهوضه ومغادرته السرير واستحمامه، وارتداءه ملابسه، لا يصبح غامضاً، ضبابياً ودون وعي تقريباً، لدرجة أنه يقوم به متلمساً، محروماً أو بالأحرى مرتاحاً من التفكير بنفسه، بتأثير التعب، ولكن الأيام الأخرى كانت أكثر شدةً وأكثر قسوةً؛ كان يستيقظ عند الفجر، وقلبه يخفق من شدة الخوف - مما كان قد أصبح لا يستطيع أن يسميه، سوى خوفه من الحياة - وكان ينتظر، متوقعاً أن يرد في ذهنه سرد قصة مخاوفه، أسباب قلقه، ومظاهر فشله وخيباته، ووطأة العمل الثقيل، الذي عليه أن يقوم به في ذلك النهار المقبل. كان قلبه يخفق، فيحاول العودة إلى الاستغراق في النوم، في محاولة منه لأن

يتناسى نفسه. ولكن، عبثاً ودون جدوى. عند ذلك، كان يجلس في سريره يتناول زجاجة الماء من على المنضدة القريبة منه، يبتلع منها جرعة دافئة، لا طعم لها، تثير الحزن والأسى، مثلما كانت تبدو له حياته منذ ثلاثة أشهر، وكان يفكر: «ولكن ماذا بي؟ وماذا حصل لي؟ وبحزن وغيظ، لأنه كان متكبراً. واحتمال إصابته بانهيار عصبي، وهذا ما كان يحصل معه، مع ذلك، كثيراً، عند الآخرين، وفي منازل أناس، هو يقدرهم بالحقيقة، كان يسيء إليه ويجعله يشعر بالمذلة والإهانة، وكأنه قد تلقى صفعةً على وجهه. لم يكن قد اهتم كثيراً بنفسه، أبداً، منذ مرحلة مراهقته، ولأن حياته كانت تكفيه، وإذ ألغى نفسه، فجأة، يجابه هذه الشخصية التي تتسم بالمرض، بالضعف بالضيق ونفاد الصبر، فكان هذا يملؤه برعب تطيري. فهو إذن، ذلك الرجل الذي بلغ الخامسة والثلاثين من العمر، والذي أخذ يرتجف، دون مبرر أو سبب، وهو جالس على حافة سرير، في الصباح الباكر؟ وإلى هنا اقتادته خمس وثلاثون سنة من الضحك، وراحة البال، وأحزان الحب، في بعض الأحيان؟ وألقى رأسه على الوسادة، وضمها إلى خده، كما لو أنها كانت بفعل وظيفتها، تمتلك هبة النوم الهانيء. ولكن عينيه ظلتا مفتوحتين. وأخذ يشعر بالبرد، فجذب الغطاء فوق جسمه، وشعر بحر شديد، فدفعه بعيداً عنه، ولم يكن يستطيع إيقاف ذلك الارتعاش الذي اعتراه، ولا ذلك اليأس، والحزن التام، اللذين حلاّ به.

ومن المؤكد أنه كان عليه أن يلتفت نحو «ايلوييز»، يمارس الحب معها. ولكنه لم يكن يستطيع أن يفعل ذلك، فمنذ ثلاثة أشهر لم يلمسها، ثلاثة أشهر مرت، ومع ذلك لم يتحدثا عن هذا الأمر أبداً، «ايلوييز» الجميلة.. كان من الغرابة بمكان أن تتحمل هذا. كما لو أنها كانت تتحسس لديه مرضاً ما، أو ظاهرة غريبة، وأنها أخذت تشعر بالشفقة عليه. وكانت فكرة شفقتها عليه تزعجه أكثر بكثير من غضبها عليه، أو من احتمال خيانتها له. وما هو الشيء الذي لم يكن يعطيه لكي يشعر بالرغبة بأن يحظى بها، ويقع عليها: وينعم بتلك الحرارة المنبعثة من جسم مختلف آخر، والقيام بإشارات وحركات عنيفة، وينسى نفسه أخيراً عبر شيء آخر غير النوم.. ولكنه لم يكن يستطيع ذلك. وبعض المحاولات التي قامت بها، على استحياء جعلته يشعر بالاشمئزاز وبالقرف، بشكل لا يصدق. هو الذي كثيراً ما أحب الحب، ورغب به، وكان يستطيع ممارسته كيفما كان، في الظروف الأكثر سخافة وإثارة للضحك، أو الأكثر غرابة، ها هو يجد نفسه عاجزاً، مستلقياً على سرير، بجانب امرأة تعجبه كثيراً، وهي جميلة، وعلاوة على ذلك، فهو يحبها كثيراً.

والحال هي أنه يبالغ قليلاً، فقد مارسا الحب مرة، قبل ثلاثة أسابيع، بعد تلك الأمسية المعهودة التي أمضياها في منزل «جان». ولكنه لم يكن يتذكر ذلك، كان قد أفرط في الشراب، أثناء تلك السهرة - ولسبب بديهي - وكان كل ما يتذكره بالضبط حصول عراك شديد عبر الظلام في سريره الكبير، وشعوره

بالارتياح عند استيقاظه لكونه قد حقق فوزاً، كما لو أن لحظة المتعة، القصيرة والسريعة، المعطاة والمتلقاة، كانت عبارة عن ثأرٍ من ليالٍ عديدة من الضيق والانزعاج ومن الأعذار السيئة والكاذبة ومن المرح المزيف ولم يكن ذلك مدهشاً وباهراً. والحياة، التي أعطته، حتى ذلك الحين، كل شيء - على الأقل، كان هو يظن ذلك، وهذا أحد أسباب ومبررات نجاحاته - الحياة أخذت تنسحب وتتخلى عنه، كمياه البحر التي تنسحب وتتراجع فجأة عن صخرة، ظلت تداعبها زمناً طويلاً، وفكرته عن نفسه كصخرة قديمة، جعلته يضحك لحظة، ضحكة صفراء ومرة. ولكن الحياة كانت بالفعل تهرب منه، هكذا كان يبدو له، وكأن ذلك كان يحدث عن طريق جرح خفي وسري. والوقت لم يعد يمر إنه يختفي ويبيد. ويستطيع تماماً أن يقول في سره، وأن يردد، بينه وبين نفسه تعداد مزايا حياته الحالية: حالة جسدية جيدة، مهنة مريحة ومسلية، نجاحات من جميع الأنواع، وكان هذا يبدو له باهتاً وبلا طعم، مجرداً من أي فائدة أو أهمية، مثله في ذلك مثل التراتيم والصلوات المطولة والمكرسة للعذراء المقدسة كلمات.. والكلمات كانت ميتة.

والأمسية التي أمضاها في منزل «جان»، كانت علاوة على ذلك قد أضفت على كل ذلك مظهراً بسيكولوجياً مقرفاً ومنفراً. وكان قد خرج من الردهة، خلال لحظة وذهب إلى «التواليت» حيث سرح شعره وغسل يديه، وعند ذلك انزلقت قطعة الصابون الوردية من يده وسقطت على الأرض، تحت المغسلة، فانحنى لكي يلتقطها. ولكنها

كانت ملقاة ومختبئة تحت أحد الأنابيب، وعندما عثر عليها، مد يده لكي يلتقطها، ولكنه لم يتمكن من ذلك. كما لو أنه كان هنالك حيوان ماكر مختبئ هناك ينتظر متوقعاً عبر الظلام، ملامسة يده، فاستولى عليه رعب مفاجئ جعله يتجمد في مكانه. ونهض وهو يتصبب عرقاً، وحدق في المرآة، وقد برز من أعماق ملكة ذكائه، نوع من الفضول غير ذي غاية، حل محله الرعب، بمزيد من السرعة. وكان قد انحنى من جديد، بعد أن تنفس بعمق، كما يفعل الغواصون، والتقط قطعة الصابون. ولكنه قذفها في الحال، نحو المغسلة، كما يقذفون في الريف أفعى نائمة، ظنوها عود حطب، وكان عليه أن يرشق على وجهه قليلاً من الماء البارد، خلال دقيقة من الوقت. وعند ذلك تبادر إلى ذهنه، بأن ذلك هو شيء آخر، غير الكبد، والتعب، والعصر أو الفترة الحالية» وعند ذلك، تقبل واقتنع بأن «ذلك» موجود حقاً، وأنه كان مريضاً.

ولكن ما العمل؟ ومن هو أكثر وحدةً من الرجل الذي انحاز للمرح والبهجة والسعادة، باستخفاف عطوف والذي انحاز هكذا، علاوة على ذلك، بالطبع، بدافع من الغريزة والذي يفوته سوية ودفعة واحدة كل شيء، في باريس، خلال سنة ١٩٦٧؟ وكانت فكرة الذهاب لمراجعة طبيب نفسي، تجعله يشعر بالمذلة. بل وكان يرفضها بشدّة، بدافع من كبرياء الذهن، الذي لم يكن بعيداً عن التفكير بأنه أفضل ما لديه من ميزات ذاتية.

فهو لم يكن يستطيع سوى أن يلزم الصمت، ويستمر، وأخيراً أن يحاول المتابعة والاستمرار. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الإيمان

المطلق، بل الأعمى، الذي كان يكنه دائماً للحياة ولمصادفاتها، كان يجعل كل هذا يبدو له على أنه وقتي وعابر. والوقت، المعلم الوحيد، الذي اعترف به لنفسه، كان قد حطم أحداث حبه، مظاهر سعادته، وأحزانه، وأحياناً أفكاره، ولم يكن هنالك سبب أو مبرر بألا يحطم أيضاً «ذلك الشيء» عديم اللون، ولا يمكن تسميته. وهو لا يعرف ما هو وماذا يكون. وربما لم يكن للوقت سلطة إلا على ما نعرفه.

٢

كان يكتب في زاوية «الشؤون الخارجية»، وقد أمضى صبيحة النهار كلها في مقر الصحيفة. وكان العالم طافحاً بالأحداث الدامية، والعبثية، التي كانت تثير لدى زملائه شعوراً بالرعب، يتسم بالرضا، وكان ذلك يثير غيظه. وفيما مضى، أي قبل ثلاثة أشهر على وجه التقريب، كان من الممكن أن يحب أن يهتف وأن يصرخ معهم، ويعلن عن غيظه وحنقه، ولكن هنا، والآن لم يكن يستطيع أن يفعل ذلك. بل لقد كان يشعر أنه مستاء بعض الشيء من كونهم يحاولون هكذا، في الشرق الأوسط، وفي الولايات المتحدة، أو في أمكنة وبلاد أخرى، إلهاءه عن مأساته الحقيقية: هو: فالأرض تتحرك في البلبلة والفوضى، ومن هو الذي يمكن أن تكون لديه الرغبة أو الوقت لكي يلتفت إلى مشاكله الخاصة ويتمعن بها؟ ومع ذلك، فكم من الساعات أمضاها، هو نفسه، وهو يستمع إلى خطابات تنم عن الغيظ وعن اليأس، وإلى

اعترافات بالخيبة وبالفشل، وكم هي عمليات الإنقاذ المزيفة التي لم يحققها؟ كلا، كان الناس يسيرون من حوله، وفي عيونهم بريق الإثارة، وكان هو وحده، وبشكل مفاجئ، مسلوباً من أي يقين أو اعتقاد راسخ، كأي كلب شارد، وأناني كبعض الشيوخ الذين تقدمت بهم السن، وعديم الأهمية والأهلية مثلهم. وقرر فجأة أن يذهب لمقابلة «جان»، في الطابق الأعلى، لكي يتحدث إليه. وكان «جان» هو الرجل الوحيد الأكثر ترفعاً وتجرداً، والأكثر تحسساً أيضاً بقرب معين لمصيبة ما، من بين من عرفهم من الرجال، حتى ذلك الحين.

وبعد أن بلغ الخامسة والثلاثين من العمر، كان لا يزال جميلاً. ولا يزال هذه، تذكر لأنه كان يتمتع بجمال لا مثيل له، عندما كان في العشرين من العمر، وهذا الجمال لم يكن، علاوة على ذلك، يعيه أو يشعر به ولكنه استخدمه ببهجة وسرور، وظل خلال زمن طويل يثير الرغبة، على السواء، لدى النساء والرجال وعبثاً ودون جدوى، لدى هؤلاء. وبعد مرور خمس عشرة سنة، أصبح أكثر نحولاً، وأكثر ذكورة، ولكن، ظل هناك شيء في مشيته، وحركاته، من ذلك المراهق، المزهو الذي كان فيما مضى. و «جان» الذي أحبه، بشكل جنوني، في ذلك الوقت، دون أن يبوح له بذلك، ومن جهة أخرى حتى دون أن يعترف بهذا الحب، لنفسه وبالسر، شعر بصدمة خفيفة في قلبه، عندما رآه يدخل إلى مكتبه: هذا النحول، هاتان العينان الزرقاوان، وهذا الشعر الأسود، الطويل، وهذه العصبية.. فهو، علاوة على ذلك، يزداد عصبية يوماً بعد يوم، ولذلك، فإن عليه، هو «جان» أن يهتم ويعتني به. ولكنه، لم يكن يستطيع أن يقرر القيام بذلك: لقد كان «جيل» بالنسبة له، منذ زمن

طويل، رمز السعادة وراحة البال، واللامبالاة، لدرجة أنه كان يأنف من أن يتحدث إليه، كما يأنف المرء من مهاجمة إحدى الصور. وماذا لو أن الصورة قد تفتت.. وإذا كان، هو «جان» على الدوام ومنذ زمن طويل، قصيراً وسميناً، أي «مربوع القامة» أصلع، تعذبه، بل تمزقه تصاريف الحياة ومشاكلها، قد اكتشف بأنه لا يوجد «بالضرورة» أي رجل سعيد؟ وآنذاك، لم يعد الأمر، بالنسبة له وهماً ضائعاً، ولكن هذا كان يبدو له، بسبب سذاجته بالذات، أقسى وأصعب ما يمكن فقدانه وإضاعته. ودفع كرسياً نحو «جيل» الذي جلس عليه بعناية واحتراس، لأن الغرفة كانت تطفح بالأضابير الكثيرة الملقاة كيفما اتفق على الأرض وعلى المكاتب، وحتى على المدفأة. وقدم له سيجارة. وكانت النافذة المفتوحة تطل على منظر مكون من أسطحة رمادية وزرقاء، ومن «غابة» من المزاريب و «هوائيات» أجهزة التلفاز، التي كانت، منذ زمن بعيد تسحر «جيل» وتخلب لبه، ولكنه، لم ينظر إليها أبداً.

وقال «جان»:

- ماذا هنالك؟ أحسن، كل ذلك، وما قولك؟

- أتتحدث عن جريمة القتل؟ نعم، يمكن القول إنها من الأعمال الظريفة.

ثم صمت، وأطرق في الأرض. فانقضت دقيقة، قام خلالها «جان» بمجهود أخير، فرتب بعض الأضابير وهو يصفر، كما لو أن الصمت أثناء دقيقة من الوقت كان أمراً طبيعياً بينهما. وأخيراً، فقد خضع واستسلم، وفي داخله تصاعدت دفعة كبيرة من الطيبة: فقد تذكر حرارة «جيل»، لطفه، انتباهه عندما فارقته زوجته، وكيف أصبح

فجأة، أنانياً بشكل مخيف. وقد مر شهران وهو يشعر أن «جيل» تعيس جداً، وخلال هذين الشهرين، كان يتحاشى أن يتحدث إليه عن ذلك. وكان هذا، أكثر بكثير مما ينبغي لصديق نحو صديقه. ومع هذا، فلأن «جيل» كان يترك له، أو بالأحرى يفرض عليه القيام بالمبادرة، بل بالهجوم، فلم يستطع الامتناع عن تنظيم عملية إخراج بسيطة. كان الجميع على هذه الحال، بعد انقضاء ثلاثين سنة: فأي حدث، إن كان ذا طابع عالمي أو عاطفي، يتطلب على وجه التقريب، معنى معيناً للمسرح والتمثيل لكي يمكن الاستفادة منه واستغلاله بشكل حقيقي، أو أن يصابوا به فعلاً ويعانوا منه. وهكذا، فقد أطفأ «جان» سيجارته التي لم يدخن سوى نصفها، في المنفضة، ثم جلس، واضعاً إحدى يديه فوق الأخرى، تفرّس في وجه «جيل» لحظة، سعل وقال باقتضاب:

- ماذا هنالك؟

فقال «جيل»:

- وماذا يمكن أن يكون هنالك؟

وأخيراً، فقد شعر بالرغبة بالانصراف، وهو يعرف بأنه لن ينصرف. وأنه عمل كل ما بوسعه لكي يجعل «جان» يكف عن استجوابه وأسوأ من ذلك، فقد كان قد شعر، بسببه بشيء من الارتياح.

- إذن، فالأمور ليست على ما يرام، أليس كذلك؟

- كلا.

- منذ شهر، أو شهرين، ربما؟

- منذ ثلاثة أشهر.

كان «جان» قد افترض تلك المدة، بالمصادفة وكيفما اتفق تقريباً، لكي يبرهن لجيل، بأنه مهتم به ويعيره انتباهه، وأنه إذا كان لم يحدثه قبل ذلك عن هذا الأمر، فلم يكن ذلك إلا بدافع من الخجل والحياء. وفي الحال، تبادر إلى ذهن «جيل»: «ها كم، كيف يتظاهر الخبيث بأنه ثاقب البصر ونافذ البصيرة، وعلاوة على ذلك، فهو يخطئ بشهر في تقديره للمدة». واستأنف الكلام:

- لقد انقضت ثلاثة شهور، وأنا... وأنا أعيش في حالة سيئة.

فسأله «جان» وهو يشعل سيجارة، بحركة سريعة:

- ألذلك أسباب واضحة، ومحددة؟

وفي تلك اللحظة، شعر «جيل» بأنه قد كرهه:

«فليتخل عن لهجة ضابط الشرطة هذه، وعن هذه اللهجة التي يتكلم بها الشخص الخبير، الذي لا يشفق ولا يعطف على أحد، وليكف عن هذه المهزلة. ولكنه في الوقت نفسه، كان يجب عليه أن يتكلم، فقد كان هنالك تيار دافئ، سهل، لا يقاوم، يدفعه نحو البوح، بما يكتمه.

- ليس هنالك أي سبب.

فقال «جان»:

- هذا أكثر خطورة.

فقال «جيل»:

- هذا يمكن أن يتوقف على أمر ما.

وجعلت نبرة صوته العدوانية «جان» يتخلى عن دوره كطبيب نفساني. ونهض، فدار حول المنضدة، وضع يده على كتف «جيل» وقال متمتماً: «هيا، يا صديقي المسكين، اذهب» الأمر الذي زاد من فظاعة

الموقف، وجعل الدموع تنهمر من عيني «جيل» وبالتأكيد، لم يكن يقوى بعد ذلك على شيء. فمد يده نحو المكتب، تناول قلم «BIC» (بيك)، وأخذ يدخل ويخرج رصاص القلم بأكبر قدر من الاهتمام.

وسأله «جان»:

- ماذا بك يا عزيزي الصغير؟

ما هو الأمر الذي ليس على ما يرام؟

وهل أنت متأكد بأنك لست مريضاً؟

- لا شيء. ليس بي شيء، ولم يعد لدي رغبة بأي شيء، وهذا كل ما هنالك. وهذا مرض دارج، وهو مرض العصر، أليس كذلك؟

وحاول أن يمزح ويضحك قليلاً، والواقع، كون ذلك كثير الحصول، ومنتشراً على السواء بين الأطباء، إلى تلك الدرجة، في جميع الجهات، لم يكن ذلك يطمئنه، بل، بالأحرى، كان يزعجه ويغيظه، ولولا ذلك، لاستطاع على الأقل، أن يشعر بأنه في حالة معينة، إذا لم يكن هنالك، أفضل من ذلك.

وبجهد واضح، استأنف الكلام:

- هاك، ما أقوله لك: لم يعد لدي رغبة بالعمل، ولا رغبة بممارسة الحب. ولا أشعر بالرغبة بالتحرك. ورغبتي الوحيدة، هي أن أمضي أيامي وحيداً في سريري، واضعاً الغطاء فوق رأسي، وأنا..

- هل حاولت، وهل جربت ذلك؟

- بالتأكيد ولكن ليس، لفترة طويلة. وقد شعرت بالرغبة بأن أقتل نفسي، مساءً، عند الساعة التاسعة. كان السرير يبدو لي وسخاً، وكانت رائحتي الخاصة تثير غيظي، وكرهت نوع و «ماركة» سجائري. فهل تجد هذا عادياً وطبيعياً؟

فغمغم «جان» منزعجاً، وقد صدمته هذه التفاصيل التي تعبر عن بؤس ذهني، أكثر مما لو كانت تفاصيل فاحشة وبذيئة، وبذل جهداً أخيراً نحو الحصول على تفسير منطقي:

- و «ايلوييز»؟

- «ايلوييز» إنها تتحملني. وليس لديها كثيراً من الأمور الهامة لتقولها لي كما تعلم، وهي تحبني كثيراً. وعلاوة على ذلك، فأنا عاجز. ليس معها وحسب، كلا، بل بصورة عامة. هكذا، أخيراً، على وجه التقريب، وعلى أي حال، حتى ولو توصلت إلى القيام بذلك، فإن هذا يجعلني أشعر بالملل، ولذلك..

فقال «جان»:

- إن هذا ليس بالأمر الخطير، ومن الممكن معالجته. قال هذا وهو يحاول أن يضحك، وأن يحول القضية إلى قصة «ديك صغير» جرح. وأضاف: «كان عليك أن تراجع طبيباً ماهراً، وأن تتناول بعض «الفيتامينات»، وأن تتنزه في الهواء الطلق، وبعد خمسة عشر يوماً، ستستأنف الجري وراء المغامرات الغرامية.

فرفع «جيل» ناظريه، وبدا وكأنه قد فقد وعيه، ولا يستطيع أن يتمالك نفسه:

- ولكن عليك ألا تعيد كل شيء، وتنسبه إلى هذا الذي تعنيه، فأنا لا أهتم، ولا أبالي به، أتفهم؟ إني لا أهتم ولا أبالي به! ولا أشعر برغبة لأي شيء، أتفهم؟ وليس بالرغبة بالنساء وحسب. بل ليس لدي رغبة بالعيش وبالوجود، فهل تعرف «فيتامينات» لمعالجة هذه الحالة؟

فخيم الصمت.

وقال «جان»

- كأس ويسكي؟

وفتح درجاً، أخرج منه زجاجة، وقدمها إلى «جيل» فشرب منها جرعة بصورة تلقائية، فارتعش وهز رأسه:

- وهذا أيضاً، لم يعد يجدي نفعاً بالنسبة لي، سوى من أجل النوم، والإرهاق والتخدير، لدرجة الموت. والكحول لم تعد مثيرة للبهجة والفرح. وعلى أي حال، فإنها لن تأتي بحل حقيقي، أليس كذلك؟

فتناول «جان» الزجاجة، بدوره، واحتسى منها جرعة كبيرة، وقال:

- تعال، لنذهب ونتسكع.

وخرجا. كانت «باريس» مدهشة، ورائعة بشكل مذهل، يجعل العيون تذرف الدمع، في مطلع ذلك الربيع، والشوارع كانت هي نفسها وعلى حالها، بحاناتها نفسها: حانة «LE SLOOP» (المركب الشراعي) التي كانا يرتادانها سوية لكي يحتسيا الشراب، في المناسبات، وعند حصول حدث هام، ومحل بيع التبغ والسجائر، الذي كان «جيل» يرتاده، لكي يجري اتصالات هاتفية سرية وفي الخفاء، مع «ماريا» أيام كان يحبها. يا إلهي، إنه ما زال يتذكر كيف كان يرتجف آنذاك، وتلك الحرارة في غرفة الهاتف، والطريقة التي كان يقرأ بها الخربشات على الجدار، دون أن يفهمها، بينما كان الهاتف يرن ويرن، ولا أحد يجيب. وكم كان يتألم، وكيف كان يحاول أن يبدو طلق المحيّا، أمام صاحبة المحل، عندما كان يطلب منها، بعد ذلك، كأساً، يحتسيه بجرعة واحدة، في حين كان قلبه يتقلص وينقبض، من الألم والغيظ، فكم وكيف كان يعيش! وتلك الفترة

القاسية والنظيفة، التي كانت حياته خلالها، ملحقة ومتوقفة على شخص ما، وهذا الشخص كان يدوسها ويطؤها بقدميه: ومع ذلك كانت تبدو مرغوبة، ويحسد عليها تقريباً، فيما لو قورنت بالفترة الحالية. لقد كان مجروحاً، ولكن على الأقل، فقد كان لذلك الجرح وجه معروف.

وقال «جان»:

- وماذا لو سافرت؟ فإنك ستجد في مكان ما «ريبورتاجاً» (تحقيقاً صحفياً) تكتبه، وتمضي خمسة عشر يوماً في الراحة والاستجمام!

فقال «جيل»:

- لا أشعر بأي رغبة لذلك، وفكرة الصعود إلى الطائرة في ساعة محددة، وارتياد فنادق مجهولة، وضرورة مقابلة بعض الناس.. كلا، إني لا أستطيع القيام بكل هذا.. ثم هنالك الأمتعة.. آه، كلا!

فوجه له «جان» نظرة منحرفة، تنم عن الاستغراب، متسائلاً عما إذا كان لا يبالغ فيما قاله آنذاك. كان «جيل»، على مدى الأيام، يحب الهذر والمهازل، لا سيما وأن الجميع يحبونها، ويستخدمونها. ولكنه، آنذاك، كانت سيماء وجهه تنم عن الخوف والقرف، الأمر الذي اقنع «جان»:

- وماذا لو أمضينا أمسية مع فتاتين، كما كنا نفعل في الزمن الغابر، أنت وأنا؟ كما لو كنا قرويين، قصدا المدينة لكي يفرحا شبابهما، ويرتكبا الموبقات.. كلا، إن في ذلك شيئاً من الحمق.. وكتابك؟ تحقيقك الصحفي عن أميركا؟

- لقد كُتب سابقاً عنها خمسون تحقيقاً وأكثر، وأفضل مما يمكنني أن أكتبه. وهل تعتقد أني أستطيع أن أكتب سطرين يتضمنان فائدة هامة، في حين أني لا أهتم بأي شيء؟

كانت فكرة ذلك الكتاب تفقده صوابه، فهو في الحقيقة أراد أن يكتب «ريبورتاجاً» تحقيقاً صحفياً عن الولايات المتحدة التي يعرفها جيداً، وصحيح أنه حلم بذلك، ووضع المخطط اللازم لإنجاز هذا العمل، وصحيح أيضاً أنه آنذاك، كان عاجزاً عن كتابة سطر واحد في ذلك الموضوع، أو عرض وشرح أي فكرة فيه. ولكن ما الذي حصل له في النهاية؟ وعن أي ذنب يعاقبونه؟ فقد كان يتعامل مع أصدقائه بأخوة تتسم بالإخلاص، ولطيفاً ودوداً مع النساء. ولم يسبق له أبداً أن أساء عن قصد إلى أي أحد. ومن هو الذي يعاقبه؟ ولماذا يتلقى حياته على رأسه، وهو في الخامسة والثلاثين من العمر، وكأنها قذيفة مسمومة؟

وقال صوت «جان» القريب منه، وهو صوت هادئ، جدير بتهدئة أعصاب «جيل» الذي لم يحتمله:

- سأقول لك ماذا بك: أنت متعب، وأنت.. فقاطعه «جيل» فجأة، وهو يزمجر، بينما كانا يسيران في وسط الشارع:

- ستقول لي ماذا بي؟ كلا، لن تقول لي ذلك، لأنك لا تعرفه! ولأني «أنا» لا أعرفه! وأضاف بشيء من الغيظ وسوء النية: «وعلاوة على ذلك، فأنا أريد منك أن تنصرف وأن تدعني وشأني»!...

أخذ الناس ينظرون إليهما، فاحمر وجهه فجأة، ومد يده نحو ثنية سترة «جان»، كما لو أنه أراد إضافة شيء ما، ثم استدار، وانصرف مسرعاً، نحو أرصفة نهر «السين» دون أن يقول لصديقه: «إلى اللقاء».

٣

كانت «ايلوييز» تنتظره، وكعادتها فهي تنتظره على الدوام. وهي تعمل عارضة أزياء في إحدى دور الخياطة وبيع الملابس، ولكنها لم تحقق نجاحاً يذكر، وقد أقامت عنده بكل حماسة وسرور، منذ سنتين، وأتت ذات مساء حيث كانت ذكرى «ماريا» تقلقه وتسبب له ألماً لم يكن يستطيع تحمله، وكان يعاني من العزلة والوحدة. وكانت تبدو سمراء، شقراء أو صهباء، حسب الفصول، لأسباب تتعلق بتوليد الضوء بالتصوير لدرجة أنه كان قد اقلع عن محاولة تبين ذلك. وكانت ذات عينين زرقاوين، جميلتين جداً، وجسم ظريف، ومزاج رائق، لا يعكره شيء. وكانا قد تفاهما جيداً، على مستوى معين، ولزمن طويل، ولكنه في الوقت الراهن، كان يتساءل بقلق، ماذا يستطيع أن يقول لها، وكيف سيمضي السهرة معها. كان بإمكانه أن يتذرع بأنه مدعو بمفرده لتناول طعام العشاء مع بعض زملائه ويخرج

دون أن يصطحبها معه، وهي لن تستاء من ذلك، ولكنه لم تكن لديه رغبة بأن يعود إلى السير في الشارع، ليلاً في باريس، كان يشعر بالرغبة بأن ينزوي، وينفرد بنفسه.

كان يقيم في شقة صغيرة، ذات ثلاث غرف، تقع في شارع «السيد الأمير»، لم ينته من فرشها وترتيبها. كان في بداية الأمر، يعمل بحماسة، فركب بعض الرفوف، وشبكة مكبرات للصوت مكتبة وتلفاز. وباختصار، عشرات الأدوات التي تعتبر كفيلة بأن تجعل الحياة مريحة، عذبة وتنم عن الثروة والغنى. وهي أشياء أصبح ينظر إليها، في الوقت الراهن، بشيء من السأم، وقد أصبح عاجزاً حتى عن تناول أحد الكتب، هو الذي عشق الأدب، وغذى به ذهنه، على مدى الأيام. كانت «ايلوييز» تتابع برامج التلفاز، عندما دخل، وبيده إحدى الصحف، ومع أنها كانت حريصة على ألا يفوتها أي برنامج يبثه التلفاز ومع ذلك فقد نهضت بسرعة وهي مرحة لكي تعانقه: فبدا له أن ذلك يتسم بالمبالغة، ويثير الضحك، من قبل هذه «المرأة الحقيقية والصغيرة»، واتجه نحو «المشرب» أو بمزيد من الدقة «المنضدة المتحركة التي تقوم مقامه»، وملأ كأساً من الويسكي، دون أن يكون لديه رغبة باحتسائه. ثم ذهب فجلس على الأريكة المجاورة لأريكة «ايلوييز»، وأخذ يتأمل باهتمام الشاشة الصغيرة. فتوقفت «ايلوييز» عن المتابعة، والتفتت نحوه، وسألته:

- هل أمضيت نهاراً سعيداً؟

- كان سعيداً جداً. وأنت؟

- وأنا أيضاً.

وقد بدا عليها الارتياح، فعادت إلى متابعة البرنامج: كان بعض الشباب المجهولين يحاولون تشكيل كلمة بواسطة أحرف من خشب، عرضتها عليهم مقدمة البرنامج، وعلى شفتيها ابتسامة عذبة. وأشعل «جيل» سيجارة، وأغمض عينيه.

فقالت «ايلوييز»:

- اعتقد أن الكلمة، هي «صيدلية».

- عفواً؟

- أعتقد أن الكلمة التي يبحثون عنها، هي «صيدلية».

فقال:

- هذا ممكن تماماً.

وعاد فأغمض عينيه. ثم حاول أن يحتسي جرعة من كأسه. وكان قد سخن قليلاً، فأعاده إلى مكانه على المنضدة.

- اتصل «نيقولا» وسأل عما إذا كنا نريد أن نلحق به إلى النادي، مساء اليوم. فما هو رأيك بذلك؟

فقال:

- سنرى، لقد عدت للتو.

- وإلا، ففي البراد «لحم عجل بارد»، والمسلسل في التلفاز.

فتبادر إلى ذهنه: «حسناً، إنه خيار ظريف، إما أن أتناول طعام العشاء مع «نيقولا» الذي سيشرح لي، مرة أخرى أنه لو لم تكن السينما عفنة وفاسدة لكان قد أنجز رائعته منذ زمن طويلاً. أو أني سأتابع مشاهدة الحماقات، جالساً على أريكتي وأنا آكل «لحم العجل البارد» فما أفظع ذلك»!. ولكنه، فيما مضى كان يخرج، وله

كثير من الأصدقاء، وهو يحب التسلية واللهو، وكثيراً ما كان يلتقي بأناس جدد، وكل ليلة كانت عيداً، بالنسبة له!.. فأين أصدقاؤه؟ إنه يعرف جيداً أين هم، وما عليه إلا أن يمد يده نحو الهاتف. فهم قد ملوا من القيام بذلك دون جدوى، منذ ثلاثة أشهر، وهذا كل ما هنالك. ولكنه فتش كثيراً عن اسم، عن وجه يمكن أن يحب رؤيته. فلم يعثر لا على هذا ولا على ذاك. وحده ذلك الثرثار «نيقولا» يلاحقه. وهنالك سبب لذلك: فلا بد من أنه لا يملك ثمن المشروب الذي سيحتسيه.

ورن الهاتف، فلم يتحرك، بينما كان فيما مضى يقفز مسرعاً نحوه: فقد كان الحب، الثروة، الحظ، أو المغامرة هي التي تناديه. وهو واثق من ذلك، أما الآن، فإن «ايلوييز» هي التي ترفع السماعة، لترد على المكالمة. وصاحت من داخل الغرفة:

- المكالمة لك، إنه «جان».

فتردد لحظةً: ماذا سيقول له؟

ثم فكر بأنه كان فظاً معه صباح ذلك اليوم، وإنه لأمر معيب ومخجل أن يبدو المرء فظاً حيال صديقه. وعلاوة على ذلك، فهو الذي ذهب ليزعج هذا المسكين «جان» بمتاعبه، وهمومه الخاصة، وهو الذي انصرف مسرعاً وتركه في وسط الشارع.

وتناول السماعة:

- هذا أنت، «جيل»؟ كيف حالك، هل أنت بخير؟

فأجابه:

- نعم.

كان صوت «جان» حاراً، قلقاً، صوت صديق حقيقي.

فتأثر «جيل» وبدأ الكلام، قائلاً:

- أنا آسف جداً، لما بدر مني صباح اليوم، وأنا...

فقاطعه «جان» قائلاً:

- سنتحدث عن ذلك بصورة جديةً، غداً. ماذا ستفعل هذا المساء؟

- أعتقد أني.. أننا سنبقى هنا، وسنأكل «لحم العجل البارد».

وكان رده هذا، عبارة عن نداء استغاثة وطلب للنجدة، يكاد يكون صريحاً وواضحا. وخيم صمت قصير، ثم استأنف «جان» الكلام، بهدوء:

- ينبغي عليك أن تخرج، بالطبع، فهنالك العرض الأول لبوبينو (BQBINQ) إذا رغبت بذلك، لدي بطاقات، وأنا..

فقاطعه «جيل»، قائلاً:

- أشكرك، فليس لدي رغبة بالخروج. وغداً، سنلهو ونشرب، إذا أردت ذلك.

ولم يكن ينوي أن يفعل شيئاً من هذا، و «جان» يعرف كل شيء عنه. وكان قد تأخر قليلاً، لأن عليه أيضاً أن يغير ملابسه، قبل الخروج، وقد ناسبه تماماً هذا الوعد الزائف، فأعلن موافقته، وقال، مع ذلك: «إلى اللقاء يا عزيزي» (بصوت أرق من المعتاد) ووضع سماعة الهاتف.

فشعر «جيل» أنه أصبح أكثر عزلة ووحدة، فعاد إلى الغرفة، وجلس. كانت «ايلوييز» لا تزال تتابع برامج التلفاز، باهتمام وشغف.

فانزعج «جيل» وثارت أعصابه فجأة:

- كيف يمكنك أن تشاهدي هذه البرامج؟

فلم يبد عليها أنها قد فوجئت، والتفتت نحوه، بوجه هادئ، لطيف ومسالم:

- كنت أظن أن ذلك يجعلك تتحاشى أن تتحدث إلي.

فدهش كثيراً، لدرجة أنه لم يرد. وفي الوقت نفسه، فإن الخضوع الذي عبرت عنه تلك الجملة ملأته غيظاً مكتوماً، ومعروفاً أكثر مما ينبغي: وهو الغيظ الذي يجعله يتألم. وشعر بأنه قد انكشف أمره:

- لماذا قلت ذلك؟

فهزت كتفيها.

- هكذا. أعتقد.. لدي انطباع بأنك ترغب بأن تكون منفرداً، لوحدك، وألا يهتم بك أحد. ولذلك قد استمريت بمشاهدة ما يعرضه التلفاز.

كانت تنظر إليه بطريقة تنم عن المناشدة والتوسل، ولكم كانت تود أن يقول لها: «ولكن، بلى، وعلى العكس من ذلك، اهتمي بي وتحدثي إلي، فأنا بحاجة إليك» وراودته، في تلك اللحظة، هذه الفكرة، لكي يرضيها ويحقق لها بعض السرور. ولكن ذلك كان يمكن أن يشكل كذبة، وكذبة إضافية، ولم يكن له حتى الحق بأن يفعل ذلك.

وقال بصوت ضعيف:

- لست تماماً على ما يرام الآن، لا تنقمي علي، فأنا لا أدري ماذا بي.

فقالت:

- لست ناقمة عليك، فأنا أعرف ماذا هنالك. فقد حصل لي ذلك، عندما كنت في الثانية والعشرين من العمر: إنه انهيار عصبي. كنت أبكي طيلة الوقت. وقد كادت أمي تجن، بسبب ذلك.

كان لا بد من أن يحصل هذا: إجراء المقارنة! فقد كان يحصل لايلوبيز كل شيء، وعلى الدوام.

- وكيف عولج وسوي ذلك؟

كانت تشوب صوته نبرة ساخرة، سيئة. والواقع هو أنه لم يكن يتوصل إلى مقارنة «مرضه» بمرض «ايلوبيز». فهذا يكاد يكون مهيناً بالنسبة له، نفسه.

- لقد زال فجأة، هكذا، فقد تناولت أقراصاً صغيرة لمدة شهر - ولكن، يا للحماقة، فقد نسيت اسم تلك الأقراص - وذات صباح، شعرت أن حالتي قد تحسنت وأني على ما يرام. ولم تكن تضحك. وكان ينظر إليها بشيء من الكراهية:

- من المؤسف، أن تكوني نسيت اسم تلك الأقراص. وربما استطعت الاتصال بأمك لتسأليها عن اسمها.

فنهضت، اقتربت منه، وأمسكت رأسه بيديها. فأخذ يحدق بهذا الوجه الجميل الهادئ والمطمئن. وبهذا الفم الذي قبل كثيراً، وبتلك العينين الزرقاوين، اللتين تعبران عن الشفقة والرثاء:

- «جيل».... «جيل».. إني أعرف أني لست خبيثة ولا ماهرة جداً، وأني لا أستطيع أن أعمل شيئاً هاماً، بالنسبة لك. ولكني أحبك، يا «جيل»، يا عزيزي...

وأخذت تبكي، عند ذلك، وهي تستند على سترته، ومع الشفقة، كان يشعر، من جهته، بسأم شديد.

وقال لها:

- لا تبكي، لا تبكي، سيسوى كل هذا... أنا منهك، بل مريض، وسأذهب غداً لمراجعة أحد الأطباء.

ولأنها أخذت تبكي بهدوء شيئاً فشيئاً، كطفلة خائفة، فقد أقسم لها أنه سيذهب في اليوم التالي لمراجعة الطبيب، وأخذ يأكل «لحم العجل» البارد، وهو يبتسم ويحاول أن يتحدث إليها قليلاً، ثم قبلها بعطف وحنان على خدها، وانقلب على جنبه في سريرهما المشترك، آملاً ألا يطلع الفجر.

٤

كان الطبيب ذكياً، ولكن هذا لم يفد بشيء، ولم يسو المشكلة، بل على العكس من ذلك. لقد فحص رئتي «جيل». تنصت على دقات قلبه، ألقى عليه أسئلة عادية ومبتذلة، وهو يبدو مغالياً كالرجل الذي لا يتوهم ولا ينخدع بحيله الخاصة.

وكان «جيل» يجلس آنذاك قبالته، على أريكة ضخمة، من طراز «لويس الثالث عشر» ويحدق به باهتمام ولديه أمل غامض بألا تخفي هذه الثقة وهذا التصميم، عجزاً تاماً عن شفائه.

و «أخيراً بدا على سيماء وجهه التصميم، كطبيب، كما يبدو ذلك على سيماء وجه المحامي، المقتنع بقضية ما، كما كان يحصل معي من وقت لآخر، وتبدو على سيماء وجهي أمارات الاهتمام والتفهم لبعض الأمور كشخص يعمل في الصحافة».

ولكنه لم يكن يستطيع أن يمنع الأمل من أن يراوده: فماذا لو

كان هنالك قرص صغير، في مكان ما يمكن أن يشفي من ألم العيش؟

ولماذا لا يكون ذلك. وماذا لو كان كل ما ينقصه هو قليل من الكالسيوم، أو من الحديد، أو مما يعرفه الله وحسب، لكي يكون سعيداً؟ وهذه الأشياء موجودة، على أي حال! ويريد المرء على الدوام أن يتظاهر بالخبث وبالمهارة بواسطة ذهنه، إرادته، حريته، ثم يجد نفسه مقيداً» لأنه تنقصه فيتامينات «ب». وهاك. فهذا ما كان ينبغي أن يقوله لنفسه، وما كان يجب عليه أن يتقبله. فالجسد ليس سوى معمل دقيق وحساس و..

وقال الطبيب:

- باختصار، أنت لا تجد نفسك بصحة جيدة، وأنك على ما يرام، ولا أخفي عليك، فأنا لا أستطيع أن أقدم لك شيئاً هاماً يمكن أن يفيدك.

- وكيف ذلك؟

كان «جيل» يشعر بالغيظ وبالمذلة. فقد وضع نفسه معنوياً وأخلاقياً، طيلة ساعة من الزمن، تحت حماية هذا الرجل، ووضع ثقته به، وهذا الدجال يصرح له، بكل برود، بأنه لا ينبغي له أن يعتمد عليه. ولكنه كان طبيباً، بعد كل شيء، وهذه هي مهنته. و «يجب عليه» أن يفعل شيئاً ما. فماذا لو كان الميكانيكيون، وأصحاب ورشات التصليح، لم يعودوا يفقهون شيئاً في شؤون وأمور السيارات، وماذا لو..

- أنت بصحة جيدة جداً، من الناحية الجسدية، في ظاهر الأمر، أخيراً. وأستطيع أن أجري لك بعض التحاليل إذا أردت ذلك، أو

أن أصف لك بعض الأدوية، من أجل استعادة حيويتك «إبرة» قبل كل وجبة، تأخذها مرة قبل وجبة بعد كل خمس وجبات..

كان يسخر منه تقريباً، فكرهه «جيل»: كان يبحث عن أب محب وحنون، فقيض له شخص متقزز وضجر من الناحية العلمية.

وقال بجفاء:

- إذا كنت تظن أن ذلك يفيدني ويمكن أن يساعدني على الشفاء، فأنا أستطيع تماماً تناول أي دواء مرتين كل يوم.

فأخذ الطبيب يضحك:

- ولكن، أي دواء؟ أنت تعاني من وهن عام، يسمى «الانهيار العصبي» وهذه حالة ذهنية، نفسية، وجنسية... الخ، مثلما قلت لي أنت. وأستطيع أن أحيلك إلى طبيب نفساني، إذا رغبت بذلك، وفي بعض الأحيان، تسير الأمور بشكل جيد، وتحل المشكلة، وأحياناً لا يتم ذلك. وهنالك الدكتور «جيرو» وهو ماهر جداً..

فأبدى «جيل» حركة بيده، يستبعد بها هذا المشروع.

- أستطيع أن أشير عليك بأن تسافر بأن تخلد إلى الراحة أو أن ترهق نفسك. فأنا لست طبيباً ماهراً في هذا المجال، وأعترف لك بذلك. ولا أستطيع تأكيد ما أجهله. ولا أستطيع أن أنصحك إلا بالانتظار.

وعند ذلك، نادى سكرتيرته، أملى عليها وصفة لطيفة التأثير ومعقدة، في آن معاً، كما لو أنه يقدمها هدية إلى «جيل». وبدا ذكياً، حسن المظهر، ولكن هيأته تنم عن السأم. ووقع الوصفة وناولها لجيل.

- يمكنك دائماً أن تحاول. وعلى أي حال، فهذا يطمئن زوجتك، إذا كنت متزوجاً.

فنهض «جيل» تردد قليلاً، كانت لديه رغبة بأن يقول: ولكن، ماذا علي أن افعل، إذن»؟ فهو نادراً ما كان يذهب لمراجعة أحد الأطباء، لدرجة أن الهدوء الواثق لدى هذا الطبيب، قد أصابه بالذهول. وقال:

- أشكرك، وأنا اعرف أنك مشغول جداً، وأن «جان» هو الذي..

فقال الطبيب:

- «جان» هو أحد أفضل أصدقائي، على أي حال، يا صديقي، فإني أرى رجالاً مثلك، يزيد عددهم عن خمسة عشر، كل أسبوع. وهذه أمور تسوى، بصورة عامة. وكما يقال، فالعصر هو عصر هذه الحالات.

وربت على ظهر «جيل» ورافقه حتى الباب. وعند الساعة الخامسة بعد الظهر، وجد نفسه على الرصيف، منزعجاً وحائراً، كرجل أبلغ بأنه سيموت عما قريب، وقد استبد به الغيظ. ومن المؤكد أن «جان» كان قد قال له: «اذهب إلى هذا الطبيب، فهو على الأقل لن يروي لك قصصاً وحكايات»، ولكن أكان لهؤلاء الذين يمارسون هذه المهنة الحق بألا يرووا قصصاً وحكايات؟ وهو كان يفضل كذاباً يدعي النبوءة أو مغفلاً أحمق لديه بعض الأدوية. وهو يدرك ذلك. وقد انحدر به الحال إلى درك أصبح وهو فيه يفضل أن يخدع، أن يكذب عليه، بأي شيء، فيما إذا كان ذلك يشجعه ويقوي

من عزيمته، وهذا ما كانت قد آلت إليه حالته، الأمر الذي كان يجعل قرفه من نفسه يزداد كثيراً.

فما العمل؟ كان يمكنه، بالطبع أن يعود فيمر على مكاتب الصحيفة، وإن كان لديه، هذه المرة، مبرر قوي، بألا يفعل ذلك: «كنت قد ذهبت لمراجعة الطبيب، يا سيدي». هذا الموقف الطفولي، وهذا الهوس بالاعتذار، وبالكذب، وهذه الطريقة التي تجعله يعتبر الأشخاص الراشدين الآخرين كمراقبين من السهل خداعهم، نعم، تلك العقلية، التي كانت عقليته، أخذت تزيد باستمرار وهناً وإحباطاً. وعمله، هذا العمل الذي كان مولعاً به، أخذ يشعر أنه عاجز عن القيام به، حتى ولو كان بشكل سيء. وكان «جان» يقوم بكل شيء نيابة عنه، آنذاك، ولكن هذا سيكتشف، ويُعرف في نهاية الأمر. فيدفعون به إلى الخارج، ويطرد من تلك الصحيفة التي أحبها كثيراً، وبذل جهداً كبيراً حتى وجد عملاً فيها وحقق مركزاً مرموقاً بين محرريها، وسوف يجد نفسه، وقد آلت به الحال إلى كاتب بسيط في إحدى الصحف أو النشرات التي تعنى بالتحدث عن المشاكل والفضائح، ويكون قد استحق ما حدث له، فهذا أمر محتوم لا مرد له.. وسينتهي به الأمر بين أولئك الأوغاد، الشرهين والطماعين، الذين تغص بهم مكاتب بعض الصحف، وسيعمد إلى احتساء الخمر والسكر، باستمرار، وسوف يحزن ويبكي على نفسه، في الليالي، في المراقص ودور اللهو.

آه حسناً، وإذا كان عليه أن يلهو، ويرتكب الموبقات، فليفعل ذلك في الحال. و «جيلدا» لا بد من أن تكون في منزلها. وربما تكون

لديها فكرة ما. و «جيلدا» هناك دائماً، وهي مستعدة لتأمين المتعة للآخرين أو له، أو للجهتين معاً، وكان ينفق عليها ويعاشرها منذ عدة سنوات شاب برازيلي لطيف، كان يسحرها بمرحه وبلا مبالاته، وهي لم تكن تخرج عادة من منزلها الكائن في الطابق الأرضي، في شارع «باسي» محبوسة، ومخدرة بالمتعة واللذة، كما يتخدر آخرون بالأفيون. ومع أنها في الثامنة والأربعين من العمر، فهي لا تزال ذات جسم رائع، ورأس لبوة، ووجه غير مغضن، أما غضبها فشنيع جداً. وكان «جان» يقول عنها أنها إحدى آخر شخصيات «باربي دوريفلي»[1]. وكان من الممكن أن يصدقه «جيل» لو إنه لم يكن خبيراً بالنساء وبطباعهن وبشؤونهن، ولو لم يكن قد تبين أحياناً خلف شخصيتها الفظة، القوية، والمنتصرة، مهزلة، وتظاهراً بالمكر، يبدو واضحاً بعض الشيء، وكأنه مأخوذ من الكتب، ومهما كان الأمر، فإن «جيلدا» كانت امرأة جيدة، وهي تحبه كثيراً. أوقف سيارة أجرة، لأنه منذ شهرين، أصبحت فكرة قيادته لسيارته «السيمكا» في باريس تبدو له تجربة لا يمكنه القيام بها. وأعطى للسائق عنوان «جيلدا».

كانت لوحدها، هذه المرة، مرتدية فستاناً منزلياً مزركشاً، كعادتها، واستقبلت «جيل» بكثير من المحبة والمودة، وبكثير من اللوم والعتاب. وجلس على حافة السرير وأخذ يصغي إليها. فقد اشتاقت إليه. كانت عائدة من جزر «البهاما» وهي تكره البلاد الحارة

١- «BARBEY» D'AUREVILLY: كاتب فرنسي عاش في القرن التاسع عشر: (١٨٠٨-١٨٨٩) اشتهر بمجموعة قصصه، التي اعطاها عنوان «الشيطانيات» «LES DIABOLIQUES» وبروايات اخرى، وبمقالاته العنيفة والمتطرفة - المترجم -

تقريباً بقدر ما تكره البلاد الباردة التي يكثر فيها الثلج. ولديها عاشق جديد في التاسعة عشر من العمر، تعتبره «حبيبها العزيز»، كما أن أخته تعجبها كثيراً. وهل يرغب «جيل» بتناول كأساً من الويسكي أو من «الكوكتيل» كان فيما مضى يفضل احتساء بضعة كؤوس من الكوكتيل، دائماً، منذ أن عرفته، فمنذ متى بدأ ذلك؟ لقد كادت تحبه كثيراً. حقاً وحقيقةً. وبعد عشر دقائق، توقفت عن الكلام، وأخذت تتأمله بجدية وإمعان:

- أنت تخفي عني أمراً!

وأخذا يقهقهان بالضحك. كانا من زمن طويل يستخدمان هذه العبارة: «أنت تكرهني». و «جيل» الذي كان منزعجاً في بداية الأمر، أخذ يشعر بالارتياح، ومد ساقيه، وألقى نظرة تنم عن العطف والمودة، على الأشياء الغريبة الموجودة في الغرفة، والتي يعرفها وسبق له أن رآها كثيراً فيما مضى. ثم قال:

- لقد ذهبت، قبل قليل، لمراجعة أحد الأطباء.

- أنت، وماذا بك؟، حقاً، لقد نحل جسمك قليلاً، ألست مصاباً بـ......

أخذت الكلمة تتراءى بينهما، وفكر «جيل» بسخرية أنها كانت تماماً الكلمة الوحيدة التي لا تزال تثير حياء «جيلدا».

- كلا، لست مصاباً بالسرطان، ليس بي شيء. كل ما بي هو عبارة عن وسواس وبعض الهموم!

فقالت:

- آه، حسناً، لقد أخفتني. ومنذ زمن طويل، أنت تعاني من ذلك؟

- أوه... منذ ثلاثة أشهر تقريباً.. لا ادري، بالضبط، منذ متى!

فقالت فجأة:

- هذا معروف تماماً، إنه ليس هماً أو وسواساً، أنه إحباط، أو ضعف العزيمة، أو ربما كان انهياراً عصبياً. وأنت تذكر في أي حالة كنت أنا، سنة اثنين وستين.. والمزعج في هذا المرض، بأنه يبدو تماماً، أولاً أن جميع الناس قد أصيبوا به، وثانياً أن الجميع يجدون الحديث عنه شيقاً ومثيراً للعاطفة. وهكذا، فقد أصغى «جيل» إذن لحكاية إصابة «جيلدا» بالاكتئاب أو الإحباط، والتي انتهت، على ما يبدو، بشكل عجيب، ذات صباح في «كابري» إحدى الجزر الإيطالية، وبحث بغموض وصعوبة عن وجه للشبه أو جانب مشترك مع ما يشعر به، هو، ولكن عبثاً ودون جدوى.

فقالت «جيلدا» فجأة:

- اعرف بماذا تفكر. أنت تظن أن حالتك، ليست كما كانت حالتي. ولكنك مخطئ: فهي مثلها تماماً. وسوف تستيقظ ذات صباح، مرحاً كالحسون، وكما كنت سابقاً، أو أنك ستطلق رصاصة على رأسك. وأنت أكثر ذكاءً مني، هذا أمر نحن متفقون عليه، ولكن ماذا يفيدك ذكاؤك الآن، إيه؟

كانت تتحدث إليه بلطف ومودة، وهي تضع يدها على ركبته، وقد انحنت نحوه بجسمها الجميل، وكان، من جهته، يشعر بالدهشة لكونه لم يرغب بها ويشتهيها. مع أنه كان دائماً يرغب بها، في كل مرة يراها. وبدرت منه حركة نحو ثوبها المنزلي، ولكنها أوقفت يده وهي في طريقها إليه. وقالت:

- كلا، أني أرى جيداً أنك لا ترغب بذلك.

عند ذلك، وضع رأسه على كتفها القريب منه واستلقى بجانبها، وهو بكامل ملابسه، ودون أن يبدي أي حركة.

فأخذت تداعب شعره دون أن تقول شيئاً. كان قد خيم الظلام، وأنفه يلامس حرير الثوب، ويجد صعوبة في النفس، ويشعر بأنه ليس على ما يرام، وعاجز عن التحرك. فهزته أخيراً، وغمغم قليلاً، فقالت له:

- اسمع يا «جيل»، سيأتي «أرنو» بعد قليل، يجب أن أرتدي ملابسي، لأنه يريد أن يصطحبني لا أدري إلى أي حانة، أو إلى أي ملهى ليلي، فظيع. ولكني أدع لك المنزل. وإذا شئت، فإني أستطيع أن أرسل لك «فيرونيك» وهي هندية رائعة، ومن أكثر النساء اللواتي عرفتهن، ظرفاً وموهبة. وسوف تسليك وتروح عن نفسك قليلاً. وأنت ألا تزال على علاقة مع صديقتك «ايلوييز»؟

وفي الحال، بدت لهجتها معبرة عن ازدراء النساء اللواتي ينتقدن لدى عشاقهن السابقين، أي علاقة يطول أمدها، بعض الشيء.

فهز رأسه.

- إذن، نعم، فالعلاقة باقية، أليس كذلك؟

لم يكن يفكر إلا بأمر واحد، وهو ألا يتحرك. وألا يلقي نفسه من جديد في باريس، ويبحث عن تكسي، عند الساعة السابعة مساءً، وسط تزاحم الجماهير المتسارعة. وقال:

- نعم، فالعلاقة باقية.

وأخذ يتأملها بمتعة حقيقية، وهي تتزين، وتبدل ملابسها، وتتصل بالهاتف. وشد، حتى بمودة على يد الشاب «أرنو» الذي كان

الفتى الأنيق المحبوب، تماماً، ولكن ليس دون شيء من التنازل، الذي يبديه شخص متكبر.

وكان يشعر، وهو في ذلك المنزل المجهول والمنسي، ينتظر امرأة مجهولة، كأنه بطل رواية بوليسية، وقد سره ذلك. وبعد انصراف «جيلدا» وصديقها، بقليل، استلقى على الأريكة الموجودة في الردهة، بعد أن ارتدى رداءً منزلياً (روب دوشامبر)، كان قد تركه، بشكل مستغرب أحدهم، في ذلك المنزل، وأشعل سيجارة، تناول إحدى المجلات، وأحضر كأساً وضعها بقربه، ثم كان عليه أن ينهض لكي يجلب منفضة. واضطر إلى النهوض، ليخفض صوت «البيك أب» ويستمع للموسيقا العذبة، التي كانت «جيلدا» قد رفعت صوتها كثيراً. وكان عليه أن ينهض من جديد ليفتح النافذة لأنه شعر بأنه يكاد يختنق. ثم اضطر إلى النهوض مرة ثانية لكي يغلقها، لأنه شعر بالبرد. ونهض من جديد ليحضر سجائره التي نسيها في غرفة «جيلدا». وكان عليه أيضاً أن ينهض ليضع قطعة ثلج في كأس الويسكي التي أصبحت ساخنة.

واضطر إلى النهوض، ثلاث مرات متتالية، لتغيير الاسطوانات ومرة واحدة، نهض لكي يرد على الهاتف، ثم كان عليه أن ينهض ليستبدل المجلة. وفي هذه الحالة من الغيظ ونفاد الصبر التامين، من كل شيء، ومن نفسه بالذات، أيضاً، سمع قرعاً على الباب، وذلك بعد ساعة، ولكنه، هذه المرة، لم ينهض.

٥

كان يسير في الشوارع، آنذاك، متجهاً نحو منزله، ولكنه أخذ يقوم بعطفات ودورات كبيرة، عاجزاً عن التوقف، وعاجزاً عن العودة. كان لديه فراغ كبير، يعج بالضجيج في رأسه وكان يخيل له أن كل الناس يتأملونه ويحدّقون في وجهه، وأن جميعهم يجدونه قبيحاً، بائساً مثلما كان هو يجد نفسه، وتارة يبدو له أنه لا يتقدم، وتارة أنه قد اجتاز ساحة كبيرة، دون أن يشعر بذلك. وفي لحظة ما، وجد نفسه في الساحة القريبة من قصر «التويلري» فأخذ يفكر بـ «دريو لاروشيل»[1]. وبنزهته الزائفة هناك وكاد يضحك ساخراً من

١- «بيير دريو لاروشيل» (١٨٩٣-١٩٤٥) كاتب وروائي فرنسي، ولد في باريس، من مؤلفاته: «LE FEU FOLLET» (الوهج الخلبي او الأمور الزائلة) و «جيل» «GILLES» تأثر بالغاشية، واصبح مديراً للمجلة الجديدة الفرنسية في زمن الاحتلال الألماني لفرنسا، مات منتحراً، في باريس. المترجم

ذلك: فهو نفسه، لا يمكن أن تكون لديه الشجاعة أو الرغبة بأن يقتل نفسه أبداً.

فقد كان اليأس هو الذي يمكنه من أن يتحمل جميع الأشخاص فيما عدا الشجعان والرومانسيين. كان من الممكن، على وجه التقريب أن يحب أن تكون لديه الرغبة بقتل نفسه بالحقيقة. كان من الممكن أن يحب أي شيء يتسم بالتطرف.

وكان يقول، في سره: «ولكن، مع ذلك، ربما انتهيت إلى ذلك، كما لو كان يطمئن نفسه، وبالتأكيد، فإن هذا إذا استمر، فإني لن أستطيع أن أتحمله.. وينبغي تماماً علي «أنا» أن أفعل شيئاً ما».. وكان يفكر بهذه «الأنا» بمزيج من الأمل والخشية، كما لو كان يفكر بشخص آخر غريب، مؤهل بإمكانية التصرف مكانه، وبدلاً عنه. ولكن فيما بعد: لأنه لم يكن هنالك شيء فيه عبر تلك اللحظة، ولا أحد يمكن أن يكون قادراً على تناول مسدساً ويطلق له رصاصة في فمه، أو أن يلقي جسمه في نهر السين الذي تبدو مياهه خضراء داكنة، هناك، في أسفل المنحدر. ولم يعد يستطيع أن يتخيل موته، أكثر من حياته، وهذا ما كان يدعه هكذا، يتنفس، وهو موجود ومتألم.

وارتعش فجأة، وقرر أن يذهب ويسكر في «النادي». ولم يكن هذا حلاً باهراً، ولكنه لم يعد يطيق التحمل، والسير هكذا، ويداه المتجمدتان من البرد في جيبي معطفه الواقي من المطر، وتلك الأسلاك العصبية، والكهربائية، التي تربط يديه بكتفيه بقلبه وبرئتيه. وهو ذاهب لكي يسكر كثيراً وحتى الموت، وسيعيده أحد ما إلى البيت.

وهنـاك، علـى الأقـل، يمكنـه أن ينـام. وسـتجلس «ايلـوييز» بجانـب سريره، لتعتني به وتسهر على راحته.

دخل إلى «النـادي» حيّـا عامـل «البـار»، وجـه لطمـة خفيفـة إلى «جويل» تبـادل المـزاح مـع «بيير»، وإشـارة باليـد مـع «أندريه» ومـع «بيل» و «زوي»، وباختصار، فقد قام بما ينبغـي القيـام به، حسب المجـاملات المعتـادة. ورغـم النـداءات والـدعوات المختلفـة، فقـد جلـس بمفـرده علـى أحـد مقاعـد «البـار» المـشرب. واحتـسى كأسـاً مـن «الويـسكي»، وكأسـاً أخـرى، ولديه آنـذاك انطبـاع بأنـه يحتـسي مـاءً. وإنمـا في تلك اللحظة، وصل «توماس» وكان واضحاً أنـه ثمـل، وسـعيد للغايـة، وأتـى فجلس بقربه، كانا عدويين لدودين في الـصحيفة، منـذ أربـع سنوات، بـسبب قـضية غامـضة، تتعلـق بقـصة إحـدى الفتيـات وقـصة أحـد التحقيقـات، ممـزوجتين معـاً، ولم يعـد «جيـل» يتـذكر تفاصـيل القـصتين، وكـل مـا يعرفـه أنهمـا قـد اختلفـا آنـذاك. كـان «تومـاس» قصير القامة، نحيلاً، صغير الرأس، وصوته الحاد كان يـزعج «جيـل» ويثير غيظه.

وصاح، بأعلى صوته:

- إيه، ها هو «جيل» الجميل!

ولأنـه كـان يتكلم وقـد اقـترب كـثيراً مـن «جيـل» فتراجـع هـذا الأخير، بصورة آليـة، خطـوة إلى الـوراء، بـسبب أنفـاس «تومـاس» الـتي انـتشرت علـى وجهـه.. ومـن المؤكـد أنـه لم يكـن ينقـصه سـوى هـذا، لكي يختتم أمسيته.

- لماذا تراجعت؟ أنا لا أعجبك؟ قل لي، إذا كنت لا أعجبك..

كان «بيير» يبدي بعض الإشارات، من بعيد. كان يشرف على النادي في المساء، وكان يريد أن يوحي بإشاراته إلى «جيل» أن «توماس» ثمل، وهذا، بطبيعة الحال، كان واضحاً جداً.

وقال «توماس» ملحاً:

- هيا، يا «جيل» الجميل؟ ألا تجيبني؟

وفجأة، بحركة، لم يكن من الممكن تبينها فيما إذا كانت إرادية ومقصودة أم لا، فقد سكب كأسه على قميص «جيل» وتحطمت الكأس على الأرض، وتوقف جميع الحاضرين عن الكلام.

وفي الوقت نفسه، فقد تحطم شيء ما، في داخل «جيل» إرادته ورغبته بالسعادة، احترامه للناس، تحكمه بنفسه، وقد خيل له أخيراً أن كل شيء كان يتفجر ويتمزق، وكل شيء يختفي عبر اندفاعه وثورة غضبه، وألقى نفسه وهو يضرب «توماس» - الذي كان قد سقط على الأرض، ذلك المسكين من اللكمة الأولى - وألقى نفسه، جاثياً على ركبتيه، وهو يلكم ذلك الوجه المدبب، يلكم الحياة، وخيبته في الحياة، ويلكم نفسه، بينما كانت يدان قويتان وعنيفتان تمسكان بمنكبيه، وتشدانه إلى الوراء، ومع ذلك فقد ظل يتابع الضرب، وهو يكاد يجهش بالبكاء إلى أن طرقت مسامعه عبارة: «كلب مسعور» وفي الوقت نفسه، تلقى لكمة قوية على فمه. وخيم الصمت، عندما كف عن الضرب والتخبط. ورأى حوله عشرة وجوه، تنم ملامحها عن الغيظ وعن عدم تفهمها وعدم تقبلها لما حدث، ورأى على الأرض «توماس» القصير، وهو يحاول النهوض على أطرافه الأربعة. وأحس على شفتيه مزيجاً مالحاً من الدموع والدم. فخرج، وهو

يمشي القهقرى. ولم يوجه له أحد أي كلمة. وحتى «بيير» الذي كان يسكر معه طيلة فترة شبابه. بل لقد كان «بيير» هو الذي ضربه، وعندما فكر بذلك، رأى أنه قد أحسن صنعاً، لأنه على أي حال، كان ذلك يتعلق بواجبات عمله، وعلى كل إنسان تأمين معيشته ومورد رزقه.

كان هنالك ضجة أصوات في منزله، وظل مندهشاً لحظة، وهو يقف على عتبة الباب. كان الوقت عند منتصف الليل تقريباً. فاخرج منديله من جيبه ومسح الدم الجاف على فمه: لأنه لم يكن مهتماً بالقيام بالدخول على طريقة بطل أحد أفلام الرعب وفيما مضى لم يكن يستطيع مقاومة ذلك، ولكن تلك المهازل الصغيرة، والتصنعات التي كان يسرّ بها وتسليه كثيراً، كانت فد فقدت كل ملحها وطعمها. كان «جان» في الصالون مع «مارت» صديقته وهي فتاة بدينة سمراء، حمقاء وحنونة، وكانت «ايلوييز» تلقي نظرة عبر النافذة. وانتفضت عندما دخل، والتفت «جان» نحوه بوجه أراده عن قصد، أن يبدو مطمئناً، أما «مارت» فصاحت:

- يا إلهي! «جيل».. ماذا فعلت بنفسك؟

فتبادر إلى ذهنه: «إنه مجلس عائلة حقيقي، فالأصدقاء الطيبون، الحقيقيون، يقلقون أخيراً، مثلهم في ذلك مثل الرفيقة الوفية، وفي الوقت نفسه.. وعلاوة على ذلك، وزيادة في حسن الحظ، فالبطل يعود مجروحاً». وكانت «ايلوييز» قد أسرعت إلى الحمام، لتجلب قطناً طبياً.

وانهار على إحدى الأرائك، وهو يبتسم، ثم قال:

- لقد تعاركت مع أحدهم بغباء، كما أتعارك في كل مرة مع أحد ما. أو تدري يا «جان» مع من تعاركت؟ - مع «توماس» لا تقل لي أنه هو الذي فعل بك هذا؟

فضحك «جان» ضحكة الرجل العارف الذي يذهب لممارسة الملاكمة كل يوم اثنين.

فقال «جيل»:

- كلا، إن الذي فعل بي هذا، هو «بيير» عندما فصل بيننا..

وشعر فجأة بالاستياء من تلك المشاجرة السخيفة، ومن تسرعه وحماسته، ومن ميله وحبه للضرب، الذي انتابه في الحال. «يكفي أن أكون قبيحاً وكريهاً في نظري أنا وبالنسبة لنفسي، إذا ما أصبحت أيضاً كذلك بالنسبة للآخرين».. ورفع يده:

- دعونا من ذلك، علينا ألا نتكلم عنه بعد الآن.

فغداً سيعتبرونني فظاً في الصحيفة، وبعد غد تنسى القضية. وبماذا أنا مدين بفرحتي بلقائك؟ كان يلقي سؤاله على «مارت» التي ابتسمت له بلطف ومودة، دون أن تجيب. ولا بد من أن يكون قد قال لها «جان»: إن جيل ليس على ما يرام، فكانت تنظر باهتمام إلى هذا الرجل الذي ليس على ما يرام، وهو وضع كان من الواضح أنها لا تستطيع أن تدركه. وكانت «ايلوييز» قد عادت وعلى وجهها أمارات الجد والاهتمام التي تبدو على وجوه النساء عندما يقمن بعمل الممرضات، ودفعت له رأسه إلى الخلف.

- لا تتحرك، ستشعر بوخزة، ثم ينتهي الأمر. (الأم، إنها في الوقت الحاضر. طفلي الصغير ارتكب بعض الحماقات. ولكن ماذا

بهـم كلـهم مـع مهـازلهم غـير المناسـبة؟ قبـل قليـل، كـان هنالـك «سـكيتش» الرفاق الذكور الخائبين:

لا يـضرب أحـد قزمـاً أو زعنفـة ضـعيفة الآن، العـودة إلى بيـت العائلـة وسـط مـؤامرة لـصالحي ولخـيري. «جـان» يمثـل الرجـل الـذي، تخاصم رفيقه مع أحد الأشخاص وهزم.. آه، آه، آه، و «ايلوييز» تقوم بدور ربة المنزل التي تشرف على أموره الداخلية وترتبها، أما «مارت» فلا تعمل شيئاً، وذلك لأنها لا تجيد عمل أي شيء. وإلا لكانت أمسكت بزجاجة الكحول الذي تبلغ نسبته (٩٠٪)، ولكانت ناولت الزجاجة إلى (ايلوييز)، التي كانت، هي أيضاً، تقف بالقرب مني).

وبالفعل، فقد أخذ الجرح يلهب كثيراً، فأخذ يغمغم متذمراً.

ثم سأله «جان»:

- إيه، ماذا قال لك «دانييل»؟

- دانييل؟

- الطبيب.

- ألم تتصل به؟

وقال هذا، بالمصادفة، وكيفما اتفق، بشيء من الخبث بل والشر، مشيراً إلى تصرف «جان» حياله، منذ زمن طويل، اي منذ أن تعرف أحدهما على الآخر - وهو تصرف أبوي، ينم عن الرعاية والحماية، ومفرط بعض الشيء - وقد أدرك، عندما رأى وجهه يحمر، أنه أصاب الهدف. وهكذا فإن «جان» كان قلقاً بشكل حقيقي. الأمر الذي جعله يشعر بالخوف، بشكل مفاجئ، وبخوف حيواني شديد: وماذا إذا أدى به ذلك أخيراً إلى مشفى المجانين؟

وقال «جان» بلهجة الرجل الورع الذي لا يريد أن يكذب - لأنه يعرف بأنه لن يستطيع أن يفعل ذلك -:

- بلى، لقد اتصلت به هاتفياً.

- أكنت قلقاً؟

- بعض الشيء. ولكنه طمأنني.

- ولأنه طمأنك، فأنت هنا، عند منتصف الليل؟

وثارت أعصاب «جان» فجأة:

- أنا هنا لأن «ايلوييز» تعرف أنك ذهبت لمراجعة الطبيب، في الساعة الرابعة، ولم تحصل على شيء من أخبارك، فكانت قلقة جداً، فأتيت لمرافقتها ولتطمينها. وقد تكلمت مع «دانييل»: أنت عصبي، متعب ومحبط ومثلك في ذلك مثل تسعة أعشار سكان مدينة باريس. وهذا ليس مبرراً لأن تترك الناس يقلقون. وأن تتعارك في الحانات والبارات، مع «توماس» أو مع أي شخص آخر.

وخيم الصمت، ثم ابتسم «جيل» وقال:

- نعم، يا بابا، ألم يقل لك شيئاً آخر، رفيقك؟

- يجب عليك القيام برحلة ما، للاستجمام وتغيير الجو.

- آه، آه.. سوف تتيح لي الصحيفة القيام بجولة عبر جزر «البهاما»؟! هل ستكلم «المعلم» بشأنها؟

وشعر بأنه أحمق وشرير، وليس غريباً أو مضحكاً ولم يكن يستطيع التوقف، والكف عن الكلام فقالت «مارت» وهي البريئة بلهجة ودية:

- يبدو أن جزر «الهاما» جميلة جداً.

وحدجه «جان» بنظرة غاضبة، أثارت رغبة قوية بالضحك لدى «جيل». فعض على شفتيه، وشعر بألم حاد، ولكنه كان يشعر بالضحك يتصاعد في داخله، بشكل لا مرد له مثلما كان العنف قبل بعض الوقت. وبذل جهداً يائساً، تنفس بعمق، ولكن جملة «مارت» كانت تتراكض في ذهنه، وبدت له مضحكة بشكل لا يقاوم، فسعل قليلاً. أغمض عينيه، وفجأة، أخذ يقهقه ضاحكاً.

وظل يضحك ويضحك، حتى فقد أنفاسه، وكان يتمتم، بين نوبتين من الضحك، كما لو كان يريد أن يعتذر:

«البهاما»، «البهاما». وإذا فتح عينيه، كانت الوجوه الثلاثة التي تبدو الحيرة على ملامحها، وهي في الجهة المقابلة له، تجعله يضاعف ضحكه. وقد انفتح من جديد الجرح الصغير الذي أصيب به في شفته، وأخذ يشعر بقليل من الدم يسيل على ذقنه. وكان يقول، في سره، بشكل غامض، لا بد أنه يبدو كالمجنون، مع هذا الدم الذي يسيل على ذقنه، ومع قهقهات ضحكه، عند منتصف الليل، وهو جالس على أريكة مكسوة بالمخمل المضلع. وكل شيء كان قد أصبح، بشكل عجيب، عبثياً، غير معقول، مفرح ومضحك.. ونهاره.. يا إلهي، بعد الظهر الذي كان قد أمضاه.. جالساً كأحد «البشوات» مرتدياً «روب دي شامبر» (رداءً منزلياً)، يجهل من هو صاحبه، وينتظر امرأة، لم يشأ حتى أن يفتح لها الباب، عندما أتت.. آه، لو أنه يستطيع أن يروي ذلك، وحسب، إلى «جان».. ولكنه كان يضحك كثيراً، بل وأكثر مما ينبغي، بحيث أنه لا يستطيع أن يتلفظ بكلمة.. كان يئن ويرتعش من شدة الضحك، كالمختل

كالمجنون فالحياة كانت مختلة لماذا يضحك إذن، هؤلاء الجالسون في الجهة المقابلة له:

وقال له «جان»:

- توقف، توقف، وكف عن الضحك!

«إنه سيصفعني، بالتأكيد، فهو يعتقد أن هذا يحصل كثيراً في مثل هذه الحالات. وكل الناس يعتقدون بأن هنالك أشياء ينبغي القيام بها في كل مناسبة، خلال الحياة. فإذا بالغت وضحكت أكثر مما ينبغي، يصفعونك، وإذا أفرطت في البكاء، يحملونك إلى السرير لتنام، أو أنهم يرسلونك إلى جزر «البهاما»».

ولكن «جان» لم يصفعه. كان قد فتح النافذة، وأوت النساء إلى الغرفة، وكان ضحكه قد أخذ يهدأ. ولم يعد يعرف، حتى لماذا كان قد ضحك، ولا أكثر من أنه لا يعرف، آنذاك، لماذا كانت الدموع الحارة، الهادئة والعذبة، والتي لا تنضب تتسكب دون انقطاع، وتغرق وجهه، ولا لماذا كانت يد «جان» ترتجف بهذا الشكل وهي تناوله كيساً صغيراً أزرق اللون، تزينه مربعات حمراء، رمانية اللون.

الجزء الثاني

ليموج

١

كان منبطحاً على العشب، يراقب شروق الشمس وهي تنشر أشعتها، بعيداً على الرابية. وقد اعتاد أن يستيقظ دائماً في وقت مبكر جداً، منذ أن أتى إلى هنا، وهو ينام بشكل سيء وقد أرهقه هدوء الريف مثلما كان يرهقه صخب باريس وضجيجها. وأخته التي كان يقيم في منزلها، كانت تنزعج من ذلك في سرها. لم تكن قد أنجبت أبداً، وكان «جيل» على الدوام يقوم مقام ابن لها. ولكونها لم تستطع، على حد قولها، «أن تجعله يقف على قدميه»، خلال خمسة عشر يوماً، فقد كانت تعتبر ذلك بمثابة شتيمة موجهة بصورة مباشرة لمقاطعة «الليموزين» وللهواء الطلق وللأسرة، بصورة عامة. ومن المؤكد أنها قد سمعت، وقرأت كثيراً في الصحف، من تلك الأحاديث التي تنشر عن تلك «الانهيارات العصبية»، ولكنها كانت تبدو لها وكأنها عبارة عن نزوات، أكثر من كونها أمراضاً. و «أوديل» التي كانت

توزع وقتها بإنصاف وعدالة، منذ أربعين سنة، بين ذويها، ثم بين زوجها وأعمالها المنزلية، كانت فاقدة الخيال بقدر ما كانت وافرة الإخلاص وطيبة القلب. ولم تكن تستطيع أن تؤمن أو أن تصدق بأن الراحة، والغذاء الجيد (المكون من قطع البفتيك، شرائح اللحم المقلية، الضخمة)، والسير على الأقدام، لا يمكنها أن تشفي من جميع الآلام والأمراض. وكان «جيل» يزداد ضعفاً ونحولاً والتزامه الصمت، والهرب أحياناً من الغرفة، عندما تتحدث مع «فلوران» زوجها، مثلاً، عن بعض الأحداث الأخيرة. وإذا صدف وفتحت التلفاز وهو جهاز مدهش ذو قناتين، كانا قد اشترياه لتوهما، كان يذهب وينزوي في غرفته، ولا يخرج منها بعد ذلك إلا في اليوم التالي، لقد كان على الدوام يبدو غريب الأطوار، يبعث على القلق والحيرة، ولكن باريس، بالحقيقة، هذه المرة، قد خربته تماماً. فيا لجيل المسكين!.. وكانت أحياناً تمر بيدها على رأسه وتداعب شعره، وكان يستسلم لها، بشكل غريب، ويدعها تفعل ذلك، حتى وهو يجلس عند قدميها، وفي معظم الأحيان، دون أن ينبس ببنت شفة، عندما تكون تطرز، وكأنه قد شعر فجأة بالارتياح لوجودها بقربه. وكانت تحدثه عن أمور وهي تعرف بشكل مبهم وغامض، أنها لا تعنيه ولا تهمه، ولكنها كانت تبعث لديه الراحة والهدوء، لكونها، بالذات، أحاديث عادية دائمة ومبتذلة: كالطقس والفصول، الغلال والمحاصيل، والجيران.

وكان قد قرر السفر والرحيل، في اليوم التالي لذلك النهار الشاق الذي أمضاه في باريس، ولأنه كان، بالحقيقة، مثقلاً بالديون،

وعلاوة على ذلك فإن أي شخص غريب يمكن أن يثير لديه الخوف، فقد لجأ إلى أخته «أوديل» التي تقيم في المنزل القديم والمتداعي بعض الشيء، والذي ورثاه عن ذويهما وتعيش فيه مع زوجها، مسجل العقود، الوديع «فلوران» الذي يبدو أنه كان عاجزاً عن إنجاز أي قضية، بقدر ما كان عاجزاً عن إنجاب أي طفل ويعيش من الدخل الذي يرده من أجور بعض الأراضي، ومن عمله، حياة مناسبة ومعاصرة بقدر الإمكان، هو وزوجته. ومن المؤكد أنه أي «جيل» كان يعرف كل ذلك، ويشعر بسأم مميت، ولكنه ألم يصبح، على الأقل، في مأمن من نفسه، ومن تلك الأزمات السخيفة، التي كان يشعر بأنها ستزداد حدوثاً باستمرار لو أنه بقي في باريس. وعلى الأقل، لو أنه يتدحرج هنا على الأرض وإن كان أمام نعاج وخراف مقاطعة «الليموزين»، فإن هذا سيزعجه أقل من الانزعاج الذي يسببه له أصدقاؤه أو خليلته. وعلاوة على ذلك، فإن تواجده من جديد إلى جانب أخته، وهي من لحمه ودمه، وعلاقته معها طبيعية وتسير بكل بساطة، كل هذا، كان يبدو له عملاً حسناً ومباركاً. وكان أي انفعال وأي بوح وإظهار للعواطف، يثير حنقه وغيظه. ولن يكون لديه ما يلوم نفسه عليه، بعد الآن حيال أحد. كان قد ترك «ايلوييز» في المنزل، و «جان» في الصحيفة، مع الوعد الثابت والأكيد، بأنه سيعود وقد شفي من كل ما يعاني منه بعد شهر على وجه التقريب. وقد مر على ذلك خمسة عشر يوماً، وهو يشعر آنذاك بأنه يائس تماماً. والريف كان جميلاً، ولكنه كان يعرف ذلك، دون أن يحس به أو أن يتمتع بذلك الجمال، والبيت كان مألوفاً ودوداً، وهو يدرك هذا ولكن دون أن ينسجم معه أو ينصهر فيه، وكل

شجرة، كل جدار، وكل درب أو ممر يبدو وكأنه يقول له: «كنت سعيداً هنا، فيما مضى، وكنت بصحة جيدة وبخير»، بينما كان ينزلق متسللاً بشكل منحرف في الماشي أو في الممرات كأحد اللصوص، وكلص سرق منه كل شيء، حتى طفولته.

وأخذت الشمس تشرق آنذاك، وبدأت أشعتها تغمر البراري والحقول، فقلب وجهه في العشب الرطب، الذي بلله الندى، مرة، مرتين، وببطء، مستنشقاً رائحة الأرض، محاولاً أن يجد فيها، بصورة واعية ومتعمدة، تلك السعادة العذبة واللذيذة، التي كان يجدها فيها ويحظى بها فيما مضى، ولكن، حتى هذه المسرات البسيطة، لا تأتي بالتوصية وعند الطلب، وكان ينظر إلى نفسه بقرف واشمئزاز، وهو يقوم بتلك الحركات كممثل هزلي، وكعاشق مزيف، وكاذب، للطبيعة، وكرجل أحب بشغف امرأة، وعندما لم يعد يحبها، يتواجد معها في السرير، ويستخدم الكلمات والحركات السابقة نفسها، ولكن قلبه وعاطفته أصبحا جافين، واجمين وذاهلين.

ونهض، فتبين له، بانزعاج، أن قميصه قد تبلل، واتجه نحو المنزل.

كان هذا المنزل قديماً، داكن اللون، سطحه أزرق، وله واجهتان غريبتا الشكل، على الطراز التقليدي للمنازل في مقاطعة «الليموزين» تحيط به من الأمام شرفة، ومن الخلف رابية صغيرة، منزل تعبق فيه رائحة الصيف والزيزفون، والأمسيات الحالمة في أي فصل أو في أي ساعة كانت. وعلى الأقل، كان المنزل يبدو له هكذا دائماً، حتى عبر ضوء الفجر، آنذاك، وهو يرتجف قليلاً في طريق عودته إلى

البيت. دخل إلى المطبخ، كانت «أوديل» تقف هناك، بردائها المنزلي، تراقب «غلاية» القهوة، فقبلها، وتمتمت بشيء ما عن النزلات الصدرية التي يصاب بها من يستلقي على الأعشاب التي يغشاها الندى. ومع ذلك، فإنه كان يشعر أنه مرتاح وبخير وهو يقف بالقرب منها وقد أخذ يستنشق رائحة القهوة، ورائحة «الكولونيا» التي تعطرت بها، وكذلك رائحة نار الحطب في الموقد. ولكم كان يود أن يكون هو ذلك الهر الأصهب، الضخم، الذي كان آنذاك يتمطى، على الصندوق. وهو يفكر بأن يستيقظ، أخيراً: «فيا إلهي، يا إلهي، هذه الحياة، هكذا، كم هي بسيطة وباعثة على الاطمئنان». وكم هو مؤسف أنه لم يعد يستطيع أن ينضم ويألف خلال بضعة دقائق هذه الكليشات وفي الحال، تمسك به الحياة، وهاجسه، مثل كلاب الصيد، التي لم تترك الأيل يلتقط أنفاسه ويرتاح قليلاً، إلا لكي تطيل أمد المطاردة والصيد.

ودخل «فلوران» في تلك اللحظة إلى المطبخ، وهو يرتدي أيضاً «الروب دي شامبر» كان رجلاً قصير القامة، بديناً. كزوجته، وكانت عيناه الزرقاوان والواسعتان، كبقعتي ماء، في وجهه الطفولي، تعطيان الانطباع بوقوع خطأ ما، في ذلك. وعلاوة على هذا، فقد كان لديه ذلك الهوس الغريب، وهو التعبير بالحركات وبالإشارات عن كل ما يقال: فهو يضع ذراعه أمام وجهه، إذا تحدث أحد ما عن الحرب، ويضع إصبعه على فمه، إذا حصل حديث عن الحب.. وهكذا دواليك. ولذلك فقد رفع ذراعه عالياً، في الهواء عندما رأى «جيل» وقال له «صباح الخير» بأعلى صوته، كما لو أنه كان على بعد مائة متر:

- هل نمت جيداً، وبارتياح، يا عزيزي؟ ورأيت أحلاماً جميلة؟

وألقى عليه نظرة تنم عن معرفته بما يعاني منه، وهو كان يصر فعلاً على أنه لا يرى في حالة «جيل» سوى مجرد قصة مؤسفة وفاشلة مع إحدى النساء. وكل ما رواه «جيل» لكي ينفي ذلك، لم يقنعه، ولم يجد نفعاً. وكان «جيل» بنظره، صاحب مغامرات وغاوياً للنساء. وفي إحدى المرات، غدرت به وقهرته امرأة خبيثة ولذلك، فإنه عندما يلتقي به، مستلقياً على أريكة مثلا، يوجه له بعض الجمل المرحة، من نوع: «إذا فقدنا واحدة، نجد عشراً بدلاً منها» معدداً بحماسة أصابع يديه، العشرة. وفي تلك اللحظات، لم يكن «جيل» يرد بشيء، وهو يكاد يتميز غيظاً، أو أنه يوشك أن يطلق ضحكة صاخبة وجنونية. ولكنه عندما يفكر بذلك جيداً يشعر بنوع من المتعة، لأن أحداً لم يدرك ما به، وكذلك بنوع من الارتياح والتشجيع. وبعد كل شيء، فإن هذا كان من الممكن أن يكون صحيحاً. وبالتشويش عليهم، وبتضليلهم، فإنه يخفف وقع ووطأة الأمور، كبائس مصاب باليرقان، يلازم سريره ورأسه على الوسادة، أصفر الوجه كالليمونة الحامضة وهو يرى أحد أصدقائه، يجلس بالقرب من سريره، ويشكو له أن الصلع قد بدأ يدب في رأسه.

وتساءل «فلوران» بلهجته المرحة: كم الساعة الآن؟ الثامنة؟ يا له من نهار جميل!...

فالتفت «جيل» نحو النافذة، وهو يرتعش. فيا له من نهار جميل، ينتظره، حقاً! فهو سيصطحب أخته للقيام بمشاوير في القرية، بعد قليل، وسيشتري الصحف وعلب السجائر، وعندما

يعود، سيطالع الصحف، جالساً على الشرفة، قبل تناول طعام الغداء، وسيحاول بعد ذلك أن يتمتع بالقيلولة، ولكنه عادةً لا يتوصل إلى ذلك. ثم يقوم بجولة في الغابة، دون أن تكون لديه أي رغبة بذلك. وعند عودته، يحتسي كأس ويسكي، مع «فلوران»، قبل موعد تناول طعام العشاء، ويذهب ليأوي إلى سريره باكراً، وباكراً جداً، لكي تستطيع أخته، التي تقوم بأعمالها المنزلية، منذ الساعة الثامنة صباحاً، أن تستمتع أخيراً بمشاهدة برامج التلفاز، فهو بالحقيقة كان يبدي بعض التصنع في نفوره من هذا الجهاز وكراهيته له، دون أن يدري سبباً لذلك. وشعر في تلك اللحظة، بشيء من تبكيت الضمير: فبأي حق يحرم أخته من هذه المتعة، حتى ولو كانت مميتة في نظره؟ فحياتها ليست مرحة إلى درجة معقولة. وهكذا فقد انحنى نحوها:

- هذا المساء، سأشاهد برامج التلفاز معك.

فقالت:

- آه، كلا! ليس هذا المساء لأننا سنذهب لدى «آل روارغ» وقد قلت لك هذا، منذ بضعة أيام.

فقال، مازحاً:

- إذن، سأشاهد برامج التلفاز بمفردي.

فانتفضت «أوديل»:

- ولكنك مجنون! يجب أن تذهب معنا! فقد ألحت السيدة «روارغ» على ذلك. وقد عرفتك عندما كنت في الخامسة من العمر..

فصاح «جيل» غاضباً:

- لم أحضر إلى هنا للخروج والقيام بزيارات. وقد أتيت إلى هنا لكي أرتاح، ولذلك فإني لن أذهب معكما!...

- بلى، ستذهب... يا قليل الأدب... فاقد العاطفة، يا لك من أزعر..

وأخذ الاثنان يصرخان، مستعيدين لهجة شجاراتهما أثناء الطفولة. و «فلوران» الذي استبد به الذهول. أخذ يكثر عبثاً ودون جدوى، من إشارات التهدئة، مقلداً تارة بذراعيه إشارات وحركات قائد جوقة موسيقية تجاوزه العازفون، وتارة بإصبع واحدة مقلداً واعظاً مؤمناً ومقتنعاً. وذهب كل ذلك دون جدوى، خلال خمس دقائق، حيث ذكرت والدة «جيل» وحياة هذا الأخير، الماجنة واحترام اللياقة والآداب العامة، وحماقة «أوديل» الشديدة وهذه العبارة الأخيرة قالها «جيل» - عند ذلك أجهشت بالبكاء. فضمها «فلوران» بين ذراعيه، ليس دون أن يوجه إلى «جيل» حركة تعبر عن لكمة قوية ومثيرة للضحك. و «جيل» الذي ذهل وانزعج كثيراً، ضمها بدوره بين ذراعيه، وأخذ يقسم لها أنه سيذهب إلى أي مكان تريده، ولكي تكافئه اعترفت له بأنه كان مع ذلك صبياً صغيراً صالحاً. وهكذا، فعند الساعة الثامنة مساءً صعدوا سوية إلى سيارة «فلوران» الستيروين القديمة التي كان يقودها صاحبها بطريقة غريبة، لدرجة أن «جيل» طيلة الوقت الذي استغرقته الثلاثين كيلومتراً التي تفصلهم عن «ليموج»، لم يكن لديه وقت ليقلق فيه على شيء آخر سوى على حياته.

٢

كان لا يزال في «ليموج» بعض الصالونات التي تزهو باللون الأزرق، والتي قد تناقصت أعدادها كثيراً حتى أصبحت قليلة بل نادرة الوجود، وصالون «آل روارغ» كان أحد تلك الصالونات الأخيرة الباقية. وكان قد حصل بالفعل نوع من الافتتان العام والميل الشديد للمخمل الأزرق في صناعة الأثاث والمفروشات في هذه المدينة، خلال السنوات السابقة، وقد عمدت بعض العائلات، بصورة عامة، لأسباب مالية - أو تعلقاً بتلك العادة - للمحافظة على تلك التقاليد. وعندما دخل «جيل» إلى صالون «آل روارغ» حصل لديه انطباع بأن طفولته قد قفزت إلى ذهنه، واستعاد ذكرى مئات «العصرونيات» وألف ساعة أمضاها بضجر وملل، وهو جالس ينتظر أهله، وكثيراً من الأحلام والتخيلات، التي يسودها اللون الأزرق القديم العهد. ولكن ربة البيت الموردة والبيضاء، كانت قد أمسكت به وضمته إلى قلبها:

- «جيل»... يا عزيزي الصغير «جيل»... إني لم أرك منذ أكثر من عشرين سنة.. ولكنك تعرف أننا نقرأ كل مقالاتك أنا وزوجي، ونحن نتابعك ولا تغيب عن نظرنا.. ومن المؤكد أننا لسنا بالضرورة متفقين بالرأي، لأننا كنا على الدوام رجعيين بعض الشيء - أضافت ذلك كما لو أنها تشير إلى خطأ بسيط - ولكننا نتابعك باستمرار.... فهل ستمكث بيننا زمناً طويلاً؟... ألديك «أنيمية» وشيء من فقر الدم، كما قالت لي «أوديل»؟... كم أنا فرحة برؤيتك!...

تعال لكي أقدمك للجميع وأعرفك عليهم.

وبدا «جيل» منذهلاً، بينما كانت هذه السيدة العجوز تدفعه تتلمسه، تقبله وتهنئه. وكان الصالون يغص بالناس الواقفين باستثناء ثلاثة أشخاص مسنين، كانوا «مصمودين» على كراسي.

وبدأ الذعر ينتاب «جيل»، وألقى نظرة غاضبة على أخته، ولكن هذه كانت مفتونة، مخلوبة اللب، وقد أخذت تتجول مسرعة في الصالون. تصافح وتعانق أناساً لم تكن تعرفهم فيما مضى، أبداً، وتبادر إلى ذهن «جيل»: «منذ كم من الوقت لم أحضر إلى هنا؟ يا إلهي، منذ وفاة والدي، وقد مر على وفاته خمس عشرة سنة. ولكن، ماذا أفعل هنا»؟ وتبع السيدة المسنة، انحنى على عشر أيدي، وصافح اثنتي عشرة أخرى، محاولاً أن يبتسم، في كل مرة، ولكنه، بالكاد كان ينظر إلى تلك الوجوه المجهولة، مع أنه كان هنالك عدة نساء جميلات ويرتدين الملابس الزاهية والأنيقة. وانتهى به الأمر إلى اللجوء إلى جانب رجل مسن، كان يجلس في ركن منزوٍ، وصرح له بأنه كان أحد أصدقاء والده، القدامى، وسأله عن رأيه في الوضع

السياسي، قبل أن يبدأ بشرحه له. فتظاهر «جيل» بأنه يصغي له، وقد انحنى قليلاً نحوه، عندما أمسكت السيدة «روارغ» بكمه، وقالت:

- «ايدمون» يكفيك احتكاراً لصديقنا الشاب، تعال يا «جيل» أريد أن أعرفك على السيدة «سيلفونير». «ناتاليا» ها هو «جيل لانتيه».

فالتفت «جيل» ووجد نفسه وجهاً لوجه أمام امرأة طويلة القامة، جميلة جداً، وقد ابتسمت له. كان لها عينان خضراوان، جريئتان، وشعر أشقر، وشيء من الأريحية والكبرياء، في آن معاً، كان بادياً على وجهها. وابتسمت له، وقالت بصوت خافت: «مساء الخير»، وابتعدت في الحال. فتبعها بنظراته، وقد شغلت باله وأثارت اهتمامه. وفي هذا الصالون الصغير، الأزرق، الذابل والكامد، والذي عليه طابع القدم، شكلت تلك السيدة، بشكل غريب، نشازاً ومظهراً شاذاً، وهي تبدو كالشعلة المتألقة.

واستأنف «أيدمون» حديثه الذي لا ينضب معينه، قائلاً:

- إنها مسألة هيبة ونفوذ.. آه، أنت تنظر إلى السيدة «سيلفينير» الجميلة؟ ملكة مدينتنا.. آه، لو كنت في سنك!... ولكي نعود إلى موضوع السياسة الخارجية لبلاد كبلادنا..

وبدت وليمة العشاء، وكأن لا نهاية لها. وكان «جيل» وهو جالس في الطرف الآخر من المائدة، يرى من وقت لآخر السيدة «سيلفينير» الجميلة، تلقي نظرة نحوه، نظرة هادئة رزينة وتأملية، تبدو متناقضة مع موقفها، ومع وضعيتها العامة. كانت تتكلم كثيراً، ويضحكون كثيراً حولها، وكان «جيل» ينظر إليها بشيء من السخرية. ولا بد من أن تكون تشعر حقاً أنها ملكة مقاطعة

«الليموزين»، وأن تكون لديها الرغبة بأن تحظى بإعجاب هذا الباريسي المجهول، وهو علاوة على ذلك، صحفي. كان هذا من الممكن أن يسره ويسليه فيما مضى، أن ينشئ علاقة لمدة خمسة عشر يوماً مع زوجة أحد وجهاء الريف، وكان من الممكن أن يتصور عن ذلك قصة ظريفة، على طريقة «بلزاك» الروائي الشهير وأن يرويها لأصدقائه عند عودته إلى باريس. ولكن لم تكن لديه أي رغبة بأن يفعل ذلك. كان ينظر إلى يديه على غطاء المائدة، نحيلتين ولا فائدة لهما. وكان يشعر بالرغبة بالانصراف.

ومنذ أن انتهى العشاء، ذهب وقبع بالقرب من «أوديل» كأنه طفل صغير، ولاحظت أخته ملامحه المتوترة وارتجاف يديه، وتعابير عينيه التي تكاد تنم عن التوسل. وللمرة الأولى، بالحقيقة شعرت بالخوف عليه. فاعتذرت من السيدة «روارغ» وشدت «فلوران» الذي كان ثملاً بعض الشيء، وانسحبوا على الطريقة الإنكليزية، بقدر ما يمكن القيام بذلك من صالون في الريف. وكان «جيل» متكوراً على نفسه، في قاع السيارة يقضم أظافره وهو يرتعش. فهو لن يقوم أبداً برحلة كهذه، وكان يقسم بينه وبين نفسه على ذلك. أما «ناتاليا سيلفينير» فقد أحبته منذ أن رأته.

٣

كان «جيل» يصطاد السمك، أو بمزيد من الدقة، كان يتأمل ببرود وبلا مبالاة «فلوران» وهو يقدم بكثير من الحيل أنواعاً من الطعوم المقرفة إلى أسماك أكثر خبثاً منه، كان قد اقترب وقت الظهر، والطقس أصبح حاراً، فنزع الاثنان صدريتيهما الصوفيتين وللمرة الأولى، منذ زمن طويل، شعر «جيل» بشيء من الارتياح وبالرفاه. وكان الماء صافياً بشكل يثير الدهشة، وكان «جيل» منبطحاً، يتأمل الحصى المستديرة في قاع الماء الذي تتزاحم فيه الأسماك حول سنارة «فلوران» وتنتزع منها الطعم، برفق ولذة، ثم تنطلق فرحة، بينما صهره يطلق في الفراغ ضربة قاسية يرفقها بشتائم متعددة وضخمة.

وقال «جيل»:

- سناراتك كبيرة، أكثر مما ينبغي.

فقال «فلوران» وهو يشعر بالغيظ:

- إنها مصنوعة خصيصاً لسمك «الفجوم» هيا، جرب أنت بنفسك، بدلاً من أن تسخر وتمزح.

فقال «جيل»:

- كلا، شكراً، أنا مرتاح هكذا، وبخير. ولكن، إيه من هذه؟

وانتصب واقفاً، وقد تنبه: امرأة تتجه نزولاً على الدرب الضيق، نحو النهر، وتسير نحوهما، بصورة مباشرة. فأخذ يبحث بناظريه عن ركن يلجأ إليه، ولكن الأرض عند ضفة النهر كانت مستوية وعارية. أشعة الشمس تنعكس متلألئة على شعر المرأة، وعرفها، في الحال.

فصاح «فلوران»، وقد احمر وجهه كثيراً:

- هذه «ناتليا سيلفينير»!

فسأله «جيل» مازحاً:

- هل أنت مغرم بها؟

ولكنه تلقى مقابل سؤاله، نظرة غيظ، كانت من الشدة بحيث أنها جعلته يلزم الصمت. كانت قد أصبحت بالقرب منهما آنذاك، وبدت فاتنة، متعة للناظرين تحت أشعة الشمس، وهي تبتسم، منتصبة القامة، وبدت عيناها أكثر خضرة مما كانتا عليه، ذلك المساء.

- لقد أرسلتني «أوديل» إلى هنا، كنت قد وعدتها ذلك اليوم أن أمر عليها، وقد أنجزت وعدي. هل وفقتما بصيد جيد وثمين؟

كان الرجلان قد نهضا واقفين، وأشار «فلوران» إلى «سطله» الذي كان فيه سمكة واحدة.

فقهقهت ضاحكة، والتفتت نحو «جيل»:

- وأنت؟ أتكتفي بالنظر والتأمل؟

فضحك، دون أن يجيب، جلست على الأرض، بالقرب منهما. كانت ترتدي تنورة جلدية بنية اللون، وكنزة صوفية باللون نفسه. وحذاءً قصير الكعبين، وبدت أكثر فتوة وصبا من المرة السابقة. وأقل رهبة وشؤماً ولا بد من أنها كانت في الخامسة والثلاثين من العمر، قدر ذلك «جيل» بالمصادفة! كانت تثير لديه من الخوف أقل بكثير من المرة السابقة، وبشكل أصح، فإنه لم يكن يشعر بأنها غريبة بالنسبة له.

وقالت «لفلوران»:

- أرني مواهبك، والمشهد نفسه، حدث وتكرر:

فقد شاهدوا بانزعاج الفلينة الطوافة تغوص بسرعة في الماء، و «فلوران» يجذب بقوة عصاه، وبدت السنارة خالية، وهي تلمع معلقة بطرف العصا فقهقه «جيل» ضاحكاً، بينما ألقى «فلوران» عصاه، بعيداً على الأرض، وتظاهر بأنه يدوسها بقدميه، وقال:

- يكفيني ما قمت به من مشقة وعناء، لقد مللت، إني أصعد عائداً إلى المنزل، وسأهيئ لكما كأساً من خمر «البورتو»:

إذا رغبتما بذلك.

فسأله «جيل» باستغراب:

- «خمر البورتو»، ألا يزال هذا الشراب موجوداً؟

وتسليا قليلاً بعد ذلك، وهما يريان «فلوران» يسير صعوداً على الطريق، حاملاً بتثاقل عصاياه، كرسيه المتنقل، وسطله، ثم اختفى،

فألفيا نفسيهما على انفراد بشكل مفاجئ، وشعرا بشيء من الحرج والانزعاج. فالتقط «جيل» قشة عشب ووضعها بين أسنانه. وكان يشعر بنظرة تلك المرأة وهي تقع عليه، فتبادر إلى ذهنه، بصورة غامضة، بأنه ربما لم يكن عليه في الأساس، إلا أن يمد يده. وعند ذلك، ربما يتلقى صفعة أو قبلة. لم يكن يدري عن ذلك شيئاً. ولكن أمراً ما سيحدث، فقد كان متأكداً من ذلك. وكل ما هنالك أنه كان قد فقد عادة الأجواء المشوشة والمضطربة، فكل شيء كان معروضاً، مقدماً، بديهياً، وموثوقاً، أكثر مما ينبغي في باريس. سعل قليلاً، رفع ناظريه. كانت تنظر إليه، بصورة تنم عن التفكير، مثلما فعلت أثناء ذلك العشاء اللعين، في الأمسية الماضية.

- أنت صديقة مخلصة لأختي؟

- كلا. إذا أردت مني الحقيقة، وقد استغربت كثيراً مجيئي، بل لقد ذهلت عندما رأتني أصل.

وتوقفت في حديثها عند هذا الحد.

ففكر «جيل»: «حسناً، إيه نعم! حسناً، ستكون هنالك إذن قبلة لا صفعة، ففي الريف أيضاً لا يضيع المرء وقته». ولكن كان لدى هذه المرأة شيء يضايقه ويحد من جرأته.

- لماذا أتيت إذن؟

فقالت بهدوء واطمئنان:

- لكي أراك، لقد أعجبتني في الحال، أثناء تلك الأمسية، وشعرت برغبة قوية، بأن أراك ثانية.

- هذا لطف جزيل منك.

والأمر الذي كان يزعج «جيل» هو المرح الذي يتسم به صوتها، وهدوؤها. لقد كان مرتبكاً، محتاراً.

- عندما انصرفت، ذلك المساء، بتلك السرعة، أخذ الجميع يتحدثون عنك ويثرثرون: عملك، حياتك، مرضك العصبي.. وكان ذلك مثيراً للعاطفة وللاهتمام. و «فرويد» أخاذ، يثير العواطف، وخاصة في الريف.

- وأتيت لكي تري بعض أعراض مرضي؟

كان قد استشاط غيظاً آنذاك: أن يتحدثوا عنه كمريض، وأن تردد له ذلك. بهذه الجرأة والطلاقة.

- لقد قلت لك بأني أتيت لأراك. وأنا لست مهتمة بمرضك.

هيا، تعال لكي تحتسي شرابك.

كانت قد نهضت مسرعة، بينما ظل هو مستلقياً، وقد شعر فجأة، بالاستياء لكونها قاطعته. وأخذ ينظر إليها عبر أهدابه وقد أخفضها، وبدا حرداً مستاءً، في وضع كان يعرف أنه يناسبه تماماً، وفجأة وعلى غفلة منه، جثت بالقرب منه، وأحاطت رأسه بيديها، وابتسمت له عن قرب، بشكل خفي وعجيب، وقالت:

- أنت نحيل جداً.

وأخذا يحدّقان ببعضهما. وتبادر إلى ذهن «جيل»: «إذا قبلتني، فقد قضي الأمر، إني لن أستطيع أن أراها ثانية. ولكن ذلك سيكون مدعاةً للأسف». وجميع هذه الأفكار السخيفة والرعناء، تبادرت معاً وسوية إلى ذهنه، وأخذ قلبه يخفق فجأة بشدة. ولكنها كانت قد نهضت، وأخذت تنفض الغبار عن ملابسها، دون أن تنظر إليه. ونهض بدوره وتبعها. وفي الطريق توقف برهة، فالتفتت نحوه:

- قولي لي: ألست مجنونة، بعض الشيء؟

فبدا، فجأة، الجد والوقار، على ملامح وجهها، وجعلها ذلك تبدو وكأنها قد تقدمت في السن، عشر سنوات، وهزت رأسها:

- كلا، أبداً على الإطلاق.

وعاداً، إلى المنزل، دون أن يقول أي منهما كلمة واحدة.

كان شراب «البورتو» جاهزاً وبارداً. و «أوديل» بدت متأثرة، موردة الخدين - لأن «ناتاليا» كانت شخصية مشهورة - و «فلوران» قد ارتدى سترة نظيفة. ومكثت هناك نصف ساعة، بدت خلالها رائعة الجمال وكثيرة الكلام. رافقها «جيل» إلى سيارتها. فوعدته بأن تأتي في اليوم التالي بعد الظهر لتصطحبه، طالما أن لديه رغبة شديدة بمشاهدة معرض الفنان «ماتيس» (MATISSE) الذي أقيم في المتحف.

وأمضى «جيل» بقية النهار غاضباً، مقطب الحاجبين. وأوى إلى سريره، في وقت مبكر أكثر من المعتاد، أيضاً:

«ماذا بي، وماذا أصابني؟ ولماذا أثقل كاهلي بهذه المرأة؟ وكل هذا سينتهي في ماخور ريفي بالقرب من «ليموج»، حيث سأكون عاجزاً بالتأكيد، وسأمضي غداً ساعتين أعاني خلالهما من الملل الشديد في المتحف. فهل أصبحت مجنوناً»؟

واستيقظ باكراً جداً، وقلبه يخفق بشدة، رعباً من تلك الفكرة، آسفاً بمرارة للسأم المريح الذي كان، بصورة عامة، يسود أيامه. ولكن، ليس في المنزل هاتف، ومن المستحيل تدارك الأمر، والاتصال بـ «ناتاليا» أو الاعتذار منها، فهو إذن سينتظرها.

٤

- والآن، هل أنت مسرورة؟

كان قد ارتد على ظهره، لاهثاً وهو يتصبب عرقاً، ويشعر بالمذلة، وبمزيد من المذلة لكونه كان غير منصف بل ظالماً، ولأنه هو الذي قد اقتادها عملياً إلى ذلك السرير. كانا قد تناولا الشاي في نزل يقع هناك، وهو الذي رشا صاحب النزل من أجل الحصول على تلك الغرفة البائسة. ولم تعترض عندما أبلغها ذلك، ولم تحتج وكذلك فإنها لم تفعل شيئاً لكي تساعده بينما كان مندفعاً نحوها بحماسة شديدة، دون أي جدوى. وكانت آنذاك بالقرب منه عارية وهادئة. وكأنها لا مبالية.

- لماذا أكون مسرورة، كنت تبدو غاضباً جداً...

كانت تبتسم. فانزعج وثارت أعصابه:

- هذا ليس مستحباً أبداً، بالنسبة للرجل.

فقالت بهدوء:

- ولا بالنسبة للمرأة. ولكنك كنت تعرف سابقاً أن الأمر سيكون هكذا، وعلاوة على ذلك، فأنا أيضاً كنت أعرف هذا. وقد قمت عمداً باستئجار هذه الغرفة. بدافع الميل إلى الخيبة والإخفاق، أليس هذا صحيحاً؟

بلى، لقد كان هذا صحيحاً. ووضع رأسه على الكتف العاري القريب منه، وأغمض عينيه، وكان يشعر، بشكل مفاجئ أنه منهك، وبخير، كما لو أنه قد مارس الحب، فعلاً. وكانت تلك الغرفة غريبة الشكل، بستائرها المصنوعة من قماش تزينه الزهور، وبذلك الصندوق الفظيع. كانت خارج حدود الزمن وخارج أي مبرر أو سبب، بل ،أي عقل، مثله، هو، بالذات، ومثل الوضع الراهن.

وقال، بلهجة الحالم:

- لماذا قبلت، إذن، إذا كنت تعرفين...

فأجابته:

- أعتقد أن هنالك أموراً كثيرة، سأتقبلها منك.

وخيم صمت قصير، ثم تمتمت: «تحدث، ارو لي»

فأخذ يروي كل شيء: باريس «ايلوييز»، الأصدقاء، العمل، الأشهر الأخيرة. وكان يخيل له أنه يحتاج لسنوات عديدة لكي يروي كل شيء. ولتحديد ذلك «اللاشيء». وكانت تصغي إليه، دون أن تقول شيئاً، وكل ما هنالك، أنها من وقت لآخر، كانت تشعل سيجارتين، وتناوله إحداهما. ولا بد من أن الساعة كانت السادسة

أو السابعة مساءً، ولكن لم يكن يبدو عليها أنها مهتمة بذلك. ولم تكن تلمسه، أو تداعب شعره. بل بقيت ساكنة بجانبه، لا تبدر منها أي حركة، من المؤكد أن كتفها قد أصيب آنذاك بالخدر والتصلب.

وانتهى به الأمر إلى الصمت وهو يشعر بشيء من الخجل، وتجلس قليلاً، مستنداً على مرفقه لكي ينظر إليها. فحدّقت به، دون أن تتحرك، وعلى وجهها أمارات الجد والتركيز، وفجأة ابتسمت له. فتبادر إلى ذهنه: «هذه المرأة جيدة، إنها جيدة بشكل غير معقول، ولا يمكن أن يصدق». وفكرة هذه الطيبة التامة، الجاهزة وفي متناول يده، وتفكيره بأن هنالك من يهتم به بهذه الطريقة الناجزة والكاملة، جعلت الدموع، في تلك اللحظة تترغرغ في عينيه. فانحنى لكي يخفي ذلك عنها، وقبل بلطف وهدوء تلك الابتسامة، وتلك الوجنتين، والعينين المغمضتين. ولم يكن أخيراً عاجزاً إلى تلك الدرجة، وتعلقت يدا «ناتاليا» بكتفيه.

وبعد ذلك بكثير، كان عليه أن يتذكر أن فكرة طيبتها تلك هي التي أتاحت له أن يمارس الحب معها للمرة الأولى. وهو الذي لم يسبق له أن رأى أي «أغلام» أو إثارة جنسية في المشاعر والعواطف الطيبة والنبيلة، وهو الذي كانت بالأحرى عبارة: «هذه عاهرة» تثيره بشكل مبهم وغامض، كان عليه، فيما بعد، وفيما بعد بكثير، بل وبعد فوات الأوان، علاوة على ذلك، أن يتنبه ويصيخ السمع، عندما يقول أحدهم، عرضاً ودون اهتمام، عن

امرأةٍ ما، بالقرب منه: «هذه فتاة جيدة». ولكنه كان آنذاك ينظر إليها يبتسم ويعتذر لأنه تصرف بعنف وقسوة، مع بعض الرضا والمسرة. كانت تقف بجانب السرير، وقد أخذت ترتدي ملابسها، وفجأة التفتت، وقاطعته:

- لا أستطيع القول إن ذلك كان عذباً ولذيذاً، ولكنك تشعر أنك قد تحسنت، وبحالة أفضل من السابق، الآن، أليس كذلك؟

فانتفض، وتردد قليلاً في إظهار غيظه واستيائه:

- أتعتقدين أنك دائماً مرغمة على قول هذا النوع من الحقائق؟

فقالت:

- كلا، إن هذه هي المرة الأولى.

فأخذ يضحك، ونهض بدوره. كانت الساعة تشير إلى السابعة والنصف، ولا بد أنها تأخرت في العودة إلى المنزل.

- أمدعوة أنت إلى حفلة عشاء كبيرة، هذا المساء؟

- كلا، إني سأتناول طعام العشاء في المنزل، ولا بد من أن يكون «فرانسوا» قلقاً الآن.

- ومن هو «فرانسوا»؟

- إنه زوجي.

وأدرك بذهول، بأنه لم يكن قد فكر أبداً بأنها قد تكون متزوجة، وبأنه لا يعرف شيئاً عن حياتها ولا عن ماضيها أو عن حاضرها. كانت «أوديل» قد بدأت، ذات يوم، فيما مضى، تلقي درساً اجتماعياً عنها، ولكنه لم يصغ إليها ولم يهتم بذلك.

وشعر، بشكل مبهم وغامض، بشيء من الخجل، وتمتم:

- إني لا أعرف شيئاً عنك.

- وأنا لم أكن أعرف شيئاً عنك منذ ساعة، وما زلت لا أعرف الكثير أيضاً.

وابتسمت له، فظل خلال دقيقة من الزمن مسمراً أمام تلك الابتسامة. وكان آنذاك، وفي الحال، عليه أن يوقف الأمور وينهي العلاقة، إذا كان ينبغي القيام بذلك. وكان ينبغي عليه أن يقوم بذلك: فقد كان عاجزاً عن أن يحب أي كائن كان، إلى مجرد الحد الذي كان فيه عاجزاً عن أن يحب نفسه بالذات. ولن يستطيع عمل أي شيء سوى أنه سيجعلها تتألم وتتعذب. وكان من الممكن أن تكفيه دون شك، مزحة سمجة قليلاً، أو أي شيء من هذا القبيل يدفعها إلى احتقاره. ولكنه كان قد أخذ يأنف ذلك وينفر منه، والابتسامة الواضحة الملحة والصادقة، بل والواعدة أيضاً، التي كانت توجهها له جعلته يشعر بالخوف، فتمتم:

- تعلمين.. أنا...

فقالت بهدوء واطمئنان:

- أعلم. ولكني أحببتك، وأصبحت مغرمة بك.

وشعر خلال ثانية واحدة بالتمرد، بالثورة، وحتى بالغضب والغيظ. ولكن أخيراً ليس هكذا تتم اللعبة، ولا يستسلم المرء، ويضع نفسه وجميع أسلحته ومراكبه بين يدي شخص مجهول! لقد كانت مجنونة. ومن جهته هو كيف يستطيع إذن أن يلهو ويتسلى بإغوائها،

في حين أنها هي تعترف، بأن ذلك سبق وحصل، بالفعل، وكيف يمكنه الحصول على الفرصة لكي يحبها، إذا كان منذ البداية لا يستطيع أن يشك بها؟ كانت تفسد وتخرب كل شيء! وكان هذا مناقضاً لجميع القواعد والأنظمة. ولكن، في الوقت نفسه، كان هذا النوع من الإسراف في الكرم، هذه الغفلة وهذا التساهل، يسحره ويخلب لبه.

وقال بلهجة الاستخفاف والظرف، نفسها:

- كيف تستطيعين معرفة ذلك؟

وكان وهو ينظر إليها ويتأملها بإمعان، أخذ يفكر، فجأة، بأنها جميلة جداً، وقد خلقت رائعة للغاية، من أجل الحب، وأنها، ربما كانت تسخر منه.

وكانت تحدق به، وأخذت تضحك:

- أنت خائف، من أن يكون ذلك صحيحاً ومن ألا يكون صحيحاً، في آن معاً، أليس كذلك؟ - فهز رأسه وهو مسرور للغاية، في سره، لأنها أدركت ما يفكر به - إيه حسناً، هذا صحيح! ألم تطالع أبداً روايات روسية؟ فبشكل مفاجئ، يقول أحدهم لأحدهم، بعد مقابلتين:

«إني أحببتك» وهذا صحيح، وهذا يقود الحكاية ويؤدي بها مباشرة نحو الكارثة النهائية.

- وأي كارثة تتوقعين لنا، في «ليموج»؟

- لا أدري. ولكني، كأبطال الروايات الروسية، الأمر سيان تماماً بالنسبة لي. هيا أسرع.

وخرج معها، وهو مطمئن بعض الشيء: فالمرأة المثقفة التي طالعت وقرأت كثيراً، أقل إثارة للقلق من غيرها، فهي تعرف، بشكل غامض ما الذي ينتظرها أو ما الذي ينتظر الآخر. وفي الخارج، كانت الشمس تطيل ظلالاً منحرفة، وتغمر باللون الذهبي المورد المزروعات المحصودة. وكان ينظر بشيء من الارتياح والسرور إلى المظهر الجانبي لخليلته الجديدة. وهي، بعد كل شيء جميلة جداً، والريف جميل أيضاً. وقد برهن على رجولته، وإن لم يكن بشكل متألق، وقالت إنها قد أحبته. ولم يكن ذلك بالأمر السيئ أو الهين، بالنسبة لشخص مصاب بمرض عصبي. وأخذ يضحك، فالتفتت نحوه:

- لماذا تضحك؟

- لا لشيء. إني مسرور.

فأوقفت السيارة فجأة وعلى الفور، أمسكت سترته بيديها وهزته، وفعلت ذلك بمنتهى السرعة، لدرجة أنه ذهل، في الحال:

- قل ذلك، أعد قوله، ردده. قل لي إنك مسرور.

كانت تتكلم بلهجة جديدة، متطلبة، تنم عن السلطة، وشهوانية أيضاً، وشعر فجأة بالرغبة بها وبممارسة الحب معها. وأمسك بمعصميها، قبل يديها، وهو يردد: «أنا مسرور، أنا مسرور» بصوت مختلف، تغيرت نبراته، وكفت عن الإمساك بسترته، وانطلقت تقود سيارتها، مسرعة، دون أن تقول شيئاً. ولم يتكلما بعد ذلك تقريباً حتى البيت. وتركته أمام الحاجز، دون

أن يحددا أي موعد. ولكن «جيل» في المساء، وهو مستلق على سريره في غرفته، أخذ يستعيد ذكرى تلك اللحظة الغريبة، ويقول في سره، وهو يبتسم قليلاً، إن ذلك قد شابه بشدة الشغف والحب العنيف.

٥

ومرت عدة أيام، لم يحصل خلالها على أي خبر، ولم يدهشه ذلك. فقد كان «فرصة» بالنسبة لها، و «فرصة» سيئة، علاوة على ذلك، وقد حدثته عن الحب، بدافع من اللباقة والمجاملة، تلك المجاملات البورجوازية الغريبة، أو بدافع من الهوس. ومع ذلك، فقد كان يشعر بشيء من الخيبة، وكان هذا يزيد من حزنه الطبيعي. كان قليلاً ما يتكلم، ويحلق ذقنه كل يومين أو ثلاثة، ويحاول مطالعة بعض الكتب، ويفضل ألا تكون روسية.

وفي اليوم الخامس، أخذ المطر ينهمر بغزارة، بعد الظهر لم يكن قد حلق ذقنه، وكان يجلس متربعاً على أريكة في ركن من الصالون، عندما دخلت وحدها، واتجهت نحوه، ثم جلست بالقرب منه، وأخذت تحدق به، وكان يرى عينيها الخضراوين الواسعتين، ويستنشق رائحة المطر على فستانها الصوفي. وعندما

تكلمت كانت نبرة صوتها تنم عن التوتر، فشعر في الحال، بارتياح كبير.

- ألم يكن باستطاعتك أن تتلفن لي؟ أو أن تأتي؟

فقال بمرح:

- ليس لدي لا هاتف ولا سيارة.

وحاول أن يمسك يدها، فسحبتها بجفاء، وقالت:

- خمسة أيام وأنا انتظر، خمسة أيام، أمضيتها أترصد رجلاً قذراً، لم يحلق ذقنه، وها هو، علاوة على ذلك يتسلى ويلهو بلعبة الكلمات المتقاطعة!

وكانت تبدو، بالطبع، غاضبة جداً، وكان هذا يفرح «جيل» أكثر مما كان يتصور. وبشكل غريب ولافت للنظر، فإنه في هذه المرة لم يحصل لديه انطباع بأنه قد تصرف وناور، بشكل جيد، بل لقد حصل لديه انطباع بأنه أخطأ بمعرفة الشخص وحسب، ولذلك حاول، أن يوضح الأمر، ويشرح موقفه وعذره:

- لم أكن متأكداً بأنك مهتمة بأن تريني من جديد.

فقالت بلهجة جافة وغاضبة:

- لقد قلت لك إني أحببتك، أقلت لك هذا، أم لا؟

ونهضت، فاتجهت نحو الباب، بمزيد من السرعة، بحيث أنه كاد يدعها تذهب. كانت قد أصبحت في الرواق، ترتدي معطفها الواقي من المطر، عندما لحق بها. كانت «أوديل» يمكن أن تأتي في أي لحظة، هي أو الطباخة، ولكنه مع ذلك ضمها بين ذراعيه. كان المطر ينهمر في الخارج، ويتجاوب صداه في الداخل. وهذه المرأة

الغاضبة، وزيارتها غير المتوقعة، ورائحة الحطب المنتشرة من ناحية الدرج، والصمت الذي يخيم على المنزل، كل ذلك كان يجعل «جيل» يشعر بشيء من النشوة. كان يضمها إليه ويقبلها بعذوبة وهدوء، وكانت تحني رأسها، معاندةً، حتى اللحظة التي رفعت فيها رأسها عمداً وبعزم، ووضعت ذراعيها حول عنقه. ودون أي إيضاح أو حيلة، اقتادها إلى غرفته، بتلك الجرأة الغريبة - وذلك الحظ، بل تلك الفرصة التي تتيحها المتعة، وهكذا فقد أصبحا أخيراً عاشقين حقاً، مثلما يمكن أن يكون كذلك، مخلوقان بشريان يعشقان الحب - ويعرفانه. وهكذا، وبهذه الطريقة، استعاد «جيل» ميله وحبه للسرور وللمتعة.

حلّ المساء، وخيم الظلام، سمع «جيل أخته» أخته، تعطي بعض التعليمات، في الطابق السفلي من المنزل، بصوت أقوى من المعتاد، وفجأة أدرك أمراً، فالتفت نحو «ناتاليا» وأخذ يضحك بصمت وهدوء، ففتحت عينيها بتكاسل وخمول، ثم أغمضتهما في الحال. فسألها:

- أين تركت سيارتك؟

- أمام الباب، لماذا تسأل؟ آه، يا إلهي، كنت قد نسيت تماماً أختك و «فلوران» والآن أريد فقط أن أشتمك وأنصرف. فماذا سيظنان؟

كانت تتكلم بصوت متعب، ينم في آن معاً عن السأم والطمأنينة، صوت ما بعد ممارسة الحب، وكان «جيل» يتساءل كيف استطاع أن يعيش ما يقرب من أربعة أشهر، دون أن يطرق أذنيه، هذا النوع من الأصوات. وابتسم.

- وماذا تعتقدين أنهما سيظنان؟

فلم تجب، والتفتت، ثم قالت:

- كنت أعرف، كنت أعرف أن الأمر سيكون هكذا، بيني وبينك، كنت أعرف هذا منذ أن رأيتك. وهذا غريب، بل ومضحك.

فقال:

- أنه أفضل من أن يكون مضحكاً أو غريباً، تعالي، هيا بنا، لنحتسي كأس «بورتو»:

- وسننزل هكذا، ولن نقدم أي شرح أو تفسير؟

فقال «جيل»:

- إن هذه هي الطريقة الوحيدة، فلا ينبغي أبداً شرح أو تفسير أي شيء على الإطلاق. هيا، ارتدي ملابسك.

لقد استعاد لهجة الأمر والسلطة، التي لم يستخدمها منذ زمن طويل، وقد أدرك ذلك فجأة، عندما رأى النظرة المرحة، والساخرة بعض الشيء. التي وجهتها نحوه «ناتاليا»، التي كانت لا تزال متوارية تحت أغطية السرير. فانحنى، وقبل كتفها، ثم قال:

- نعم، نحن ضئيلو الشأن. (وفجأة، وقد دفعه شيء ما، لا يمكن التحكم به أو السيطرة عليه)، فأضاف: أشكرك، يا «ناتاليا».

ودخلا إلى الصالون الصغير، بتلك اللامبالاة التي تكتسب عادة بعد سن الثلاثين، عند ممارسة عملية لها أهمية الحب، وبنجاح، وكان «فلوران» و «أوديل» هما اللذان قفزا على أقدامهما واقفين وقد تورد وجهاهما. وصاح «فلوران»: «يا لها من مفاجأة»! وهو يرفع ذراعيه نحو السماء، أما «أوديل» فقد أخذت تهنئ «ناتاليا» على جرأتها

بالحضور، في ذلك الطقس الفظيع، لأنها، هي لم تجرؤ على أن تمد رأسيها خارج باب المنزل. الأمر الذي يعني بالطبع، أن لا هي ولا زوجها، لاحظ أحد منهما، وجود السيارة المتوقفة منذ ساعتين أمام مدخل منزلهما. وكان ذلك من دواعي سرور «جيل» وسعادته. وتحدثت «أوديل» عن الطقس، وعن ضرورة تناول أي شيء يبعث الدفء في الجسم. وقد احمر وجهها مجدداً - فأسرع «فلوران» نحو زجاجة «البورتو». وكانت «ناتاليا» تبتسم، وهي جالسة على الأريكة، وقد وضعت يديها الطويلتين على ركبتيها كأنهما غرضان، وتجيب على الأسئلة، تنظر أحياناً إلى «جيل» بمزيد من السرعة، وكان من جهته يقف مستنداً على المدفأة، لاهياً ومسروراً بهذه الملهاة الريفية الصغيرة، التي يرى أنه يفوق مستواها بقليل.

وقالت «أوديل» بلهجة تنم عن الاستياء والحزن:

- ربما لن يناسب هذا الطقس «آل كاسينياك» الذين يريدون إقامة حفلة راقصة في الهواء الطلق.

فسألتها «ناتاليا»:

- هل ستذهبين إلى تلك الحفلة؟

فقالت «أوديل»:

- كنت أخشى ألا يرغب «جيل» بالذهاب إليها، ولكنه الآن..

وشعرت بشيء من الرعب، فتوقفت لحظة عن الكلام، و «فلوران» الذي كان يناولها كأساً، وقف ساكناً، يجول بناظريه الحانقين ذات اليمين وذات اليسار. وكان «جيل» يقهقه ضاحكاً، والتفت بسرعة.

في حين أن «أوديل» تابعت الكلام، دون حماسة تذكر:

- الآن، وقد تحسن قليلاً، ربما رغب بمرافقتنا!؟...

وكانت توجه نحو أخيها نظرات تنم عن الرجاء والتوسل، فهز رأسه لكي يطمئنها. كانت عينا «ناتاليا» مغرورقتين بالدموع. وكان يبدو أنها هي أيضاً تجد صعوبة في كبت ضحكة صاخبة.

وتبادر، فجأة، إلى ذهن «جيل»: «يا إلهي، لكم أنا مدين بالجميل لهذه المرأة. منذ كم من الوقت لم أجد نفسي في هذه الحالة من التعب والرضا، التي تلي ممارسة الحب، وحيث تترصدك الضحكة الصاخبة الجنونية، أو الدموع الغزيرة؟

وقال، بمرح:

- سأذهب بالتأكيد، ولكني لن أرقص إلا معكما، أنتما الاثنتين.

ووجه ابتسامة عذبة جداً إلى «ناتاليا»، جعلتها ترف بجفنيها، والتفتت إلى جهة أخرى. وقالت:

- يجب أن أعود إلى المنزل، سأراك إذن مساء الغد في منزل «آل كاسينياك»!؟

وساعدها «جيل» في ارتداء معطفها. وفتح لها باب السيارة مد رأسه من النافذة، وهمس في أذنها:

- وغداً، بعد الظهر؟

فقالت بلهجة تنم عن اليأس.

- لا أستطيع، هنالك اجتماع السيدات العاملات لصالح الصليب الأحمر.

فانفجر ضاحكاً:

- صحيح، أنت زوجة موظف عالي المقام.

فقالت، فجأة، بصوت خافت ومرتعش:

- لا تضحك، لا تضحك، لا ينبغي أن تضحك.

وانطلقت مسرعة بسيارتها، تاركةً «جيل» حائراً، مشغول البال. وأحاطته أخته ببعض مظاهر الرعاية والعناية بدت له أنها جديدة وإضافية في تلك الأمسية، الأمر الذي جعله يضحك. فالنساء يحببن كثيراً رؤية أخوتهن أحياناً وقد تحولوا إلى قناصين ومطاردين وخاصة عندما يعشن كأوديل حياة فارغة وخالية من أي حلم أو خيال. - فهذا يجعلهن يثأرن قليلاً من هزيمة غامضة ومبهمة.

٦

بـدا الطقـس رحيمـاً بـآل «كاسـينياك»، وكـان حفلـهما الـراقص في أوجـه، عنـدما وصـلوا. كـان ذلـك في مطلـع حزيـران (يونيو)، والجو لطيف جداً على الشرفة الواسـعة، وفسـاتين النسـاء الزاهيـة، وضحكـات الرجـال المرحـة، وأريـج أشـجار الكسـتناء، كـل ذلـك أحـدث فجـأة لـدى «جيـل» انطبـاعـاً عمـا قبـل الحـرب، وبالوهمية وعدم الواقـع. كـان هنالـك شـيء مـن الارتيـاح والتسـامح في علاقات هؤلاء النـاس فيمـا بيـنهم. شـيء غـض ولطيـف في الجـو، جعلـه يتـصور بـاريس، بـاريس تلـك الـتي أحبهـا كـثيراً وكـأنهـا كـابوس مخيـف. وكـانـت «أوديـل» تمسـكه مـن ذراعـه، وتقدمـه للمـدعوين، ذات اليمين، وذات اليسـار، منتظـرة أن تـكتشـف بـين ذلـك الجمهـور، ربـة المنـزل. وشـعر فجـأة بيـدهـا تـشـد علـى سـاعـده، وتوقفـت أمـام رجـل طويـل القامـة، جميـل الـشـكـل، يبـدو بـشـكـل

يلفت النظر، كأنه إنكليزي، بين هؤلاء الناس من سكان جنوب - غربي فرنسا.

- «فرانسوا»... هل تعرف أخي؟ «جيل»، أعرفك على السيد «سيلفينير». فقال «سيلفينير» وقد بدا مندهشاً:

- نعم، لقد تناولنا معاً طعام العشاء في منزل «آل روارغ»:

وقال «جيل»:

- هذا صحيح، بالتأكيد.

وإن كان بالحقيقة لا يتذكر ذلك أبداً. وأخذ يفكر:

«عجباً! هذا هو زوجها. إنه ليس سيئاً وغني جداً، على ما يقال، ولا بد أنه غير متساهل. ولا فكه ومزاح. وهل هي تهمس في أذنه الكلمات، والأحاديث التي تقولها لي؟ إنها بالتأكيد لا تفعل ذلك».

وعندما صافح «سيلفينير» وشد على يده، شعر برغبة قوية بأن يضم «ناتاليا» بين ذراعيه، كما فعل قبل البارحة.

وسأله «سيلفينير»:

- أتقيم في باريس؟

- نعم، ومنذ عشر سنوات. هل تذهب إليها كثيراً؟

- أقل ما يمكن، زوجتي تحبها كثيراً، ولكني، شخصياً، أتضايق وأنزعج فيها بسرعة.

و «أوديل» التي بدت وكأنها قد ارتاحت لكونها رأت أن «سيلفينير» و «جيل» لم يتحدّ أحد منهما الآخر ليبارزه، غادرتهما نحو مجموعة أخرى. كان «جيل» يرغب كثيراً بأن يتبعها: فهو، على الدوام، يكره أن يتخذ صديقاً له أزواج أو رفاق خليلاته، أو أن

يتظاهر بصداقتهم، بدافع بقية أخيرة من الأخلاق أو من الجمالية. ولكن «سيلفينير» كان يقف لوحده، منفرداً، وقد بدا له أنه من الصعب أن ينصرف ويتركه. وكان يبحث بناظريه عن «ناتاليا»، دون أن يجدها، وهو يتحدث عن متاعب وصعوبات التجول والسير في باريس، وعن أسعار المبيت في الفنادق، وعن الجلبة والضجيج فيها، وفي جميع المدن الكبرى، بصورة عامة. وأخذ يفكر، وقد شعر فجأة بالانزعاج وبالملل: «سأنصرف، لقد اكتفيت وسئمت من هذه الحفلة. لقد كان بإمكان «ناتاليا» على أي حال، أن تحاول اللقاء معي».. وكان يبحث عن جملة مهذبة لكي يهرب من «سيلفينير»، عندما أتت. كانت ترتدي فستاناً أخضر اللون كعينيها، حسن الزي والتفصيل، وأخذت تنظر إليه وهي تبتسم، وبدت شاحبة بعض الشيء. وفي اللحظة نفسها، قرر أن يبقى في مكانه.

وقال «سيلفينير»:

- تعرفان بعضكما، على ما أعتقد.

فردد «جيل» ما سبق أن قاله «سيلفينير»:

- لقد التقينا في منزل «آل روارغ»:

وقال ذلك وهو ينحني، مسروراً، لأن هذه الجملة كانت تمتاز بكونها صحيحة وتعبر عن الحقيقة، دون أن يكون لها معنى مزدوج، وهو أمر يكرهه أيضاً بين العشاق المراقبين. وابتسمت «ناتاليا».

- حقاً، يا سيد «لانتيه» إن السيدة «كاسينياك» وهي عاجزة، رأتك وهي جالسة على أريكتها، وكلفتني بمهمة اصطحابك لمقابلتها. فهل تأتي؟

فتبعها «جيل»، وهو يحيي عند مروره دون تمييز أناساً يعتقد أنه يعرفهم، مبتسماً لفكرة خطرت على باله، وهي كيف يمكن أن يبدو وجه «جان» مثلاً، لو رآه في هذا المكان. كانا قد عبرا الشرفة، واتجها نحو حديقة ظليلة، حيث كانت تحت كوخ من الحديد الصدئ، تتصدر المكان أريكة ربة المنزل المتنقلة (على عجلات) عندما انحرفت «ناتاليا» بسرعة إلى اليمين، كحصان مذعور، وجذبت «جيل» خلف إحدى الأشجار، وفي الحال لامس شعرها خذيه، والتصق جسمها بجسمه، وأضفى جنون وطيش تصرفها وحركاتها نوعاً من الحرارة على وجهه وفي قلبه، بحيث أنه أخذ يغمرها بالقبلات، كما لو أنه كان مغرماً بها بشكل جنوني.

فقالت له:

- توقف، توقف، أوه! يكفي يا «جيل»، توقف، أنا...

كان بعض المدعوين يسيرون في الممشى، وبالكاد أتيح له الوقت أن ينحني، لكي يتظاهر بأنه يصلح رباط حذائه، بينما كانت «ناتاليا» شاردة الذهن، تهز شعرها وتصلح وضعه. وتبادلت بعض العبارات المرحة مع الذين مروا من هناك، وعرفتهم على «جيل» ثم ذهب لكي يقبل يد السيدة «كاسينياك» المتقدمة بالسن، وقلبه كان لا يزال يخفق بشدة، فهنأته «العجوز» على مقالاته، التي كان من الواضح أنها لم تقرأها أبداً. وعادا بتمهل وهدوء هذه المرة نحو الشرفة. وحل المساء، فخيم الظلام، وكان حفيد السيدة «كاسينياك» قد أطلق ألحان «الجيرك» من جهاز «بيك آب» قديم، وأخذ بعض الشباب والشابات الحديثي السن، يرقصون بحماسة ونشاط، على إيقاع تلك

الألحان، تحت نظرات بعض الرجال من كبار السن، المصابين، على درجات متفاوتة بالرثة وآلام المفاصل، والذين كانوا ينظرون إلى الراقصين والراقصات بشيء من التعاطف المشوب بالهزأ والسخرية.

بينما كان «جيل» مستاءً وناقماً على نفسه من الانفعال الذي اعتراه. وقال:

- أتدرين أن زوجك لا بأس به، وليس سيئاً أبداً.

كان بذلك يقيم الزوج، ولكنه قال ذلك بلهجة تكاد تشكل شتيمة وإهانة.

فنظرت إليه:

- لا تتكلم عنه معي. علينا ألا نتكلم عنه.

فقال «جيل» بلهجة الهزل والسخرية، نفسها:

- حاولت فقط أن أكون موضوعياً.

فردت بجفاء، وتركته وانصرفت:

- أنا لا أطلب منك أن تكون موضوعياً. فأشعل سيجارة، وأخذ يضحك. وفجأة، شعر بالرعب فهو من يعتبر نفسه؟ وما هو هذا الدور الذي يقوم به كما يفعل الباريسي القرف والضجر في عطلة يقضيها في الريف وهو صلف ومنطلق؟ وأين وجد هذه الصورة للغاوي، في الخيال الشعبي؟

واستند لحظة على إحدى الأشجار. آه، كان ينبغي عليه أن يسافر، أن يرحل ويختفي، وليترك تلك المرأة لتعيش حياتها. فهي أحسن مما ينبغي بالنسبة له، وأكثر مما ينبغي كمالاً، بالنسبة للتعيس المتدهور. الممثل الهزلي الغشاش، الذي انحط، وأصبح هو

نفسه الذي يحمل هذه الصفات. ويجب عليه أن يشرح لها ذلك في الحال، وفي تلك اللحظة بالذات.

ولكنه، عندما التقى بها ثانية لم تكن لوحدها. فقد كان يحيط بضحيته البائسة ثلاثة رجال، وبدا له أن أحدهم جميل جداً. وكانوا كلهم مفتونين بها، بشكل واضح، وأخذوا يقهقهون ضاحكين، ودعاها «جيل» لمراقصته، ولكن «الجميل» المجهول أوقفه بلطف بحركة من يده:

- إنك لن تنتزع «ناتاليا» من مرافقيها «الفرسان»، فنحن الثلاثة «مرافقوها» أنا أدعى: «بييرلاكور»، وهذا «جان نوبل» وذاك هو: «بييرغرانديه». تناول شيئاً معنا، وحدثنا قليلاً عن باريس.

كانت عيناه تبرقان خبثاً، وبدا متمتعاً بثقة بنفسه تنم عن الراحة والاطمئنان، مثل عيون صديقيه، وحتى كعيني «ناتاليا» وشعر «جيل» بأنه سخيف ومضحك. فهذا الفتى، كان بالتأكيد عشيقها أيضاً، أو أنه كان ذلك سابقاً، وكان ينظر بتسامح إلى هذا الباريسي الصغير، الذي يبدو مزدهياً، متبجحاً. وهو الذي كان يخشى من أن يجعلها تتعذب وتتألم، هو الذي كان لديه وساوس واهتمام شديد بالدقة.. وابتسم، ثم احتسى كأس «ويسكي» على تلك المائدة.

وقال المدعو «لاكور»:

- «ناتاليا» تخرب لي الآن، بوحشية كتاباً، كنت قد كتبت عنه نقداً جيداً. ويجب علي أن أقول لك إني مدرس أدب في «ليموج» وإني أنشر، بتواضع، من وقت لآخر، بعض المقالات، في الصحيفة المحلية.

فقال «جيل» بلهجة تنم عن التهذيب:

- ها نحن زملاء، إذن!

كان مستاءً وناقماً على نفسه، بشكل مميت: لكم كان غبياً ومغفلاً!

كيف استطاع أن يفكر أن تلك المرأة التي ألقت بنفسها على رأسه، واستسلمت له عملياً المرة الأولى التي طلب ذلك منها، والتي تملك مثل ذلك العلم عن الحب، وكيف استطاع أن يفكر أنها مغرمة به؟! إنها امرأة شيقة (مغتلمة)، وعلاوة على ذلك، فهي مثقفة.

كان يشعر بالغيظ، ويدهش من ذلك، فمنذ زمن طويل لم يغضب ولم يشعر بالغيظ.

وقال:

- هل أستطيع أن أكرر طلبي، وألح من أجل هذه الرقصة؟ فرقصات «السلو»: (الفوكستروت البطيئة) تبدو نادرة هنا، وأنا لم أعد في سن تناسبها تلك البهلوانيات العنيفة والسريعة..

فابتسمت «ناتاليا»، وضعت يدها على ذراعه واتجها نحو الأرضية الخشبية المستديرة التي أقيمت على الشرفة. وقاما بثلاث خطوات، صامتين، ثم رفعت «ناتاليا» رأسها نحوه.

- عليك ألا تعود إلى ذلك!

- إلى أي موضوع؟

- «فرانسوا».

كان قد نسي ذلك الموضوع تماماً. فالأمر يتعلق بذلك إذن..

وابتسم بمحبة وعطف.

- كـلا، إنـي لـن أعـود إلى ذلـك. ولكـن قـولي لـي، إنـه فـاتن حارسـك المرافـق رقـم واحـد، مـدرس الأدب، ويبـدو أنـه يحبـك لدرجـة العبادة.

وعندما أجابته، ارتبك وتعثر بإحدى خطواته:

- إني آمل جيداً أن يكون يحبني لدرجة العبـادة. إنه أخـي، وهـو جميل ووسيم، أليس كذلك؟

وبعد قليل، همست في أذنه:

- لا تـضمني بـشدة هـكـذا، يـا «جيـل»، فالنـاس ينظـرون إلينـا. «جيل» «جيل»، هل أنت سعيد؟

فقال:

- نعم.

وفي تلك اللحظة بالذات، كان هذا صحيحاً وحقيقياً تماماً.

٧

كان قد تلقى برقية، في الصباح، من «جان» يطلب فيها منه أن يتصل به هاتفياً، بأسرع ما يمكن. كان آنذاك، الوقت ظهراً ويكاد يختنق من الحر في مكتب البريد الصغير، في «بيلاك» وهو في آن معاً قلق ومسرور بهذه المكالمة الهاتفية التي تعطيه من جديد، نوعاً من الأهمية المهنية. وكان عليه أن يمر بثلاث سكرتيرات لطيفات، قبل أن يحظى بـ «جان» وبدا له صوت هذا الأخير، بشكل مفاجئ، بعيداً جداً، كأنه آتٍ من كوكب آخر:

- ألو، «جيل»؟ هل تحسنت صحتك؟ نعم؟ آه، لقد كنت متأكداً من ذلك.. أنا مسرور جداً، يا عزيزي..

وفكر «جيل» بصورة غير منصفة: «أيها الأحمق المسكين، إنك لم تكن متأكداً من ذلك، أبداً! لم تكن تستطيع حتى أن تشك بذلك. لا تقل لي إنك كنت، مثلك في ذلك، مثل «أوديل» تعتمد على

الهواء الطلق، والمناخ الجيد في مقاطعة «الليموزين». فأنا قد تحسنت صحتي لأن هنا توجد امرأة تحبني، وأنا أتقبل وأتحمل حبها. فكيف كان بإمكانك أن تتوقع ذلك، أو أن تتنبأ به»؟

ومع ذلك كان يرد بجملٍ صغيرة، موجزة وهادئة، كمن أصيب بجرح خطير، ثم أنقذ وشفي أخيراً، وظل يشعر بالخوف الذي سببه لأصدقائه.

وتابع «جان»:

-... كما تعلم، فقد حصل خلاف شديد بين «لونو» وبين «المعلم». وهذا يفكر الآن بأن يعهد إليك بكل «القسم الأجنبي». أقسم لك أن هذا حقيقي... وليس أنا حتى الذي كلمته عن ذلك... فما هو رأيك؟

كان يبدو مبتهجاً، وحاول «جيل» عبثاً أن يقتدي به وينضم إليه. لم يكن مهتماً بهذا المنصب، الذي كان يرغب كثيراً بالحصول عليه، وكان يبدو له آنذاك، وهمياً تماماً.

-... ولن يحصل ذلك قبل تشرين الأول (أكتوبر)، بطبيعة الحال، وقلت للمعلم إنك تقوم برحلة طويلة، هكذا، وبكل برود. والحديث عن هبوط قواك، كان يمكن أن يستاء منه، كما تعلم، في هذا الوقت.. ويجب أن تعود بمنتهى السرعة.. لتمضية بضعة أيام، على الأقل، هنا، لكي يراك.. وأنت تعرف الزملاء الصغار..

وأخذ «جيل» يفكر، ساخراً:

«هكذا إذن، كان يمكن أن يستاء من هبوط قواي، فالرجل الشريف له الحق أن يصاب بأي مرض، أو أن يكون جسمه سيئاً...

والصحفي الجيد يجب أن يكون سعيداً، نشيطاً، وحتى فاسقاً.. وكل شيء، ما عدا أن يكون محبطاً أو مكتئباً. وإني لأكاد أقسم. أنه سينتهي بهم الأمر، إلى أن يسمموا ذات يوم، جميع الناس الحزينين... وسيصبح هنالك كثير من العمل».

وقال صوت «جان»، صوت حنون، بالفعل، ومسرور بكونه هكذا. ومتى ستأتي؟

فقال «جيل» دون اقتناع تام:

- سأستقل القطار، غداً. فلا يوجد هنا طائرات، كما تعلم. وسأصل، حوالي الساعة (١١) إلى المحطة.

- بل، عليك أن تستقله اليوم!

وفجأة، ثارت أعصاب «جيل».

- ولكن، أخيراً، علينا أن نتمهل قليلاً.. وإذا قرر أن يختارني أنا، فبإمكانه، أن ينتظر يوماً واحداً!

فخيم صمت قصير، ثم بدا صوت «جان» ينم عن الخيبة، ويوجز الكلام:

- كنت أظن أنك لا ينبغي أن تتمهل، وهذا كل ما هنالك، سأحضر إلى المحطة، لأصطحبك إلى اللقاء، يا عزيزي.

كان قد وضع السماعة، بينما كان «جيل» يجفف جبينه من العرق، في غرفة الهاتف الحارة الجو. كان لديه موعد في الساعة الثالثة، مع «ناتاليا». أكان هذا إذن هو الذي احتجزه اليوم وجعله يرجئ السفر إلى الغد؟ نعم، كان يعرف ذلك، فلا أحد يتمهل في تلك الصحيفة بباريس والأمور تسير فيها بسرعة النار في الهشيم، في كل

مرة يشغر فيها منصب هام. حتى أنه يحدث أحياناً تحرك واضطراب شديد. وهو، بسبب امرأة ومن أجلها، ربما أضاع الفرصة. وكاد يتصل من جديد بجان ليقول له أنه سيحضر في ذلك اليوم نفسه. وبدا متردداً، وأخذ يتمتم متلعثماً أمام السيدة، موظفة البريد. ثم رأى عبر النافذة، حركة سنابل القمح التي تهزها الريح، والبراري المخضرة، وأخذ يتخيل جسم وحرارة «ناتاليا»، ونصائحها، فخرج مسرعاً. وكان «فلوران» ينتظره أمام الباب، ويده على مقود سيارته:

- ماذا؟ أهنالك أخبار سارة؟

كان يبدو قلقاً بشكل حقيقي، و «جيل» الذي نادراً ما رآه، بهذه الحالة، شعر بمحبة حقيقية لهاتين العينين الواسعتين والزرقاوين. وابتسم، دون أن يبدي بعض الشجاعة، لأن «فلوران» كان يتجاوز بسيارته آنذاك سيارة شحن ضخمة:

- إنهم يعرضون علي في الصحيفة، منصباً هاماً.

فصاح «فلوران»:

- كل شيء يسوى، كل شيء يسوى دفعة واحدة... وقد قلت ذلك، على الدوام: الحياة كالأمواج، موجة سيئة، وموجة جيدة...

وقلد بيديه حركات الأمواج، لدرجة أن تلك الحركات كادت تلقي بهما في الخندق. لكنه، بالإضافة إلى ذلك، ربما كان مصيباً. ولكن «جيل» لم تكن لديه الجرأة ليقول له إنه يخاف من الموجات الجيدة، بقدر ما يخاف من الموجات السيئة، ويخاف من مسؤولياته الجديدة ومن الولع بناتاليا، بقدر ما يخاف من التفاهة والوحدة.

٨

كررت سؤالها:

- ستسافر إذن غداً؟

كانت مستلقية، وهي مرتدية كل ملابسها على سرير «جيل» وقد بدت حالمة، شاردة البال. وكان قد روى لها كل شيء، منذ وصولها. وهو سعيد بالقيام أمامها بدور الطموح الفائز بتحقيق هدفه، الذي يغيره ويعفيه بصورة لطيفة من دور الشخص العصابي، المصاب بانهيار عصبي. وعبر انطلاقته، فقد وصف لها بشيء من الشاعرية أهمية مهمته الجديدة، والمسؤولية الأخلاقية والمعنوية التي تلقيها على كاهله حيال القراء. والأهمية المثيرة للسياسة الخارجية والأجنبية، وباختصار: فقد استولت عليه أمامها حماسة، كان عليه أن يبديها، عبر الهاتف، مع «جان».

وربما كان شعوره بالندم وبتبكيت الضمير لكونه خيب أمل هذا الأخير، هو الذي حدا به لمحاولة إثارة الانبهار لدى خليلته، وهذا ما كان يقوله في سره، بشيء من السخرية. ولكنها كانت تبدو في جميع الحالات، ما عدا أن تكون منبهرة.

وقال:

- أسافر لمدة أسبوع، أسبوع أو أسبوعين، وأعود بعد ذلك، ولن أبدأ عملي الجديد إلا في تشرين الأول (أكتوبر).

فقالت، لاهيةً، وهي شاردة الذهن:

- مثل تلاميذ المدارس.

فانزعج قليلاً، ولكثرة ما تحدث عن منصبه الجديد، فقد انتهى به الأمر إلى الإيمان بأهمية هذا المنصب وبفائدته العظيمة، كما انتهى به الأمر أيضاً لأن ينقم على نفسه، بسبب النقمة «عليه»، لكونه جازف بأن يخسره، من أجل تمضيه نصف نهار معها. ولكن هذا، مع ذلك، لم تكن لديه الجرأة ليقوله لها. وكانت هي التي حدثته عنه:

- إذا كان الأمر هاماً إلى هذه الدرجة، لماذا لم تستقل القطار، بعد ظهر اليوم؟

- كان بيننا موعد، أنت وأنا.

وحصل لديه انطباع بأنه يكذب، ومع ذلك فقد كان هذا حقيقياً تماماً. فحدقت به:

- ربما فكرت فقط، أنه يمكن مفارقة امرأة، حتى لو أنك لم تكن تعرفها إلا منذ خمسة عشر يوماً، وبأن تترك لها كلمة موجزة؟

كانت تتكلم باطمئنان وهدوء، وقد استغرب كونه أخذ يهز رأسه، ويكاد يحمر، كمن كان يكذب. وربما كانت مصيبة وعلى حق، بعد كل شيء، فمن الممكن ألا يعود إلى هنالك أبداً؟ ويمكن أن تجتذبه باريس وتمسك به، ثم هنالك الصيف، الأصدقاء، البحر، الرحلات. وربما لم تكن سوى خمسة عشر يوماً، من مطلع ذلك الصيف، في مقاطعة «الليموزين». وبشكل مفاجئ، أخذ يرى نفسه، عبر نظرة تلك المرأة، حراً، حازماً، ومن جديد، خفيفاً وقوياً، مثلما سبق له أن كان، طيلة حياته. وغمرته موجة قوية من العطف والحنان، لم يكن يعرف فيما إذا كانت عرفاناً لكونه استعاد وعثر من جديد لدى أحد ما على ذلك الانعكاس المرح، المنسي، لنفسه بالذات، أم مجرد شفقة مسبقة، في حالة عدم عودته. فانحنى نحوها:

- إذا لم أرجع، ماذا يمكن أن تفعلي؟

فأجابته بعذوبة وهدوء:

- سأذهب لأبحث عنك. قبلني.

فقبلها، وفي الحال نسي باريس والجريدة والسياسة. وفكر في بداية الأمر، أنه على أي حال، سوف يشتاق إليها كخليلة، ثم نسي ذلك أيضاً، وظل ساكناً بعد ذلك برهة طويلة، مستنداً على كتفها، وهو يشعر بالذعر من فكرة مفارقتها حتى لمدة أسبوع واحد، كانت تداعب له شعره، ومؤخرة عنقه، دون أن تنبس ببنت شفة. وكانت الشمس عند المغيب تغمر الغرفة بأشعتها الذهبية. وتبادر إلى ذهنه، بشكل مفاجئ، بأنه لا يمكن أن ينسى أبداً هذه اللحظة، مهما حصل.

وقالت:

- سأوصلك إلى المحطة، غداً، ليس إلى «ليموج» بل إلى «فيرزون». وسأذهب لأحضرك عندما تعود.

كان في صوتها نبرة غريبة من الطمأنينة، تكاد تنم عن اليأس.

الجزء الثالث

باريس

١

لم يتذكر «ايلوييز» إلا عندما رآها تركض على رصيف المحطة مسرعة لاستقباله. كان «جان» يمشي وراءها، وقد بدا جاداً طيب القلب. وكان على «جيل» أن يطبع قبلة مطولة على فم تلك الغريبة، وهو منزعج تماماً من شرود ذهنه، ومحدثاً نفسه: «ولكن، هذا صحيح، فهي موجودة، وتسكن معي في المنزل، هذا مخيف.. كان «جان» يستطيع، مع ذلك، أن يذكرني بها». وهذه الفكرة، بحد ذاتها جعلته يضحك لوحده. كما لو أن الصديق المخلص يجب عليه أن يذكر صديقه بأن لديه خليلة في منزله، في كل مرة يعود من إحدى إجازاته.. وفي الوقت نفسه كان عطر «ايلوييز» وملامسة شفتيها، يجعلانه يشعر بشكل غامض، بالقرف والاشمئزاز. كان يتذكر آخر قبلة له مع «ناتاليا» في «فيرزون» قبل ثلاث ساعات، ووداعهما الذي اتسم بالشرود واللهاث، وقد انتابه تطير غامض ومبهم: فماذا لو حصل معها حادث

وهي عائدة على ذلك الطريق الوعر الكثير المنعطفات، وعيناها طافحتان بالدموع، وقد رآهما آنذاك، في آخر لحظة؟ وهو نفسه، كان قد بقي جالساً، خلال خمس دقائق، ساهماً، منذهلاً، في حافلة القطار، قبل أن يبدر منه أي رد فعل، وينهض متجهاً إلى «حافلة المشرب» ولو كان عليه آنذاك أن يقود سيارة لبدا عاجزاً عن القيام بذلك، وكانت هي تقود سيارتها بمنتهى السرعة، بشكل جيد طبعاً، ولكن بمنتهى السرعة.. وأخذ يشعر بأنه مغفل، أحمق. وتخلص بلطف من «ايلوييز» ربت على كتف «جان» وحاول أن يبتسم. كانت المحطة سوداء من أثر الدخان، والضجيج فيها يصم الآذان. ولم يجد «جيل» نفسه في «باريسه» العزيزة والمفضلة إلا بعد أن جلس في سيارة «جان» وعاد إلى باريس الخاملة والجميلة في الليل، باريس عزيزته في الصيف. وفكرة جميع عوامل ومظاهر السعادة التي عرفها وتذوقها في باريس هذه، طيلة عشر سنوات، جعلت قلبه ينقبض، كما لو أنها ضاعت منه وفقدها إلى الأبد. كان يشعر بالخوف وبأنه ضائع من جديد، تائه وعاجز. كان يعطي أي شيء لكي يكون في مرج تغطيه الحشائش والأعشاب الخضراء، مستلقياً هناك في ظل «ناتاليا».

وسأله «جان»:

- أمسرور أنت، بالعودة؟

- جداً. وأنت، هل أمورك على ما يرام؟

كان يحاول جاهداً أن يبدو فتى صالحاً.

وقال صوت: «ايلوييز» من داخل السيارة، وبدا ذلك الصوت مرحاً:

- من حسن الحظ أن «جان» قد أخبرني بعودتك ولا يمكن القول إنك قد تكرمت علي بأخبارك.

فقال «جان»:

- أردت أن أريح «ايلوييز» من استخدام سيارة أجرة، لكي تأتي لتستقبلك وتوصلك إلى المنزل. فمررت عليها واصطحبتها معي، وقد سرت بذلك كثيراً...

كان يضحك، هو أيضاً، ولكن مرحه بدا مقتضباً. وألقى نظرة منحرفة على «جيل»، نظرة زميل.

وقال «جيل» «لايلوييز» وهو يكذب:

- حاولت أن أتصل بك، ولكنك لم تردي على الهاتف أبداً.

- لا يدهشني ذلك، كنت أعمل بالتصوير طيلة النهار. وهل تدري لمن؟ لـ «فوغ» (VOGUE)!

وكانت تشعر بالنجاح والفوز ففكر «جيل»:

«إيه، هذا من حسن الحظ، فهو يسهل الأمور، وها هي على الأقل مشكلة قد انحلت». ولكن، كانت هنالك فكرة أخذت تراوده وتشغل باله: الاتصال هاتفياً «بناتاليا»، أو أن يجعل «جان» يتصل بها. كان قد اتفق معها على ألا يتصل بها إلا في اليوم التالي، لأن الساعة كانت الحادية عشرة مساءً، ويمكن أن يرد زوجها على الهاتف، ولكنه لم يكن يستطيع التخلص من تلك الفكرة الحمقاء التي لازمت ذهنه وأخذت تعذبه، وهي احتمال حصول حادث مع «ناتاليا» أثناء عودتها إلى المنزل. وهو بالتأكيد لم يكن مغرماً بها، ولكنه كان يريد من أجل طمأنته الشخصية أن يعرف أنها على قيد الحياة. ومن جهة أخرى،

كيف يستطيع أن يتصل بها بالهاتف من منزله، مع وجود «ايلوييز»، التي لا تفارقه قيد أنملة، و «جان» الذي يتحدث إليه عن شؤون المهنة.

وقال له «جان»:

- لقد تحسنت صحتك كثيراً، ولوحتك الشمس قليلاً، وهذا شيء مناسب، فقد قلت «للمعلم» إنك كنت على شاطئ البحر مع إحدى نجمات السينما الإيطاليات.

فعلقت «أيلوييز» على ذلك، ضاحكة:

«وكان علي أن أتحمل ذلك»!

تململ «جيل» على كرسيه، منزعجاً. ولكن فكرة كون «ناتاليا» نجمة سينما إيطالية غمرته بشعور من الزهو الشديد الذي لا يخبو: لقد كانت أكثر جمالاً من أي نجمة سينما إيطالية، وتتمتع بكل ما لا تتمتع به، بصورة عامة، نجمات السينما الإيطاليات.

كان المنزل على حاله. وكان هنالك دمية لدب ضخم، من القطيفة، أهداه أحد المصورين إلى «ايلوييز». وانزعج منه «جيل» ولكنه حول نظره عنه بسرعة. ولم يكن يهتم بذلك. وكان يشعر أنه غريب تماماً، في منزله. وجلس على أريكة، آملاً أن يفعل ذلك «جان» و «ايلوييز» لكي يستطيع أن يذهب إلى الغرفة، حيث يوجد جهاز الهاتف. ولكن «ايلوييز» وهي التي تحب النظام والترتيب، كانت تجر الحقيبة إلى الغرفة، وأحدثت جلبة وهي تفتح خزانة الملابس. وشعر بالغيظ وبنفاد الصبر، ولم يعد يصغي لجان، الذي لاحظ ما به أخيراً، وكف عن الكلام، وبدت على سيمائه أمارات التساؤل والاستفهام.

فنهض «جيل»:

- اعذرني لحظةً يا عزيزي، لقد وعدت أختي أن اتصل بها عند وصولي، وهي كما تعلم، «أم مفرطة بالعناية بأولادها وكان يتمتم متلعثماً، فاكتفى «جان» بأن هز رأسه وابتسم، بكل تهذيب. ولم يستطع «جيل» إلا أن يرد على ابتسامته بمثلها، وعاودته دفقة من المحبة والمودة، لرفيقه القديم. فربت على رأسه، عندما مر بقربه، ذاهباً إلى غرفته، تناول سماعة الهاتف بشكل طبيعي، جلس على السرير أخذ يقلب صفحات الدليل، كان لا بد من استخدام نحو دزينة من الأرقام للاتصال «بناتاليا».

فسألته «ايلوييز» وهي تعلق سترته الزرقاء في الخزانة:

- أفي ساعة كهذه، تتصل بالهاتف؟

فقال، باختصار:

- أختي!

ودق الأرقام. ولكن، ماذا لو رد زوجها؟! إنه سيعيد السماعة إلى محلها في الحال. ورن الجرس، مطولاً، ثم، قريبة جداً، مستيقظة تماماً، بدت «ناتاليا» وشعر أن يده التي تمسك السماعة، قد بللها العرق، وقال:

- ألو! هذا أنا، أردت أن أقول لك إني وصلت بخير، سالماً معافى. وأردت فقط أن أعرف أنك أنت أيضاً عدت بسلام.

كانت تتكلم بمنتهى السرعة، بلهجة لاهية، شاردة، وساد صمت قصير، ثم أتى صوت «ناتاليا» أجش ومضطرب بعض الشيء، وقالت:

- أعتقد أن هنالك خطأ.

ثم أضافت، بعد لحظة:

- كلا، إنك لم تزعجني أبداً، يا سيدي.

وقالت ذلك بلهجة لطيفة، تتسم بشيء من العطف والمودة. وأعادت السماعة إلى مكانها. وظل «جيل» لبرهة، ساكناً، ثم قال: «أقبلكما أنتما الاثنين» في السماعة الخرساء، وذلك لحساب «ايلوييز»، وأعاد السماعة إلى مكانها، وهو يتصبب عرقاً، بشكل مخيف.

وهكذا، فإن زوجها، لا بد من أنه كان هناك بقربها، فلم تستطع أن تقول له شيئاً. ولكن، كم كانت خبيثة.. وعبارة «يا سيدي، لم تزعجني أبداً» كانت مضحكة، ومثيرة للعطف والمحبة وبالتأكيد، كانت لا تزال على قيد الحياة، وهي تحبه. وكم هي غريبة، تلك النرفزات العصبية التي تنتابه من وقت لآخر.. وعاد إلى الصالون، وكأنه رجل أعمال، وبدا رشيقاً، مرتاحاً، لم يعد مشغول البال «بناتاليا» أكثر من انشغال باله بـ «أيلوييز»، لأنه اطمأن بشأنها، ولم يفكر لحظة بأنه إذا كان قد اطمأن، فذلك لأنه كان عليه أن يكون كذلك.

وقال صوت «ايلوييز» عبر الظلام:

- ها نحن، عدنا كما في السابق: كنت أعرف أن علاقتنا، أنا وأنت ستدوم طويلاً، وطويلاً جداً.

فلم يرد «جيل»، وأخذ يتقلب في السرير، حانقاً من نفسه. كانوا قد أفرطوا في الشراب، تلك الأمسية سوية مع «جان» وشرب الثلاثة أكثر مما ينبغي، نخب عودته ونخب منصبه الجديد. وعندما انصرف «جان» عند الساعة الثالثة صباحاً، «جيل» من جهته، لم يكن يشعر بالنعاس، بل كان يبدو مرحاً، واثقاً من نفسه، وقد حقق فوزاً ملحوظاً، وكان ثملاً بعض الشيء في نهاية الأمر، وضاجع «ايلوييز» بشكل آلي وتلقائي تقريباً، كبرهان أخير على مقدرته، وكما لو كان قد ضاجع

أي امرأة تواجدت في سريره. وباختصار، فقد خدع «ناتاليا» بل لقد خانها، وهو أمر غير ذي شأن وقليل الخطورة، لأنها لن تطلع عليه أبداً. وقد خدع نفسه، بالذات أيضاً لأنه حتى وهو في حالة السكر، لم يحصل من ذلك إلا على نوع من المتعة العصبية، المتعبة وأخيراً فقد خدع «ايلوييز» التي رأت في ذلك دليلاً على الحب. كان ينبغي عليه أن يشرح لها ويوضح الأمر، وأن يحدثها عن «ناتاليا»، وذلك بالتحديد في الوقت الذي بدأت فيه تعتقد، بخطأ منها هي، أنه ما يزال متمسكاً بها. أضاء المصباح، فجأة، بحث عن سيجارة، ولاحظ دون أي اهتمام أن «ايلوييز» كانت فاتنة، هكذا، بشعرها المنسدل على الوسادة، وأخذ يبحث عن عبارة يبدأ بها حديثه كان يشعر بألم في رأسه، وبالتعب وبالعطش أيضاً.

وقالت «ايلوييز» وهي مستغرقة في التفكير:

- يبدو هذا غريباً مع ذلك، فكل شيء يسوى معاً وفي آن واحد: فأنا سأصبح «موديلاً» نموذجاً دائماً لدى «فوغ» (VOGUE)، بفضل ذلك المصور الأميركي، وأنت حصلت على المنصب الذي كنت تحلم به، وقد شفيت. ولو قيل لي هذا قبل شهر! أتدري، لقد أخفتني، كثيراً، كثيراً، كثيراً!

وظلت تتحدث هكذا بطريقة طفولية، بعد ممارسة الحب، وهي على الدوام، كانت تتحدث بهذه الطريقة.

وهذا ما جعل «جيل» يشعر، بصورة متوالية، بالعطف، ثم بالانزعاج. وكان ذلك يضاعف من تبكيت ضميره له، آنذاك.

فقال بصوت أجش:

- ليس الأمر بسيطاً إلى هذا الحد، وأنا، كما تعلمين، لست تماماً على ما يرام. وسأسافر ثانية، عائداً إلى بيت أختي، بعد أن أسوي هذه القضية.

فقالت:

- على أي حال، وبسبب تلك المجموعات، فإني سأعمل طيلة فصل الصيف، ولكني سأذهب لأراك، بين فترتين من العمل. فهنالك طائرة إلى «ليموج» الآن، تعمل على الخطوط الداخلية.

فتبادر الى ذهن «جيل»: «لم يعد ينقصني سوى هذا»! ينبغي، بالتأكيد، أن يتحدث إليها. هو الذي كانت لديه كراهية تكاد تكون جنونية، لقطع العلاقات..

ولكن، ليس هذا المساء، كلا، ليس هذا المساء. ونظر إلى «ايلوييز» وأخذ يتأملها للمرة الأولى، منذ وصوله، ونظر إلى عينيها الواثقتين، وإلى هذا الجسم المألوف تماماً، كل هذا الجمال، وهذه المحبة، كل هذا الذي أصبح آنذاك، غير ذي جدوى أو فائدة. وشعر فجأة بالشفقة عليها، على نفسه، على «ناتاليا» وبكثير من الشفقة على الحب، وعلى كل تلك الأنماط من الحب، المرصودة للموت ذات يوم، وسط البكاء والدموع، ومظاهر الأسف، لدرجة أنه ألقى رأسه على الوسادة، وعيناه طافحتان بالدموع. فانحنت «ايلوييز» نحوه:

- هل أنت حزين؟ ولماذا تحزن وقد سوي كل شيء؟!

فلم يرد، وأطفأ النور. وكان وهو مستلقٍ، ورأسه بين ذراعيه، يتخيل «البرية» على ضفة النهر، وصول «ناتاليا»، وكان يستنشق رائحة العشب الحار، ويتصور أشجار الحور وهي تهتز وتتمايل فوقه، والوعد الغريب في عيني «ناتاليا» الصافيتين.

٢

«فيرمون»، مدير الصحيفة، كان رجلاً طويل القامة، جافاً، أخرق، ويحب العمل كثيراً، وهو ينحدر من أسرة تنتمي إلى الطبقة البرجوازية الكبيرة، وكان قد برز وصعد، مثيراً الدهشة العامة، بفضل حظه الخاص وهذه الصحيفة اليسارية، التي كانت بالواقع يسارية بقدر ما يمكن أن يكون المرء يسارياً في تلك الفترة الغامضة والمشوشة. ومع ذلك، فقد بقيت لديه بعض الطرق والأساليب التي تتسم بالتسلط والديكتاتورية. وكانوا، في الصحيفة يعرفون، على الخصوص، أنه مع إدانته الامتيازات بجميع أشكالها، فإنه كان يحاول جاداً، منذ عدة سنوات، الحصول على لقب «كونت فيرمون» الذي فقدته الأسرة في عهد «شارل العاشر».

كان «جيل» في مكتبه، برفقة «جان» يحاول أن يتابع باهتمام، حديثاً شديد الخطورة عن مسؤولياته في المستقبل.

وكان «فيرمون» يقول:

-... من البديهي أن عليك أن تتخلى عن سفرياتك. وأنا لا أريد أن أبحث عنك، وأستدعيك من «سان تروبيز»[1] فيما إذا أمريكا وفيتنام، عقدنا الصلح فيما بينهما. وأنت حديث السن، بالنسبة لهذا المنصب، وأنا أعرف هذا وهذا مبرر إضافي، لكي تتعمق بدراسة المواضيع. وعلاوة على ذلك، فأنت تعرف أن المنصب كان ينبغي أن يعود إلى «غارنييه» لولا تلك القضية.

فأصاخ «جيل» السمع. ونظر إلى «جان» الذي كان يهز رأسه، منزعجاً. وقال «جيل»:

- لست مطلعاً على ذلك، هذا صحيح، «غارنييه» هنا منذ زمن طويل، وهو مطلع، وملم تماماً بشؤون المهنة.

- لقد حصلت مع «غارنييه» قصة أخلاقية، شديدة الصعوبة، وهو موقوف من قبل الشرطة الآن، بسبب مشكلته مع صبي صغير.

- فقال «جيل»:

- ولكن هذا لا علاقة له بعمله!

وكان حانقاً غاضباً، فألقى عليه «جان» نظرة تهدئة. ولكنه كان مندفعاً، وتابع:

- حسب ما أفهم، فأنا أحصل على هذا المنصب، بناءً على رأيي ولأنه يلائمني.

---

١ ـ «SAINT TROPEZ»: بلدة تقع على خليج يحمل الاسم نفسه، على شاطئ البحر البيض المتوسط، وهي مركز سياحي هام وتكثر فيها الحمامات البحرية. ـ المترجم ـ

فحدق به «فيرمون» ببرود:

- ليس حسب رأيك، بل حسب رأيي أنا، وأنا لا أريد أن يكون لدي محرر هام يمكن أن يبتزه أحد بالتهديد. ستبدأ عملك الجديد في أيلول (سبتمبر).

وفي مكتب «جان»، تفجر غضب «جيل»، وأخذ يسير ويمشي في كل اتجاه، تحت نظر «جان» الجريء، وكان وهو يمشي يبدي كثيراً من الإشارات والحركات:

- لا أستطيع أن أستلم هذا المركز، إن هذه سرقة. وماذا تعني تلك القصة؟ ومن هو ذلك المتزمت؟ ومن هو، في عصرنا هذا يستطيع أن يبتز أحداً بسبب أخلاقه، أنا لا أستطيع تقبل ذلك.. وأنت، ما هو رأيك؟ كان ينبغي عليك أن تحدثني عن الموضوع وأن توضحه لي جيداً! لأني بالحقيقة، كنت قد نسيت «غارنييه» تماماً.

فقال «جان» بلطف وهدوء:

- كنت قد نسيت «غارنييه» و «ايلوييز» ونسيتني أنا أيضاً. ولكن، لا تقلق، إذا رفضت هذا المنصب، فسيجدون في الحال من يقبله، صديقك «توماس»، مثلاً.

- ولكني لا أبالي، إن كان «توماس» أو أي محرر آخر. فأنا لا أستطيع أن أفعل هذا مع «غارنييه». أنا أحبه كثيراً. وهو، بشكل عام، كفء مثلي، وأكثر..

كان يدخن بمنتهى السرعة، وهو يدور في الغرفة. وأخيراً أوقفه «جان»:

- اجلس، لقد سببت لي دوخةً ودواراً وسبق لي أن تناقشت مع «غارنييه» فهو يعتقد أنك الأفضل، ولم يشر أو يتحدث عن نفسه أبداً. اذهب وقابله.

فغمغم «جيل»:

- إنه متساهل! إنه حقاً طيب ومتساهل!

وألقى بنفسه، مرهقاً، على إحدى الأرائك.

فابتسم «جان»:

- أنت منزعج لأنهم لم يختاروك من أجل ذكائك الشديد؟!

فقال «جيل»:

- أنت لم تتفهم القضية: هذا ظلم، وأنا لا أحب أن أكون ذلك الذي يستغل هذا الظلم، ويستفيد منه. ولكنه، في الوقت نفسه، كان يشعر، بشكل غامض أنه منزعج ومشمئز، وأن لديه رغبة بأن يلقي جانباً كل شيء، وأن يتخلى عن: باريس، دسائسها ومكائدها، القرارات الاستبدادية التي تصدر فيها. ومظاهر النفاق والرياء المنتشرة بين سكانها. كان يرغب بالعودة إلى الريف وإلى صالونات «ليموج» الهادئة والبسيطة والتي تبدو زرقاء كعيني صهره «فلوران» وفكر بأن يتصل هاتفياً «بناتاليا» ويطلب منها النصيحة والمشورة. وهي تستطيع أن تفعل ذلك. فلديها شيء من الصلابة، ومن النقاء الطبيعي، اللذين يحتاجهما كثيراً.

وتمتم تلقائياً، وبصورة آلية:

- إني ذاهب لأتلفن.

- لمن؟

وأدهشته اللهجة التي اتسم بها صوت «جان» فهو عادة ذو طبيعة تمتاز بالرصانة.

- لماذا تسألني عن ذلك؟

- بدافع الاهتمام بمصلحتك. فقد كنت عندما سافرت كالمحكوم بالسجن مع الأشغال الشاقة، الذي يحمل القيد والسلاسل في قدميه، وعدت محلقاً فوق السحاب، ولكم أود أن أعرف بفضل من حصل لك ذلك؟

فصاح «جيل»، وقد انتابه رعب شديد:

- ولكنك مخطئ، وأضاف بكل سذاجة: أنا لست مغرماً بها أبداً، وأنا لا أكاد أعرفها جيداً، وقد كانت فاتنة وظريفة، وهذا كل ما هنالك.

فأخذ «جان» يضحك:

- هذا كل ما هنالك، ولكن عندما أقترح عليك أن تأتي، من أجل فرصة العمر، والمنصب الذي كنت تحلم به طيلة حياتك، فإنك لا تحضر إلا في اليوم التالي. وتصاب بالذهول وبخيبة الأمل عندما تلتقي بـ «إيلويير». وتدبر الأمر لكي تتلفن لتلك المرأة، فور وصولك إلى هنا، كذلك، عند أقل صعوبة تعترضك، تريد أن تطلب منها النصيحة. وهذا، بصورة مختلفة، كل شيء. لا تنظر إلي كما لو أن على رأسي قبعة غريبة الشكل كقبعات سكان منطقة «التيرول»، إنك تبدو مغفلاً، بشكل يثير الخوف.

فقال «جيل»:

- هذا كثيرا! إنه يتجاوز الحد (وكان يتمتم متلعثماً من الغيظ، عبر رغبته بأن يصدق، وبأن يصدق هو نفسه) قلت لك بأني أحبها كثيراً، وهذا كل شيء. وهل أصبحت تعرف مشاعري وعواطفي، أكثر مني، الآن؟

فقال «جان»:

- ليس الآن، بل منذ خمس عشرة سنة. هيا، تعال، لنحتسي كأساً، وستحدثني قليلاً عنها.

ونزلا إلى «الندوة» وجلسا على الشرفة. كان الجو لطيفاً بشكل مدهش. وكانت أشعة الشمس «تلسع» قليلاً وجهيهما. وبدأ «جيل» يروي لجان قصة موجزة ودقيقة عن علاقته الريفية، والأمر الذي أدهشه شخصياً هو أنه وجد صعوبة كبيرة، بأن يدخل فيها ذلك الجانب من التهكم والاستخفاف، أو السخرية، الذي كان يمكن أن يقنع «جان» بحسن نيته أو بالأحرى، بسوئها. ولكنه كان يعاند ويصر على ذلك. كان «جان» يدخن غليونه، وبدا وكأنه نائم. وقال:

- إذا كان الأمر هو هكذا، وحسب، فلماذا تعود إليها؟ اذهب أنت و «ايلوييز» إلى «الجنوب»، كالعادة.

فقال «جيل» وقد اغتاظ ونفد صبره:

- ليس هذا وارداً، فإن تلك المرأة تهمني، مع ذلك! وتفيدني نفسياً...

فقال «جان»:

- لقد انقضت ثلاثة أرباع الساعة بالضبط وأنت تحدثني عنها، وحسب هذه الساعة التي في معصمي، حتى أنك لم تشرب كأس

البيرة الخاص بك، رغم حرارة الشمس، وحرارة حديثك. مسكينة «ايلوييز» ومسكين «فرانسوا»، نعم الزوج، أني أعرف حتى اسمه الآن.

كان «جيل» ينظر إليه، بشيء من الذهول، وخلال ثانية واحدة شعر بالدوخة، وحصل لديه انطباع بأن هنالك شيئاً يرتفع في داخله، ويغمره بالحرارة، بالرعب، وبالارتياح في آن معاً، ومد يده فتناول كأسه، رفعه إلى شفتيه، بصورة احتفالية، أرجع رأسه إلى الوراء، وعيناه مغمضتان، وانسكبت البيرة الدافئة، فملأت فمه وبلعومه، وحصل لديه انطباع، بأنه يمكن أن يشرب منها عدة ليترات، وأنه يمكن أن يظل عطشاً هكذا في المستقبل، بصورة عذبة ولذيذة. ووضع كأسه في مكانه، على المنضدة وقال:

- إنك مصيب، وعلى حق، فأنا أحبها، دون شك.

وأنهى الحديث «جان» أخيراً، دون أن يضحك. قائلاً:

- أنا، مع ذلك، مفيد لك كثيراً.

٣

أمضى نهاره كأنه في حلم. كان يشعر برغبة شديدة، ويتشوق كثيراً للاتصال «بناتاليا» هاتفياً، ليعلن لها حبه، بفوز وازدهاء. وفي الوقت نفسه، كان يشعر برغبة شديدة بأن يبلغها ذلك، كمفاجأة، وكهدية مدهشة وغير متوقعة، ولكم كان يود أن يرى وجهها عندما يقول لها ذلك. لو كان يستطيع أن ينتظر بضعة أيام أخرى، لو كان يستطيع الانتظار حتى الوصول إلى المحطة، عندما ستأتي لتستقبله وتوصله إلى بيت أخته.. وحالما يكونان قد غادرا المدينة، سيطلب منها أن توقف السيارة، يضم وجهها بين يديه، ويقول لها: «أتدرين، أنا مغرم بك، بشكل جنوني». وتفكيره بالسعادة التي ستغمرها عند ذلك، من جراء هذا التصريح، كان يجعله يزهو بكبرياء وبمحبة. وكان يشعر أنه بازخ ومترف، وتوقف مدفوعاً بأريحيته وكرمه عند مخزن لبيع

المجوهرات، فاشترى بآخر ما تبقى معه من الفرنكات، حلية صغيرة مضحكة، جعلته يزداد حناناً وتعاطفاً، وكان قلبه يطفح بالسعادة، عندما اتصل بها بالهاتف، عند الساعة الخامسة، كما كان متوقعاً، من مقهى قريب من منزله.

واستطاع أن يتصل بها في الحال، ولكنه حظي بصوت جاف، ينم تقريباً عن اللامبالاة، أدهشه في البداية، ثم جرحه. وفي الحال، قال في سره: «إيه، هاك، بالتأكيد، هذا أمر طبيعي». فكان يعرف أن هنالك في الحب على الدوام، واحد ينتهي به الأمر بأن يجعل الآخر يتعذب، وإنه في بعض الأحيان، وفي حالات نادرة، يمكن أن ينقلب هذا الوضع. ولكن، هنا، الآن، وبهذه السرعة، أن تجعله، هي يتعذب، في حين أنه آنذاك بالضبط، قد اعترف لنفسه بأنه يحبها، بينما هي لا تزال تجهل هذا، فبدا له ذلك، بشكل مفاجئ أنه ظلم ومخيب للأمل، في الوقت نفسه الذي أخذ فيه، يتحقق خلال ثانية واحدة، بفضل ذلك الجرح، من حقيقة حبه.

وسأل بصوت مرح:

- ما الذي حصل؟

- الذي حصل أن الجو حار جداً، وقد هبت عاصفة قوية «منذ الصباح وإن.. وإني أشعر بخوف شديد من العواصف. وقالت في الحال: لا تضحك، فأنا لا أستطيع أن أعمل أي شيء حيال ذلك.

ولكنه ظل يضحك، مرتاحاً ومندهشاً، في آن معاً. كانت تلك هي الإشارة الأولى، بل الدليل الأول على الطفولة. الذي

أعطته إياه. وكان تصرفها الذي يتسم بالحماسة والاندفاع وحتى بالطيش، كان يبدو له حتى ذلك الحين، أقرب إلى حالة المراهقة، منه إلى حالة البورجوازية، والطفولة التي تخاف من أي شيء.

وقال:

- لقد اشتريت لك هدية.

- لكم أنت لطيف.. اسمع يا «جيل»، دعنا ننهي المكالمة، وأنا أهم بإعادة السماعة إلى مكانها. إذ أن الإمساك بجهاز كهربائي، أثناء هبوب العواصف، يشكل خطورة شديدة. اتصل بي غداً.

فقال:

- ولكن الهاتف ليس به شيء كهربائي. إنه..

- فقالت بصوت وحشي، شوهه الخوف:

- أتوسل إليك أن تعذرني. أقبلك.

ووضعت السماعة، وبقي يقف منذهلاً، السماعة بيده، وهو يحاول أن يضحك. ويحاول أن يقول في سره، أنه، أثناء العاصفة التي ستهب قريباً على «ليموج» سيمارس معها الحب، ليرى أيهما سيفوز وينتصر، الخوف أم الحب. ولكنه كان يشعر أنه حزين، مهمل ومهجور، وكانت أشعة الشمس تنحني وتنزل إلى الشوارع، وأخذت هديته تبدو له، آنذاك، أكثر سخافة وإثارة للضحك، منها إلى التعبير عن العطف والمحبة. كان يريد أن يراها في الحال. وهنالك بالتأكيد، الطيران الداخلي الشهير، الذي يستطيع في أسوأ الأحوال، أن يستقل

إحدى طائراته، فيما إذا شعر أنه منزعج أكثر مما ينبغي. فاتصل بمطار «أورلي»: ليس هنالك طائرة قبل اليوم التالي. والقطار كان قد انطلق. وسيارته «السيمكا» باعها، وليس معه فرنك واحد. وكان لديه موعد في اليوم التالي مع المدير الإداري في الجريدة، من أجل مناقشة موضوع راتبه الجديد، وكان عليه أن يتكلم مع «ايلوييز» وبدت له الحياة جحيماً لا يطاق. علماً بأنه كان سعيداً أكثر مما ينبغي طيلة النهار، وكان ينبغي عليه أن يرتاب وأن يكون حذراً. وفكرة كونه وصل إلى هنا، وأدى به الأمر إلى التفكير بأن «لكل شيء ثمنه الذي يجب أن يدفع» ملأته بالقرف من نفسه. آه، كلا، فهو لم يكن قد شفي بعد! وهو مريض بشكل مزدوج، يعاني من مرضين، لأنه محبط، وتحت رحمة امرأة مجهولة. وهذه المرأة المجهولة تقول إنها تحبه، وهي عند أقل عاصفة، تنهي المكالمة وتغلق الهاتف في وجهه. وكان «يجتر» غضبه تحت نظر صاحبة المقهى، التي بدت متعاطفة معه، وشعر أخيراً، بنظراتها المتجهة نحوه، فحاول أن يبتسم وقال:

- الطقس جميل، بشكل مدهش.

فقالت المرأة بلطف ومودة:

- إنه حار بعض الشيء، بل ربما أكثر مما ينبغي، وسوف تهب العواصف.

فسألها، في الحال:

- وهل تخيفك، أنت، العاصفة؟

فقهقهت ضاحكة:

- العاصفة؟ لا بد أنك تمزج وتريد أن تضحك. نحن، الضرائب هي التي تخيفنا.

وهمت بأن تتوسع في شرح وبسط هذا الموضوع ولكنها، حيال ذهول «جيل» مدفوعة بطيبة قلب غريزية، وبخاصية التكهن المدهشة التي تتمتع بها السيدات اللواتي يدرن المقاهي غالباً وفي معظم الأحيان، لكثرة ما يتصفحن بنظراتهن وجوه أشخاص يعيشون لوحدهم منفردين، سعداء أو تعساء، أضافت:

- لاحظ، ابنة أختي، وهي من منطقة «مورفان»، حيث تهب عواصف مخيفة، فهي لم تستطع أبداً أن تألفها. ويمكن أن تكون منهمكة بتناول عشائها، فعندما يدوي الرعد، تسرع فتختبئ تحت سريرها. إنها الأعصاب.

فقال «جيل» مسروراً:

- نعم، إنها «الأعصاب»، وهو يفكر بأن «ناتاليا» كانت قد اهتمت، حتى آنذاك، بأعصابه هو، أكثر بكثير من اهتمامها بأعصابها هي، وإنه ربما كان صحيحاً أن الانعكاس قد حصل، وتابع معها حديثاً مطولاً، قدم لها ولنفسه بعض أقداح الخمر، من نوع «البورتو» وهو نوع كان يكرهه عادة، ولكنه كان يذكره بالشراب «المزيج»: (الكوكتيل) الذي كان يقدمه له صهره «فلوران». وخرج من ذلك المقهى وهو ثمل وأكثر تفاؤلاً، وكان عليه، آنذاك أن يتحدث إلى «ايلوييز». وغداً سيمر على مقر الصحيفة، ويحاول أن يستلف بعض النقود، ومساء الغد، وفي وقت متأخر، يستطيع أن يسافر من جديد. وقد أخذ، منذ ذلك الحين،

يتخيل المائة كيلومتر التي سيقطعها، بالسيارة مع «ناتاليا»، تلك المائة كيلومتر التي يقطعانها مسرورين، أثناء الليل، هذه المائة كيلومتر التي تتخللها كلمات الحب. لماذا حدثها عن أسبوع أو أسبوعين من الفراق؟ بدافع الدفاع، دون شك، لكي يطمئن وهو يؤكد لنفسه، عندما يؤكد لها ويطمئنها بأن ثمانية أيام بدونها، كانت ممكنة، ويمكن احتمالها، ولكي يؤكد لنفسه أيضاً أن باريس موجودة، والطموح والأصدقاء فكرة خاطئة ومزيفة تماماً ومن جهة أخرى لأن كل ذلك قد أصبح خيالياً وهمياً وغير واقعي، منذ يومين، بحيث أنه لم يكن يرى شيئاً ولا يحس بشيء، وأن تلال وروابي مقاطعة «الليموزين» ووجه «ناتاليا» كان هذا وحده هو الذي يعيش في داخله، ويشغل باله. ولكنها ماذا ستظن، عندما تراه وقد عاد بهذه السرعة؟ وتعرف أنه أصبح مجذوباً إليها ومرتبطاً بها؟ الن تحصل من ذلك على تلك الثقة الحتمية المشوبة بالشؤم وبالملل، التي يشعر بها المرء حيال أحد ما، يكون واثقاً منه أكثر مما ينبغي؟ أم أنها ستجن من الفرح؟ وأخذ يتذكر على التوالي، عينيها الطافحتين بالدموع في المحطة، وصوتها الجاف، في الهاتف، قبل قليل، وخلص من ذلك إلى كونه حيال امرأتين مختلفتين، وبمضاعفتها وجعلها متعددة وبتعقيدها، وبخلط وتشويش «ناتاليا»، يتيح لنفسه بذلك، دون قصد وتعمد، إمكانية الحصول على حب عظيم.

كانت «ايلوييز» تتابع برامج التلفاز، عندما عاد إلى المنزل، ولكنها نهضت وقفزت مسرعة فضمته وأحاطت عنقه بذارعيها.

فتذكر مشهداً مماثلاً لهذا، حصل منذ زمن طويل، وبكثير من الدهشة، تبين له أن ذلك الزمن لا يكاد يبلغ الشهر الواحد. وكان يبدو له أن أموراً كثيرة قد حصلت منذ ذلك الحين.. ولكن ما الذي حدث أساساً؟ لقد أمضى خمسة عشر يوماً، بدت طويلة، لا نهاية لها، وهو يعاني خلالها من ملل مزعج، في منزل شقيقته، ثم مارس الحب، بعد ذلك خلال عشرة أيام، بعد الظهر، مع إحدى النساء. وذلك يمكن أن يلخص ويوجز بهذا الشكل، إذا رغب بذلك، ولكنه لم يعد يرغب به.

وهذا كل ما هنالك؟

- إذن، لقد سارت الأمور على ما يرام؟ وهل قابلت «فيرمون»؟

فقال:

- نعم، لقد قابلته، واتفقنا.

لم يكن لديه رغبة بأن يشرح لها كل شيء، ويروي لها قصة «غارنييه». لم تكن لديه رغبة بأن يتحدث عن ذلك إلا إلى «ناتاليا». وربما كان الحب يمكن أن يلخص هكذا، في بعض الأحيان: الرغبة بعدم رواية أي شيء إلا لشخص واحد. وتمتم:

- أليس لديك أي مشروب، نبيذ «بورتو» مثلاً؟

وفي الحال ندم على كلماته التي تفوه بها: فقد تصرف كزائر.

- نبيذ «بورتو»، ولكنك كنت، على الدوام، تكره هذا النبيذ...

فقال وهو يتنحنح ليجلو صوته:

- لقد احتسيت منه ثلاثة كؤوس، ولا أحب أن أغير وأحتسي شراباً آخر. وأنا بحاجة لاحتساء كأس.

فها هو قد وضع تمهيداً للحديث: فهي ستقول: «ولماذا، أنت بحاجة لاحتساء كأس»؟ فيجيبها: «لأني يجب أن أتحدث إليك». ولكنها كانت في منأى عن كل ذلك، وصاحت:

- لقد فهمت عليك، فيا له من نهار صعب أمضيته يا حبيبي المسكين.. سأذهب بسرعة إلى البقالية، وهي هنا قريبة، ولن يستغرق ذلك سوى دقيقة.

فقال آسفاً:

- الأمر لا يستحق هذا العناء!

ولكنها كانت قد صفقت الباب وراءها. فذهب إلى النافذة، ورآها تعبر الشارع، بخطوات عارضة الأزياء، الراقصة، ثم تدخل إلى البقالية، وألقى نظرة شاملة حوله: كان هنالك سجائره المفضلة على الطاولة المستديرة، صحيفته المسائية مطوية جيداً، وزهور يانعة موضوعة في إناء، وكان يعرف، دون أن ينظر إليهما، أن قميصه الأبيض، وبزته الرمادية الخفيفة، موضوعان على السرير القريب منه. وحتى الدب، الدب البشع والمخيف، الذي لم يعجبه، كان قد اختفى. ولا بد من أنها كانت قد عزت صمته بشأنه، إلى لطفه ورقته، والحال هي أن ذلك يعود بالحقيقة إلى لا مبالاته التامة، وإلى عدم اكتراثه بأي شيء. وهو، من جهته، كشاب وقح وجميل، لا مبالٍ وثمل، فقد مارس معها الحب. كان يكره نفسه. كل هذا أيضاً سوف يرويه «لناتاليا»، ولن يخفي

عنها شيئاً. وأخذ يفخر ويزدهي، منذ ذلك الحين، ومسبقاً بصدقه الذي سيمارسه مستقبلاً، وبمذلته، وكان يتساءل أي قدر سيدخل في هذا الاعتراف من الرغبة في تقليل خجله، بقيامه بهذا الاعتراف وأن يعطي بذلك مزيداً من القيمة وثمناً أعلى، بنظر «ناتاليا» لقطيعته.

وهكذا، فقد احتسى بكآبة ودون أي متعة، كأساً من خمر «البورتو»، وقرر أن يتحدث إلى «ايلوييز» بعد أن تنتهي نشرة الأخبار المصورة، التي يبثها التلفاز. ولكنها كانت تتحرق شوقاً لكي تتابع، بعد ذلك، مسلسلاً، كانت مولعة به، كما كانت مولعة به أيضاً أخته «أوديل» وتتابعانه، منذ شهر تقريباً، وهكذا، فقد حصل، على كره منه، على خمسين دقيقة من الراحة وهي مهلة، لم يكن من شأنها سوى أنها زادت من غيظه ومن قلقه.

كان يشعر برغبة قوية بأن يصطحبها إلى خارج المنزل، إلى النادي مثلاً، وأن يشرح لها هناك كل شيء، بين الناس وعبر أنغام الموسيقا، لأن ذلك يمكن أن يجعل وقع حديثه إليها أقل قسوة. ولكنه سيبدو مفتقراً تماماً للباقة والذوق السليم.

وسألته وهي تطفئ التلفاز:

- ألست جائعاً؟

- كلا، يا «ايلوييز»... كنت أريد أن أقول لك... إني... إني التقيت بامرأة أخرى في الريف، وإني..

كان يغمغم ويتلعثم بشكل فظيع. فتجمدت «ايلوييز» في مكانها، شاحبة الوجه، وأخذت تنظر إليه.

فأضاف، فجأة وعلى عجل:

- لقد ساعدتني كثيراً، والحقيقة إني بفضلها استطعت الوقوف على قدمي. وأنا أطلب منك الصفح عن ذلك، وعما حدث مساء البارحة، فما كان ينبغي لي أن...

فجلست «ايلوبيز» متمهلة. ولم تقل شيئاً.

- وأنا سأسافر ثانية إلى هناك. ومن المؤكد أنك تستطيعين البقاء هنا في المنزل بقدر ما تريدين.. وأنت تعرفين جيداً أننا، أنت وأنا، أصدقاء، مدى الحياة...

وتبادر إلى ذهنه: «لا يمكن أن يكون أحد أكثر بلاهة وحمقاً مما بي أنا، فهذه هي القطيعة في كامل شكلياتها وبكل قسوتها، ولكن، ليس لدي شيء آخر، أقوله».

وكان يشعر أنه قد تجمد.

فسألته «ايلوبيز»:

- وهل تحبها؟

كان يبدو عليها الشك، وأنها لن تصدق ما سيقوله.

- نعم، على الأقل، فإني أعتقد ذلك.

وأضاف بسرعة: وهي تحبني.

- إذن لماذا.. لماذا، مساء البارحة...؟

كانت تردد سؤالها، حتى دون أن تنظر إليه. ولم تكن تبكي. وكانت تحدق بجهاز التلفاز، كما لو أن فيلماً غير منظور يعرض خصيصاً لها وحدها.

وقال:

- أنا... كانت لدي رغبة بك، على ما أعتقد، وأنا أفترض أني قد اشتهيتك، وأطلب منك الصفح عن ذلك. وكان يجب علي أن أروي لك كل الشيء، في الحال.

فقالت:

- نعم، كان عليك أن تفعل ذلك.

وصمتت، وهذا الصمت أصبح ثقيلاً، لا يحتمل ولا يطاق: فلتصرخ، فلتلق بعض الأسئلة، فلتعمل أي شيء مبالغ فيه، يتجاوز الحد، يتيح له، هو، أن يتنفس! ومر بيده على شعره. كان يبلله العرق. ولكنها ظلت صامتة، ولم تنطق بأي كلمة. فنهض ومشى ثلاث خطوات في الغرفة:

- أتريدين أن تشربي شيئاً؟

فرفعت رأسها. كانت تبكي. فبدرت منه حركة نحوها، بصورة غريزية وعفوية، ولكنها ارتدت إلى الوراء، وقد وضعت يدها أمام عينيها، وقالت:

- اذهب من هنا، أرجوك يا «جيل» اذهب، انصرف في الحال...

- سأسافر غداً.

- كلا، أرجوك، هيا، انصرف الآن!

- فنزل مسرعاً ومتدهوراً على الدرج، ركض في الشارع وقلبه يخفق بقوة، واستند وهو يلهث، على إحدى الأشجار، وأحاطها بذراعيه. كان «ميتاً - حياً» من شدة الخجل والحزن.

قال «غارنييه»:

- أنا مسرور، لكونك أنت الذي حصلت على المنصب. كانا في مشرب (بار) فندق «بون رويال» (L, HOTEL PONT ROYAL) وهو يقع في قبو أرضي، لا تتغير فيه الأضواء أبداً لا في الشتاء ولا في الصيف. كان «جيل» قد نام تلك الليلة في الفندق، ذقنه سيئة المنظر، لأنه لم يحلقها، وقميصه وسخ، وقد داهمته الكوابيس تلك الليلة، فلم يكن مرتاحاً في نومه. وبشكل غريب، يلفت النظر كان «غارنييه» وهو القوي، الطويل القامة، رمادي العينين، أشهب الشعر، على وجهه مسحة من العذوبة المحببة، بدا أكثر ارتياحاً منه.

وقال «جيل»:

- هذا... هذا المنصب كان يخصك، ولا أحب أن أنتزعه منك.

- أنت لا تنتزعه مني، ولست أنت الذي تفعل ذلك: «فيرمون» لا يحب أخلاقي السيئة، وهذا كل ما في الأمر.

وأخذ يضحك، بينما احمر وجه «جيل».

واستأنف «غارنييه» الحديث قائلاً:

- تأمل، ليس الأمر شديد الخطورة. «فليفقد المرء كل شيء ما عدا الاستقامة والشرف». فأنا بالحقيقة أحب ذلك الفتى. وقد قال لي إنه في التاسعة عشرة من العمر، بدلاً من السابعة عشرة، وعندما اعتقل، قال في النهاية كيف يعيش ومن أين يكسب معيشته، أو بالأحرى ممن يكسبها، فكل هذا عادي وطبيعي، وكان بإمكاني أن أنكر بسهولة كل شيء. فليس لديهم أي أدلة ضدي. ولكني بذلك أكون قد فقدت استقامتي وشرفي بإنكاري

ونفي علاقتي به، وإنقاذ سمعتي. وهذا أمر مضحك، أليس كذلك؟

فسأله «جيل»:

- وماذا ستفعل؟

- سيخرج بعد ستة أشهر، ويكون قد بلغ الثامنة عشرة من العمر، وسيكون حراً بأن يعود إلي أو لا يعود.

كان «جيل» ينظر إليه، ويتأمله بإعجاب، وقال له:

- ولكنه إذا لم يعد إليك، تكون خسرت كل شيء من أجل لا شيء...

فقال «غارنييه» بعذوبة وهدوء:

- لم يسبق لي أبداً أن خسرت شيئاً مما أكون قد أعطيته، إن ما تسرقه من الناس هو الذي يكلفك غالياً، يا صديقي الطيب، تذكر هذا جيداً...

وقهقه ضاحكاً:

... لا بد أني أبدو لك، كلوطي، أخلاقياً تماماً. ولكن، صدقني: في اليوم الذي تشعر فيه بالخجل مما تحب، تكون قد انتهيت وقضي عليك. انتهيت وهلكت، بالنسبة لنفسك أنت. والآن لنتحدث في شؤون العمل.

وأعطى عدة نصائح الى «جيل» الذي كان لا يصغي إليه تماماً. فقد كان يفكر بما سرقه من «ايلوييز»، ويفكر بأنه لن يخجل أبداً من «ناتاليا»، ويفكر بأنه سيحبها بكثير من المودة والعطف والشرف يقدر ما أحب «غارنييه» شابه الصغير. وسيقول لها كل

هذا، وسوف يحدثها عن «غارنييه»، وكان يتلهف شوقاً لرؤيتها من جديد. وبعد نصف ساعة، سيمر على مقر الصحيفة، ويسوي بسرعة مسألة النقود، بتناول طعام الغداء مع «جان»، ويعهد إليه برعاية «ايلوييز»، يرتب أمتعته في حقيبته، ويقفز إلى القطار، في الساعة الخامسة.

وسيتصل بـ «ليموج» من هذا المكان نفسه.

وبدا له صوت «ناتاليا» مرحاً، حنوناً، فشرع بسعادة عذبة تغمره، فقد قالت له، في الحال:

- أنا آسفة جداً، من أجل البارحة، فقد كنت بالحقيقة خائفة جداً، وهذه حالة عصبية.

فقال لها:

- أعرف ذلك: «ناتاليا» ما قولك، لوعدت هذا المساء؟

فخيم صمت قصير، ثم قالت:

- هذا المساء؟ كلا، يا «جيل»، هذا يكون أجمل مما ينبغي، وهل بإمكانك أن تفعل ذلك؟

- نعم، لقد مللت من هذه المدينة.

وأضاف، بشيء من التروي والاعتدال!!

وقد اشتقت إليك، سأستقل القطار، هل تأتين إلى «فرزون» لتوصليني إلى بيت أختي؟

فقال، مرتبكة وحائرة:

- يا إلهي، إننا مدعوون للعشاء عند «آل كوديرك»، فماذا أستطيع أن أفعل؟

والانزعاج الحقيقي الذي عبرت عنه نبرات صوتها، وأسى «جيل» وعزاه. فتظاهر بأنه رجل قوي:

- سأذهب إلى «ليموج»، واستقل سيارة أجرة، وسأراك غداً، أتستطيعين تناول طعام الغداء معي؟

أليس لديك اجتماع في هيئة الصليب الأحمر؟

فقالت:

- أوه! يا «جيل»، «جيل»، أتدري؟: أن أتغدى معك غداً... فيا لها من سعادة!... فأنا أشعر بسأم مخيف.

- أتأتين لاصطحابي من بيت أختي، عند الظهر؟ أيمكنك أن تخبريها بأني قادم؟

وشعر فجأة، بأنه منتظم، حازم، ويتمتع بالرجولة. ويتخلص من تلك الفوضى المشوشة التي تمثلها باريس، ويعود ليحيى من جديد.

فأجابته:

- سأمر عليها، في الحال، وغداً عند الظهر، سأكون هناك.

أكل شيء على ما يرام، بالنسبة لك؟

- واجهت بعض التعقيدات، بل وكثيراً من الصعوبات، ولكني..

وأنهى، بلهجة حاسمة: سويت كل شيء.

وفكر فجأة: «لقد بالغت كثيراً فيما قلت، فقد قبلت منصب شخص آخر، وجعلت إحدى النساء تبكي، وتذرف الدموع». ولكنه لم يكن يستطيع أن يمنع تلك الغبطة من أن تغمره، وذلك

الشعور الطيب والوعي القاسي، اللذان لا يعوضان، واللذان تتيحهما السعادة.

وقالت، أخيراً:

- إلى اللقاء غداً، إني أحبك.

ولم يتح له الوقت لتنفيذ الإغراء الذي ساوره ليقول لها: «وأنا أيضاً، أحبك». كانت قد وضعت السماعة في مكانها.

الجزء الرابع

الموج

١

لم ينته ذلك القطار من اجتياز فرنسا. كان هنالك أولاً، عند مغادرته المحطة، تلك الضواحي المتطاولة والمنتشرة، التي كان ضياء الشمس، قبل حلول ظلام الليل يجعلها تبدو شاعرية، تقريباً. ثم كانت هنالك البراري، الأولى، قبل الوصول إلى نهر «اللوار». كل تلك الحشائش والأعشاب الخضراء والبراقة، التي تحيط بها ظلال الأشجار المتطاولة كثيراً وبشكل عصي على القياس. ثم بدا نهر «اللوار» نفسه، الذي أصبحت مياهه داكنة. وبعد ذلك، خيم الظلام، فحول «جيل» وجهه عن النافذة، وأخذ ينظر إلى وجوه رفاقه في رحلته، فبدت له تلك الوجوه وديعة وهادئة. كان بخير، يشعر بالارتياح في ذلك القطار: فهو يسير بشكل لا مرد له، متجهاً نحو منزل أخته، أي نحو «ناتاليا»، نحو السكينة والهدوء والحب، في آن معاً، وكان يخيل له، أن هذه

هي المرة الأولى في حياته، التي يحظى فيها بتوافق هذه الظروف وتلاقيها في آن معاً، لصالحه.

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة، عندما نزل من القطار في «ليموج». كان الظلام حالكاً، فوقف منذهلاً، حائراً، عندما اندفعت «ناتاليا» فجأة مسرعة نحوه وألقت بنفسها عليه. فترك حقيبته وضمها بين ذراعيه، دون أن ينبس ببنت شفة، منذهلاً، وقد غمرته السعادة. وظلا هكذا في عناق شيق، دقيقة طويلة، على ذلك الرصيف في المحطة، ملتصقين، بل متعلقين، أحدهما بالآخر يهتزان ويترنحان، غير مباليين أبداً بالنظرات التي تتجه نحوهما وتطيل التوقف عليهما. وأخيراً، انفصل عنها، وأخذ يتأملها لم يكن يتذكر أن عينيها واسعتان إلى تلك الدرجة، ومتباعدتان إلى ذلك الحد.

- ماذا عملت، وكيف تصرفت، حتى استطعت الحضور؟

فقالت:

- لقد هربت، لم أكن أطيق الصبر. وذلك العشاء كان بمثابة كابوس، بالنسبة لي: فعند تناول الحساء، كنت أخمن، بل وأعرف أنك وصلت إلى «أورليان» وعند تناول السمك قدرت أنك قد تجاوزت «شاتورو» وكنت أعتقد أنه سيغمى علي. قبلني يا «جيل». يجب ألا تسافر أبداً بعد الآن. فقبلها، وعبر الباب معها، وأخذ يبحث عن سيارتها، فوجدها وألقى حقيبته فيها، وألقى بنفسه، بعد ذلك فيها. وضم «ناتاليا» بين ذراعيه.

فقالت له:

- لقد ازددت نحولاً. هل عرفتني وتبينتي جيداً؟

فقال لها:

- لقد مرت ثلاثة أيام، على سفري.

- أخذوا يلعبون لعبة «البريدج» بعد الانتهاء من تناول طعام العشاء. فقلت بأني لست على ما يرام، وأني متوعكة بعض الشيء، ولذلك سأعود إلى المنزل. وخفت أن يفوتني وصول القطار. وكدت أسحق بسيارتي كل «ليموج».

كان يقبلها، شاعراً بأنه سعيد جداً، مرتاح وخالي البال تماماً. ولم يعد لديه ما يقوله، ومع ذلك فهو يتذكر أن لديه خبراً هاماً، يجب أن يبلغها إياه: وهو أنه يحبها. وإنه قد أدرك ذلك أخيراً، ولكن ذلك لم يعد يبدو له أبداً بالأهمية نفسها، التي كان يراه بها، عندما كان في باريس وأنه لم يعد يتمتع بالإثارة نفسها. ومع ذلك، فإنه بدافع من الوفاء للشاب المنبهر بنفسه، الذي عاشه، بل تقمصه وكأنه هو، طيلة نهار بكامله، في باريس، فقد بذل جهداً، وقال بصوت ينم عن الثقة بدا له في الحال، غريباً ومضحكاً، في أذنيه، هو:

- أتدرين يا «ناتاليا»، أتدرين أني أحبك.

فقهقهت ضاحكة، وقالت، دون أن يبدو عليها أي أثر للدهشة، أو أي دليل على أنها قد فوجئت بما قاله لها:

- إني آمل ذلك تماماً، لم يعد ينقصني سوى أن تكون لا تحبني.

فأخذ يضحك، بدوره، كانت مصيبة وعلى حق. وكان هو من جهته أحمقاً ومغفلاً. فهذه البديهيات، ليست بحاجة للتفوه بها والتحدث عنها. وقد سبق لها أن قالت له، من اليوم الأول أنها

أحبته، وقد انتظرت بكل طمأنينة، متوقعة منه أن يحبها هو أيضاً بدوره. لقد كانت امرأة قوية، أو بالأحرى امرأة جوانب ضعفها تتمتع بقوة كبيرة، لدرجة أنها تشعر بأنها لا يمكن مقاومتها. نعم، لقد فاته الوقوع تحت تأثيرها وكان سعيداً جداً لكونه قد فاته ذلك.

وقالت:

- ألا تروي شيئاً؟

فقال:

- ليس لدي ما أرويه، أنا بخير. والطبيعة في الريف، كانت جميلة جداً، في تلك الأمسية، التي أمضيتها في القطار.

- يا لها من حكاية غريبة ومضحكة...

فقال لها:

- قبليني، سأروي لك كل شيء، غداً. سنذهب إلى ضفة النهر، ألا زلت عازمة على تناول طعام الغداء معي؟

- نعم، ولكن يجب أن أعود إلى المنزل، لأن «فرانسوا» ربما يكون هناك الآن، وما كان ينبغي لي أن أحضر، وأضافت بصوت خافت: «إنه لأمر مزعج، أن أفارقك الآن».

كانت السيارة تسير بهما في «اليموج»، وكانت «ناتاليا» تقودها بهدوء، وهواء المساء البارد، ينساب من النافذة. وكان يمسك يدها، دون أن يفكر بشيء، وكان يعرف بشكل غامض ومبهم أن هذا الغياب التام للأفكار، يسمى السعادة. وفارقته عندما استقل سيارة أجرة، وقطع مسافة ثلاثين كيلومتراً وهو في الحالة نفسها من

الخدر والنوم قبل أن يصل إلى المنزل القديم، ويوقظ «أوديل» و «فلوران» ويبدو فجأة وقد ارتفعت معنوياته تماماً، فأخذ يروي لهما، بينما كانا غافيين تماماً، حكاية إقامته، وهي حكاية طويلة، تبدو وكأنها لا يمكن أن تنتهي، وهي معقدة غريبة ومضحكة في آن معاً، كان قد حضرها في القطار خلال عدة ساعات، لكي يرويها لنتاليا.

كان متمدداً على ضفة النهر، بجانب «ناتاليا»، والجو حار، وكانت أجفانهما ترف تحت أشعة الشمس الأخيرة. وادعت «ناتاليا» بأن جسميهما سيكتسبان اللون البرونزي، فأخذ يهزأ بها قائلاً، إن الشمس لا تلوح الأجسام وتكسبها اللون البرونزي إلا على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، وأنهما، بالكاد، يمكن أن تصفر بشرتهما، عند انتهاء فصل الصيف. وكان مسروراً في الوقت نفسه، بالبقاء هكذا، قميصه مفتوح قليلاً، وخده يستند على العشب البارد والغض. وكل ما كان، مع ذلك، قد أحبه لدرجة الجنون فيما مضى، أشعة الشمس المنصبة على تلك الشواطئ الرملية: (البلاجات) المحرقة، وتلك الأجسام التي تكاد تبدو عارية، وغالباً ما تكون سهلة المنال، كان يوحي له، آنذاك، وفي الوقت الراهن بنوع من الرعب والاشمئزاز. فهو بحاجة لهذا المكان المزدان بالمناظر الطبيعية الجميلة، ولهذه المرأة الصعبة المراس. لأنها ناقمة عليه، وهو يشعر تماماً بذلك. والقصة التي رواها لها عن فترة إقامته في باريس، لم توقظ لديها سوى إحساسين: شفقة شديدة على «ايلوييز» واهتمام يتسم بالإعجاب بـ «غارنييه». ولا شيء

بالنسبة له. ولم يبدر منها أي ظل لمنعكس ينم عن الغيرة، حيال الاعتراف بليلته التي أمضاها مع «ايلوييز» ولا أي ظل للعطف عليه بسبب غيظه حيال «فيرمون». وكانت ترى أن كل ذلك «مؤسف»، حسب تعبيرها. وإذا كان هدفه بالفعل هو أن يجعلها تأسف وتتكدر، فقد كان هو، من جهته يأمل منها أن تواسيه، لا أن تقيمه وتحكم عليه. والحال هي أنها، كما بدا واضحاً، كانت تقيمه، وقيمته على أنه ضعيف.

وقال، منزعجاً، لا مبالياً ومسترخياً، في آن معاً (لأنهما كانا قد أمضيا طيلة فترة بعد الظهر في غرفته):

- ولكن أخيراً، ماذا تريدين أن أفعل؟ أن أبقى مع «ايلوييز»؟ أن أترك عملي في الصحيفة؟

- لا أدري، فأنا لا أحب هذا النوع من الأوضاع. ولدي انطباع بأنك تقضي حياتك فيها. بشكل خاطئ وخلافاً للحق وللمنطق. دون معرفة ذلك بشكل حقيقي، مع شعورك أنك مذنب بعض الشيء وأنك مسرور وتجد متعة في ذلك.

فقال، ضاحكاً:

- فاسد، عجباً!

- ربما كان الأمر كذلك، نعم.

ولم تكن تضحك، فانقلب مستلقياً على بطنه، وضمها بين ذراعيه. كانت تشعر أن العشب حار، وأخذت تحدق به، وقد اتسعت حدقتا عينيها، وكأنما كانتا تعبران تقريباً عن الخوف. ولكنه لم يكن يرى ما تعبر عنه عيناها، ولم يكن يرى سوى الدائرة الزرقاء

تحت كل منهما ، والتي كان هو مسؤولاً عنها. فابتسم وأخذ يقبل تلك الدائرتين، ويضحك:

- أنت، يمكن أن تحبي رجلاً فاسداً؟

- لا يختار الإنسان من الذي عليه أن يحبه. فقال:

- بالنسبة لامرأة مثقفة، ألا تخافين من الأفكار العامة، والشائعة. فأجابته بصوت منخفض:

- إني أخاف كثيراً منها ، فهي دائماً صحيحة وصريحة وتكشف الحقائق.

ونظر إليها ، فرأى أنها خائفة حقاً ، وشاطرها خوفها ، خلال لحظة. فأين سيذهبان سوية؟ وماذا لو احتقرته، ذات يوم؟ وماذا لو كان يستحق حقاً الاحتقار؟ وأنها لم تعد تستطيع أن تحبه؟ فدفن رأسه بين الحشائش والأعشاب، وتمتم متأوهاً: لم يكن هنالك راحة، ولم يكن هنالك هدوء أو سلام. كان يحب هذه المرأة، وقد قال لها ذلك، وهي تخاف منه.

وتمتم:

- إذا كنت تخافين مني، فيجب أن تذهبي وتهجريني.

وشعر بخدها على عنقه من الخلف (نقرته)، وبشفتيها أيضاً.

فقالت:

- إني لا أستطيع ذلك، وحتى لو استطعت، فإني لن أفعله ولن أقوم به.

- ولماذا؟

فقالت بكل هدوء واطمئنان:

- لقد عشت حياة «محمية» جداً، أي مراقبة وموجهة، عذبة وهادئة جداً ومملة جداً. وكنت أتخيل أن شيئاً ما مثلك، ينبغي أن يحصل معي.

- وتفكرين بذلك كفرصة، وضربة حظ أم ككارثة؟

فقالت:

- حالياً، اعتبرها كفرصة وضربة حظ.

وظلا ساكنين على الحشائش والأعشاب، لا تبدر منهما أي حركة، هي مستلقية قليلاً عليه، وقد وضعت رأسها على ظهره. وكان يشعر بقشة من العشب توخزه في جبهته، وقد غمرته سكينة تامة، واستولى عليه نوع من الخدر والفتور. ودهش، بل وفوجئ تقريباً، وهو يسمع نفسه يتكلم، ويقول:

- وماذا سنعمل بالنسبة لفرانسوا؟

فانفصلت عنه وانقلبت على ظهرها. كان قد حول رأسه نحوها، بحيث يراها من جانب واحد ويرى عينيها المثبتتين على السماء، بكل هدوء واطمئنان.

فقالت:

- لا أدري، سيكون علي أن أهجره وأغادر المنزل. فاعترته انتفاضة خفيفة. فقد كان، بصورة لا شعورية قد ألف واعتاد على «فرانسوا» ذلك «الشبحي»، الذي قلما كان مزعجاً.

وكان يعرف أنها لم تعد تنام معه. كانت قد قالت له ذلك، وكانت معرفته بحسها بالمطلق أقوى من أن تجعله يشك بذلك. ولكن هذا الحس بالمطلق نفسه كان له عواقب ونتائج أخرى.

- وماذا تنوين أن تفعلي؟

فأدارت رأسها نحوه، وابتسمت:

- ربما سأتبعك، طيلة الوقت الذي تحبني خلاله، وبعد ذلك، سوف أرى.

كانت على حق، ومحقة تماماً فيما تقول:

فهما يحبان بعضهما، ويجب أن يعيشا سوية. وكان يكسب عن سعة ما يستطيع أن ينفق منه على امرأة. وماذا كانت تلك الحرية التي تعصف به، وتلك الوحدة؟ هاتان الكاهنتان غير المفرحتين اللتان أدتا به مباشرة إلى الانهيار العصبي. لقد كان يستطيع تماماً أن يلقي بهما في الأماكن التي ينبت فيها «القريص» والنباتات الأخرى الكثيرة الأشواك.. ولكنه كان خائفاً، فمدت يدها ولامست شعره:

- لا تقلق، يا «جيل»، فأنا لن أفارقه قبل الصيف، بل آخر الصيف. ولن أتبعك إلا إذا توسلت إلي أن أفعل ذلك.

فانتفض، فجأة وهو يشعر بالغيظ، لكونه قد اكتشف. وبدا غاضباً لأنها اكتشفت ما يجول في خاطره، ولوجود شيء لديه شبيه بذلك، يمكن أن يكتشف.

- ولكني لست قلقاً، وأنا أريدك، وأريد منك أن تتبعيني وأن نسافر في الحال. وإذا تحدثت معه مساء اليوم، فإننا نسافر غداً.

وأخذ يفكر، في الوقت نفسه: «وإلى أين؟ وكيف؟ ولم يبق معي سوى ثلاثة فرنكات. ولن نستطيع البقاء هنا، بعد الفضيحة التي ستحصل. وماذا سنعمل حتى أيلول (سبتمبر»)؟ ولكنها كانت تبتسم، وهذه الابتسامة كانت تغيظه:

- أريد أن تتبعيني.

كان يصرخ تقريباً.

فقالت، بهدوء:

- سأفعل ذلك، ولكن إذا رجوتني وتوسلت إلي وليس إذا أمرتني أن أفعل ذلك. لا تصرخ هكذا، فقد احمر وجهك كثيراً، ألسنا بخير ومرتاحين هنا، أين تريد أن تذهب؟

فبدأ يتحدث بشهامة، وقال:

- إني لا أحب الأوضاع والمواقف الزائفة...

ولكنها نظرت إليه بطريقة جعلته يتوقف عن الكلام، ويتردد:

فقهقهت ضاحكة، وأخذ يضحك، هو أيضاً، وعاد فارتمى عليها واختلط شعره بشعرها، وأخذ يقبلها كيفما اتفق، ويقول:

«أوه! «ناتاليا»، يا «ناتاليا»، أنت تعرفينني جيداً...

أوه، أنا أحبك، أنت». فأخذت تضحك حتى سالت دموعها، وهي بين ذراعيه، وعيناها متألقتان، دون أن تستطيع الكف عن الضحك.

٢

إنـه لأمـر غريـب ولافـت للنظـر، كـم تـصبح الأوضـاع الـتي «يحسمها» ويبت بها - الآخر - مريحـة بالنسبة لنـا. فحالما اتخـذت «ناتاليا» القرار بهجر زوجها ومغادرة منزله، لم يعد «جيل» يشعر بـأي ضيق أو بـأقل حـرج حيال «فرانسوا». فهـي تهـم بـالتخلي عـن هذا الرجل الآخر ومغادرة منزله لأجله، وهـو لا يـشعر تقريبـاً بـأن له أي دور أو أي علاقة بـذلك. ومنـذ اللحظـة الـتي عـبرت فيهـا عـن هذه الفكـرة، ولفظـت تلك الكلمات، لم يعد ذلك خيـاراً يحـصل آنـذاك، بـل قـدراً يتحقـق. ولم يكـن يفكـر لثانيـة واحـدة أنهـا يمكن أن تغير رأيها: ومثله في ذلك مثل جميع الكذابين البدئيين والوراثيين، فقد كـان يصدق كل شـيء تمامـاً وبسهولة، وعـلاوة علـى ذلـك، فلـم يكـن لديـه انطبـاع بأنـه سـرق أي شـيء مـن «فرانـسوا»: فـصيحات الحـب وملـذات «ناتاليـا» كانـت بديهيـة

بأكثر مما ينبغي بأنها له، ومتعلقة به بأكثر مما ينبغي، بالنسبة لأي كان، ممن يعرفونها يمكنه أيضاً أن يعتبرها له. وما سرقه من «فرانسوا» لم تكن «المرأة ناتاليا»، بل «المخلوقة» - «ناتاليا»، الكائنة بشكل مطلق، المحتومة التي كان عليه أن يتقبل أن ذلك الرجل كان قد انشغل واهتم بها كثيراً طيلة سنوات عديدة، لدرجة أنه يسلمها له الآن، في آن معاً كخليلة وكأم، قاسية ومجنونة، وبكل ما كان، هو، أي «جيل» بحاجة ماسة إليه تماماً. وكان هذا فيه شيء من الوقاحة والعيب، بالتأكيد، ولكن السعادة تجعل المرء وقحاً وصلفاً. و «جيل» كان سعيداً.

فأولاً، كانت جميع فترات بعد الظهر في الصيف، في غرفته، أو بمزيد من الدقة، في غرفة المستودع، وهي منعزلة عن غيرها، وكانت، فيما مضى غرفة الخادم، ففتحها «جيل» أصلحها ورتبها بقدر الإمكان. وكان هنالك درج يصعد إليها، عليه، من خلف المنزل، مراعياً بذلك، ليس حياء «ناتاليا» التي لم تكن تهتم بكل ذلك، بل حياء «أوديل»، التي كانت لا تزال تراودها بعض الأفكار والمبادئ الغامضة. وكانت الغرفة واسعة وخالية تقريباً من المفروشات، يكتنفها الغبار، ينتصب فيها السرير وأريكة من خشب الزان الأحمر، كانت «ناتاليا» تلقي عليها فساتينها.

وكان «جيل» يصعد إلى هذه الغرفة في حوالي الساعة الثالثة، يغلق النوافذ، ويستلقي على السرير، يفتح كتاباً،

وينتظر. كانت «ناتاليا» تصل، بمزيد من السرعة. فتخلع ملابسها، وتندس في السرير، أحياناً، دون أن تتلفظ بأي كلمة، كالمتوحشة، وأحياناً تفعل ذلك ببطء واسترخاء، وهي تروي له بصورة هزلية ومضحكة، حكايات عن وجبات غداء، شعرت خلالها بسأم قاتل. ولم يكن، هو، من جهته يعرف ما الذي يفضله، ولكنهما كانا ينتهيان دائماً بأن يتحابا وكانت الحرارة تحت ذلك السقف شديدة، بحيث أنهما كانا ينفصلان وهما يتصببان عرقاً بعد أن كانا ملتصقين بصورة لم يعد يعرف كل منهما من هو نفسه، ومن هو الآخر، منهكين، ولكن دون أن يشعرا أبداً بالارتواء والشبع. وكان يجفف جسم «ناتاليا» المسترخي بالشرشف المهترىء يفركه ويمسده، ويعاملها كأنها حصان صغير، بل مهرة فتية، وكانت مسترخية، تتركه يفعل ذلك وقد أغمضت عينيها، وكان يسمع دقات قلبها وهو يخفق بقوة وسرعة كبيرة تحت يده. وكانت تصحو من خدر المتعة ببطء شديد، كأنها تستيقظ من غيبوبة، وكان يسخر منها بسبب ذلك، بكثير من الكبرياء. وأخيراً، تعود لها الحياة، وأصبحت تسمع شيئاً آخر، غير نبضات دمها، وتستطيع أن تفتح عينيها دون أن يجرحهما الضوء في الغرفة، فقد كان ضعيفاً جداً، وتدير رأسها نحوه، ويكون قد بدأ يدخن، مستسلماً لنوع من الامتنان المشوب بالذعر. كانا يتحدثان مع بعضهما، وشيئاً فشيئاً أصبح يعرف كل شيء عنها: طفولتها في مدينة «تور» (TOURS)، دراستها في باريس، عشيقها الأول، التقاءها

بـ «فرانـسوا» وزواجهـا. كانـت حيـاة بـسيطة ومعقـدة في آن معـاً: بـسيطة لأنـه لم يكـن فيهـا شـيء. سـوى مـا هـو عـادي جـداً، ومعقدة، لأن «ناتاليا» كان لديها، أحياناً طريقة تصمت فيها أو بأن تلفظ نعتـاً أو صـفة، أو حتـى بـالتعويض عـن فقـرة مـن الجملـة بفقـرة أخـرى، الأمـر الـذي يجعـل تلـك الحيـاة هادئـة وإجمـالاً سعيدة، وتكاد تكون مثيرة، وإذا سألها: «هل كنت مسرورة في باريس، عنـد حـصولك علـى الإجـازة الجامعيـة»؟ كانـت تجيبـه: «أنت مجنون.. حتى ذلك الحين، لم أكـن قـد فارقـت أخـي أبـداً». وكـان عليـه أن يـضع فـوق الـصورة التقليديـة للفتـاة الريفيـة الـتي بهرتها باريس، والشبان أيضاً، صورة فتاة صغيرة، تبكـي أخاهـا في مدينـة كـبيرة، وغريبـة بالنـسبة لهـا. وإذا سـألها كيـف قيمـت «فرانـسوا» وحـكمـت عليـه، لأول مـرة، كانـت تجيـب: «لقـد فكـرت في الحـال بأنـه كـان شـريفاً». وكـان مـن المستحيل أن ينتزع منها كلمة، زيادة على ذلك. أما بشأن عشاقها - ويبدو أنـه كـان لهـا ثلاثـة قبـل «فرانـسوا» وواحـد بعـده - فكانـت تعتـرف بهـدوء ووداعـة أنهـا شـعرت بمتعـة كـبيرة معهـم. وسـألها بحماقـة، ذات يوم: «بقدر ما شعرت بها معي»؟ وجلب لنفسه جواباً، اقتصـر علـى كلمـة واحـدة: «بـالطبع» جعلـه يخـرج عـن طـوره. عبثـاً ودون جـدوى. فهـي لم يـسبق لهـا أن أحبـت أحـداً مثلـه، ولكنهـا شـعرت بالمتعة مع آخرين. ولن يستطيع أن يجعلـها تتراجـع عـن ذلـك، أو أن تغـير رأيهـا. وهـذه الاسـتقامة كانـت تغريـه وتـثير أعـصابه، علـى التـوالي، ولكـن ولا أي حيلـة، حتـى في اللحظـات الأكثـر شـغفاً

وولها، لم يكن يستطيع تحويلها عن رأيها وعن قناعتها. وكانت تنظر إليه وتتأمله وهو يهيئ أحابيله، وأفخاخه، ينصبها، ثم يخربها بكلمة وهو يضحك. وكان يضحك معها. فهو لم يسبق له بالحقيقة أن ضحك من نفسه مع امرأة، ولم يكن قد استسلم لهذه التسلية اللذيذة إلا مع «جان» أو مع بعض الرجال. بدافع من مبدأ «رجولي» خاطئ ومزيف. وإمكانية هجر هذا الغرور أخيراً، كانت تشده أكثر إليها، بحيث أنه لم يكن يعرف ذلك، هو نفسه.

وحوالي الساعة السادسة كانا ينزلان إلى الشرفة، حيث يجدان «فلوران» و «أوديل» جالسين على كراسي «مدادة»، فيحتسون سوية كأس «بورتو» وهم يتحدثون عن الطقس. و «أوديل» لم يعد يحمر وجهها عند أي كلمة أو مناسبة، و «فلوران» كان يتظاهر بأنه يكظم غيظه الأمر الذي كان يسلي «جيل» ويجعله يشعر بكثير من السرور. وكان «فلوران» وهو يحملق بعينيه الواسعتين والزرقاوين، يقدم بكثير من الرعاية واللباقة، بعض السجائر السيئة، ذات الطرف المذهب، مدعياً أنه الوحيد الذي يستطيع العثور عليها في المنطقة. وكانت «ناتاليا» تدخنها بجلد، وعلى مضض، تحت نظرات «جيل» الساخرة، تحتسي كأس «البورتو» وتقول: «ينبغي علي أن أذهب»، بصوت ينم عن الحزن، وكان الجميع يحتجون، ويعترضون على ذهابها. كانت النهارات قد أصبحت طويلة جداً، وبرودة الجو، بل عذوبته لا تحصل قبل الساعة السابعة، وكانت ظلال الأشجار، على الشرفة، لا تزال

تمتد متطاولة. وفي بعض اللحظات، كان «جيل» يشعر تماماً أنه في وسط ملهاة تعود إلى سنة ١٩٠٠: هذه الطاولة المستديرة، هذه المشروبات العذبة، ومسجل العقود هذا، الثرثار... ثم «ناتاليا» وهي ترد رأسها إلى الوراء، فيستعيد برهة ممتعة من بعد ظهر ذلك اليوم، فيغمض عينيه لحظة. وهذه الملهاة، فيما إذا كانت كذلك، فهو كان يرغب بها ويريدها أكثر من أي شيء.

٣

كـان هنالـك العديـد مـن حفـلات الاسـتقبال، ـ في ذلـك الـصيف ولـكـن «جيـل» لم يكـن يـذهب إليهـا أبـداً. وأخـذ النـاس يعتقـدون أنـه مـريض، محبط، يميـل إلى العزلـة والانفـراد. وكـان ذلـك يـسوي الأمـور تماماً، بالنسبة للجميع - بما فيهم، «ناتاليا»، كما كان يظن. فهي وإن كانـت مـستعدة للحـاق بـه أينمـا ذهـب، فإنـه مـع ذلـك كـان يـشعر أنـه عشيق امرأة متزوجـة. ومـن هـو الـذي كـان يمكنـه أن يـشك بتلـك المـرأة المتزوجـة، الـتي لا غبـار عليهـا، ولـيس هنالـك مـا تـلام عليـه، بـأن تقطـع كل يوم ستين كيلومتراً، لكي ترتمـي في سـرير رجل منهك عصبياً؟ ولأوديـل الـتي كانـت تعيـب عليـه كـسله الاجتمـاعي، كـان يكتفـي بالقول: «إزاء ومقابل سيلفنيير»... فتكـاد، عنـد ذلـك تعتـذر، وقـد احمـر وجههـا. وفي معظـم الأحيـان، كـان ينظـر إلى سيارة «فلوران» الـصغيرة، وهي تختفي في آخر الممشى، منطلقـة نحـو حفلـة بعيـدة. ويبقـى وحـده في

ذلك المنزل الكبير، فكان يتسكع في الصالون، يفتح كتاباً ويجلس هادئاً، مطمئناً. أو أنه كان يصعد إلى الطابق الثالث، ويستنشق على السرير الذي لا يزال على حاله، رائحة «ناتاليا» وحب «ناتاليا» ويظل هناك مستلقياً على السرير، وعيناه مفتوحتان تماماً. وكانت بعض الوطاويط السوداء تخترق الجو الذي أخذ يكتنفه الظلام. وكانت الضفادع تبدأ بإرسال نقيقها الرتيب في الحديقة، وتبدأ ريح خفيفة معطرة باختراق الغرفة، ويخيم هدوء، بل سلام عذب على المكان الذي كان ساحة معركتهما الحامية. وكان يحلم «بناتاليا»، ولم يكن يرغب حتى بأن تكون هناك. وأحياناً كان يستغرق في النوم وهو لا يزال يرتدي «كنزته» القديمة، وكان صوت عجلات السيارة على الحصى، هو الذي يوقظه. فكان ينزل يساعد «فلوران» الذي يكون عادة ثملاً بعض الشيء، على النزول من السيارة، ويتبعهما على المطبخ، حيث تصيح «أوديل»: «كيف، ألم تنم بعد»؟ ولكنها، وهي مسرورة لأن لها أذنين أكثر قدرة على سماعه، من أذني زوجها، كانت تبدأ حكاية مذهلة عن السهرة في تلك الأمسية، وترويها بشكل أفضل من أن تكون مروية من قبل «آل كوديرك» (أصحاب الحفلة) وعند سماعها وهي ترويها، يخيل لمن يسمعها أنها الدوقة «غير مانت». وصاحبة السمو الملكي، كانت في تلك الحفلة، كما هي دائماً: «ناتاليا» التي كانت «أوديل» تطلق عليها دائماً هذا اللقب في حكاياتها: «السيدة سيلفنيير»، بينما كانت تدعوها باسمها الأول، كل يوم. كانت «السيدة سيلفنيير» ترتدي إذن في تلك الأمسية فستاناً أزرق مدهشاً وقد ردت بازدراء على نائب المحافظ الذي... والمحافظ لم يفارق السيدة «سيلفنيير» قيد أنملة،

الخ... ولو أن «جيل» لم يكن قد أمضى معها فترة بعد الظهر، عارياً، لكان انتهى به الأمر إلى مداعبة أحلام اليقظة، عن السيدة «سيلفنيير» كالأحلام التي تراود الطلاب والشباب المراهقين. ولكنه كان يصغي لأخته وهي تتحدث وتثرثر، مبتسماً، مسروراً، غير مبالٍ بنائب المحافظ ومحاولاً أن يتصور بدقة لون الفستان الأزرق. وكانت «أوديل» تنهي حكايتها دائماً، ربما بدافع من طيبة القلب، بإلقاء ستارة من كآبة خفية على الحديث المتألق عن السيدة «سيلفينير»، في حين أن «جيل» كان يبدو ساهماً، شارد الفكر. وأخيراً، كانت «أوديل» تذهب لتنام، مشبعة بالأفكار الرومانسية والخيالية، بجانب «فلوران» المشبع بالشمبانيا، وكان هذان العاملان يؤمنان لهما نوماً سريعاً وعميقاً.

كان قد انقضى، آنذاك، خمسة عشر يوماً على عودة «جيل» من باريس، ولم يكن قد خرج من المنزل، إلا في الصباح لمرافقة «أوديل» إلى القرية المجاورة، التي تذهب إليها لشراء ما يحتاجه البيت من مواد غذائية، وسواها. فقد تقرر شيء ما في مصيره: كان يبدو له أنه من الممكن أن يمضي حياته، هكذا، متسكعاً تحت أشعة الشمس، يمارس الحب بعد الظهر، مع «ناتاليا» ومستسلماً للتفكير ولأحلام اليقظة في المساء. وكانت فكرة كونه بعد شهرين، سيصبح محرراً سياسياً، لديه كثير من العمل، ضنيناً بوقته وحريصاً عليه، بقدر ما كان آنذاك مبدداً ومبذراً بهذا الوقت. وأن ذلك الوقت نفسه سوف يمضيه في تلك الزويعة الداكنة، التي هي باريس، هذه الفكرة كانت تبدو له، على الخصوص، عبثية وغير معقولة. وعلاوة على ذلك، فمع تلك السهولة التي تميزه ويتصف بها منذ زمن طويل، أمام بعض المشاريع، فإنه حتى لم يكن يفكر بذلك.

وكل ما هنالك، أنه عندما يستيقظ من النوم كان يتساءل عما إذا كان سيذهب لصيد السمك مع «فلوران» قبل الغداء. وفيما إذا كانت «ناتاليا» ستبدو لطيفة راضية، أو قاسية متشددة وعما إذا كان هنالك وسيلة يستطيع بها أن يصلح. هو بنفسه درفات نافذة الغرفة الحارة، التي كانت معطلة وفي بعض الأحيان أيضاً، كان يتساءل وهو يطالع الصحيفة، ما الذي يمكن أن يدفع مخلوقاً بشرياً إلى أن يقطع مخلوقاً بشرياً آخر، إلى ثماني عشرة قطعة، ويطلع «أوديل» على حيرته فترسل صراخاً كصراخ الطاووس، بينما يعمد «فلوران» حسب مزاجه، في تلك اللحظة، إلى ضرب جبهته بسبابته، أو أنه يقلد الأنشوطة بواسطة ربطة عنقه. وباختصار، فإن «جيل» كان سعيداً، وكان يعرف ذلك، ويتحدث عنه ويردد الحديث بمختلف اللهجات والأساليب، على مسامع «ناتاليا» بزهو رجولي. وكان يقول لها: «أتدرين إني منذ شهرين كنت شخصاً محطماً مقضياً عليه، وإني الآن رجل سعيد».. وكانت تشوب صوته نبرة تنم عن عدم تصديقه لما يقول وكان يبدو راضياً عنها، الأمر الذي كان يسلي «ناتاليا» بانتظام ويسرها، ليس أقل انتظاماً، عندما كان يضيف: «والفضل في ذلك، يعود لك أنت». فكانت ترف جفونها بسرعة كبيرة.

ثم أتى موعد حفلة «آل سيلفينير»، ففي كل سنة، وفي التاريخ نفسه، على وجه التقريب، كان «فرانسوا سيلفينير» يقيم حفلة يدعو إليها النخبة من سكان «ليموج» والقرى المجاورة لها. وكانت هي الحفلة الأكثر أناقة بين حفلات الموسم. وأوديل وقد ألقت بكل الأخلاقيات في الركن الذي ينبت فيه العليق والنباتات ذات الأشواك،

كانت تبدي فرحتها بالذهاب إلى تلك الحفلة، قبل موعدها بعشرة أيام. وكانت أيضاً الحفلة الوحيدة التي قرر «جيل» أن يضحي بوحدته، من أجلها. كان يريد أن يرى أين كانت تسكن «ناتاليا»، ويريد أن يراها كربة بيت، وكان مسروراً، ويلهو بذلك، مسبقاً.

كان منزل «فرانسوا سيلفينير» عبارة عن بناء كبير وقديم، يعود إلى القرن الثامن عشر، كانت ملكيته على ما يبدو تعود، دائماً إلى بعض رجال القانون والقضاء. ويقع في مركز مدينة «ليموج»، منفتحاً على حديقة خارجية كبيرة، جميلة جداً، وكانت الأنوار تسطع فيها بمناسبة تلك الحفلة وأخذ «جيل» يفكر وهو يصعد الدرج أن فيها كثيراً من الزهور، وشيئاً ما، تشم منه رائحة المال، والمال الحلال، بالتأكيد، ومال التراث التقليدي، ولكنه مع ذلك المال، على أي حال: قطع الأثاث الضخمة واللماعة، السجاجيد الجميلة والقديمة، والمرايا الكبيرة، التي لا تكاد تبدو أنها مدهونة والخادمان بوجهيهما الموردين، وقد بديا منزعجين من قفازيهما، خلف سفرة ومائدة المأكولات، كل ذلك كان يوحي بالسعة، وبالبحبوحة الريفية، الحسنة التنظيم. و «جيل»، وهو الصحفي والباريسي الذي سبق له أن حضر ولائم وحفلات أكثر روعة وفخامة، بل وأكثر جنوناً، كان يقيمها في معظم الأحيان فضلاً عن ذلك جماعة من المدمرين والمفلسين كان يشعر أنه من مستوى أرفع بقليل من مستوى هذه الحفلة. ولم يكن يحب النقود إلا إذا صرفت وبددت. ولم يكن الترف هو الذي يبدو مثيراً هنا، بل الانطباع بالهدوء والأمن. وفي أعلى الدرج، كما في روايات ١٩٠٠، وقفت «ناتاليا» وفرانسوا سيلفنير»، أحدهما بجانب الآخر، وأخذا يستقبلان مدعوييهما. وكان في نظرة «ناتاليا»، عندما قبل «جيل»

يدها، اهتمام كبير بأن تحظى بإعجابه، وتعبير كان يعني بشكل واضح وبديهي: «كل هذا لك ومن أجلك» بحيث أنه شعر فجأة بالخجل من تنازله الذي اتسم بالكبرياء وهنأها بما أمكنه من حماسة وحرارة على جمال منزلها، شد على يد «سيلفينير»، ودخل إلى الصالون الكبير، الذي احتشد فيه جمهور بادي السرور والانشراح. وكان على «جيل» أن يتحمل بعض الأحاديث، وبعض الثناء والتهاني على تحسن صحته، قبل أن يتمكن من أن يتجه إلى ما كانت تبدو بأنها مكتبة. والحقيقة هي أنه كان يحاول أن يتخيل - دون أن يتوصل إلى ذلك -«ناتاليا» جالسة على تلك الأريكة، بالقرب من المدفأة، قبالة زوجها، وكان ذلك مستحيلاً، فناتاليا لم يكن يتصورها إلا متمددة على السرير الكبير، المنعزل الكائن في الغرفة الحارة الجو، أو مستلقية على الحشائش والأعشاب. وفي المكتبة، تنفس الصعداء، واستراح قليلاً، ثم اتجه نحو الشرفة، فالتقى هنالك برجل، هو الذي كان يسميه. بينه وبين نفسه بـ «الأخ الصغير»، بعد الحكايات التي سمعها من «ناتاليا». ولم يكونا قد التقيا سوى مرة واحدة، ولكن «بييرلاكور» مد له بسرعة يده. و «الأخ الصغير» بدا بصورة تلفت النظر، طويل القامة، يتمتع بمظهر ينم عن الرجولة، وقد تبادر إلى ذهن «جيل» أنه بالإضافة إلى ذلك، جميل جداً. وتذكر أنه كان قد شعر بالغيرة منه، في ذلك اليوم، فابتسم.

وقال «لاكور»:

- كدنا نيأس من التمكن من رؤيتك، لست اجتماعياً جداً. فأنا أرى أختك في كل مكان، أما أنت فلا أراك أبداً في أي مكان.

فقال «جيل»:

- أنا لست اجتماعياً جداً، بالفعل.

- وهل تزعجك حفلاتنا الريفية، وتشعر فيها بالملل؟

كان في صوته نبرة عدوانية، ولكن «جيل» كان مهتماً، بأن يكتسبه كصديق له:

- أبداً، وعلى الإطلاق، فقد كنت متعباً في باريس، وأتيت إلى هنا لكي أرتاح.

وخيم الصمت لحظة، ثم بدا أن «بييرلاكور» قد حزم أمره فجأة. فأمسك بجيل من ذراعه:

- أود أن أتحدث إليك... أتعلم أني... أوه... أرتبط بصداقة حميمية مع أختي؟

فقال «جيل» وهو يبتسم:

- نعم، إني أعرف ذلك.

فهو لن يتظاهر بأنه قد دهش. فإما أن يكون هذا الشاب مطلعاً على كل شيء، وإما أنه لا يعرف شيئاً عن ذلك. وعلى أي حال فقد كان في سيماء وجهه شيء يرضي «جيل» ويعجبه، نوع من الشرف والاستقامة، يتسم بالخرق وعدم المهارة، يمتزج بكثير من الذكاء. ومع ذلك، فإن كلماته الأولى، أوقعته في حيرة شديدة.

فقد قال بلهجة حادة وجافة:

- «ناتاليا» تحبك. وأنا آسف، بل حزين بسبب ذلك.

كان قد التفت وحول وجهه عنه، ليقول هذا، وتساءل «جيل» في تلك اللحظة عما إذا كان قد فهم جيداً ما قاله:

- ولماذا يؤسفك ذلك، وتحزن بسببه؟

- لأني لا أكن لك كثيراً من التقدير، وأعتذر عن قولي لك هذا.

كانا يتكلمان بصوت خافت تقريباً، في تلك الغرفة المظلمة، كعدوين يخططان لمبارزة سرية، لا يمكن تجنبها. وأخذ قلب «جيل» يخفق بشدة:

- لماذا لا تكن لي كثيراً من التقدير؟ فأنا لا أعرفك.

- «ناتاليا» تحبك. وأنت تقول إنك تحبها. فماذا تعمل هنا هي إذن؟ هل تعتقد أنها بورجوازية صغيرة معتادة على ممارسة الزنا؟ وهل تعتقد أن وضعها مع «فرانسوا» مريح ويتسم بالسعادة؟ وهل معرفتك بها سيئة لهذه الدرجة؟

- هي قررت أن تنتظر حتى آخر الصيف...

هكذا بدأ «جيل» يبرر موقفه، ولكن «بييرلاكور» قاطعه بحركة عنيفة من يده، وقال:

- إنها لم تقرر شيئاً على الإطلاق، فهي تظن أنك لست واثقاً من نفسك، وهي لا تريد أن تحرجك وترغمك على القيام بأي شيء، وهذا كل ما هنالك. وهي تعيش منذ شهر في وضع كانت تجهله على الدوام: التعرض للشبهات والتساهل مع الضمير وذلك بسبب خطئك.

فثارت أعصاب «جيل» فهذه الشخصية التي تمثل الأخ النبيل تتمادى كثيراً، وتذهب بعيداً، بعض الشيء:

- أنا لا يبدو لي أني كنت مغامرتها الأولى...

- كلا، بل حبها الأول، الذي يتسم بالشغف والولع، وهذا يجعلني أشعر باليأس بالنسبة لها.

- ولماذا؟

- لأنك ضعيف، أناني ومتذبذب ولا تتمتع بقوة الإرادة!

فقال «جيل»، بجفاء:

- جميع الرجال هم هكذا.

- ولكن جميع الرجال لا يرتاحون لذلك ولا يرتضونه.

كانا، آنذاك على استعداد ليتضاربا وليتبادلا اللكمات. وكان «جيل» يحاول أن يهدأ، فهذا الفتى كان مصيباً ومخطئاً، في آن معاً. فأخذ ببطء نفساً طويلاً:

- ماذا كان بإمكانك أن تفعل، لو كنت مكاني؟

- لن أكون مكانك أبداً: لأني لو كنت رجلاً، آخر، ولم تكن «ناتاليا» أختي، لكنت اختطفتها، من زمن طويل... كان قد رفع صوته، فابتسم «جيل»:

- يا إلهي، كم تحبها!...

- كان علي أنا، أن أقول لك هذا، أليس كذلك؟

فخيم صمت قصير، ثم قال «جيل» بهدوء:

- ولكني أحبها.

- اعتن بها إذن.

لم تعد على وجهه سيماء الغيظ والغضب، بل على العكس من ذلك، كانت تعابير وجهه تنم عن التوسل والحزن، والاستسلام والخضوع، على وجه التقريب، وهي تعابير سبق لجيل أن رآها على وجه «ناتاليا». فشعر بأن شيئاً ما كان يعصر قلبه ويلويه:

- وهل تعتقد أني يجب علي أن أصطحبها غداً؟

فقال «لاكور»:

- نعم، وبأسرع ما يمكن. فهي في غاية التعاسة.

فحدقا لحظة ببعضهما. وعلى بعد ثلاث خطوات، كان يتعالى صخب وضجيج حفلة «سيلفينير». وشيء من الشاعرية والرومانسية رفع فجأة من معنويات «جيل» ودفعه فجأة إلى القول:

- سأفعل ذلك، وسأعتني بها.

وتصور نفسه عابراً قاعة الرقص، ممسكاً «ناتاليا» من رسغها، وساحباً إياها، دون أن يتفوه بكلمة، بين المدعوين الذين استبد بهم الذهول. كان بذلك يتصرف، مبحراً، في وسط القرن التاسع عشر. وأوقفه صوت «لاكور»:

- «سيلفينير» رجل طيب. ينبغي أن تفارقه بشكل مناسب، فيما إذا كان من الممكن مفارقة أحد ما، بشكل مناسب.

فعبرت في ذهن «جيل» ذكرى «ايلوييز». ولم يرد.

وقال «لاكور» بصوت خافت:

- عليك ألا تنسى أبداً أنها مثالية، تؤمن بالمطلق ومشبوبة العاطفة.

ومر من أمام «جيل»، واختفى. كانت تلك الدقائق عبارة عن حلم. ولمن يفكر بذلك جيداً، يبدو له أن هذا الشاب لا بد له من أن يكون مجنوناً، بعض الشيء. ولكن «جيل» كان قد فهم وأدرك كل شيء. وعندما قبل يد «ناتاليا» في نهاية الأمسية، وتركها وحدها في أعلى الدرج، بجانب زوجها، في بيتها، وعندما تأكد له، فجأة أن تلك المرأة التي كانت له لا تستطيع أن تتبعه في تلك الدقيقة بالذات. وأنها كانت حزينة ويائسة بسبب ذلك، مثلما كان هو أيضاً للسبب نفسه، حزيناً ويائساً.

عند ذلك اتخذ قراره.

الجزء الخامس

باريس

١

«ولكن أخيراً، ماذا حدث»؟

كانا في منزله بباريس. وكانت قد وصلت للتو، وقد مرت ثلاثة أيام، وهو ينتظر أخبارها. وهي الآن هنا معه، وقد بدت ساهمة، شاردة الذهن، وهادئة، في آن معاً، كمن تلقى ضربة. وكانت قد وضعت حقيبتها عند المدخل، ومعطفها على أحد الكراسي، وصلت دون أن تخبره عن موعد وصولها، وبدت وكأنها مستعدة لاستئناف السفر. ولم تكن حتى تنظر إلى المنزل، الأمر الذي كان غريباً بعض الشيء، فيما لو فكرنا، إنها بعد كل شيء، من الآن فصاعداً ستعيش فيه معه، وإن هذا القرار قد اتخذاه سوية، في اليوم التالي لحفلة «ليموج»، بنوع من الحماسة، والسعادة القصوى. والمتعقلة، الحكيمة. وكان «جيل» يجهل أن السعادة يمكن أن تكون متصفة بهذه الحكمة المحتومة، والحانية التي تقضي بالرضوخ وعمل ما ينبغي

عمله. ولكنها ، مع ذلك، فقد جعلته يسافر قبلها ، بدافع من الحشمة والحياء، على حد قولها ، ولم تكن سوى ثلاثة أيام بعد ذلك، كان قد أمضاها وهو يكاد يجن من القلق، أن رأى تلك «الخرساء» تصل فجأة. كان يمسك يديها لكي يجلسها ، ثم سكب لها كأساً. ولكنها لم تتكلم ولم تقل شيئاً.

- ولكن أجيبيني، ماذا حدث؟

فقالت، وكأنها قد انزعجت:

- ولكن لم يحدث شيء، لقد تكلمت مع «فرانسوا»، وقابلت أخي، فرافقني إلى محطة القطار، ولم يتح لي الوقت لكي أتصل بك وأخبرك بقدومي. واستقليت سيارة أجرة، فالعنوان معي...

- ولكن، ماذا لو لم أكن موجوداً هنا ، في المنزل؟...

- لقد سبق أن قلت لي أنك تنتظرني.

وكان هنالك شيء في نظرة «ناتاليا» لا شك أنها ذكرى اللحظات القاسية، التي تبدو عصية على الوصف والتي جعلت ذلك الانتظار الإجباري والعصبي لشخص عازب، الذي عانى منه هو، يبدو ، ويتراءى له، كأمر بسيط وقليل الأهمية. وأخيراً ، فهي قد هجرت حياة حافلة، بكاملها ، وقد اقتصر الأمر بالنسبة له، على الشعور بالملل. ولن يعمد إلى المقارنة، بين قراءته للصحف القديمة، وبين قولها لزوجها إنها لم تعد تحبه، فهنالك فرق كبير بين الحالتين، فانحنى عليها وقبلها على خدها.

- كيف كان رد فعله؟

فوجهت إليه نظرة تعبر عن الدهشة:

- وماذا يعني ذلك بالنسبة لك؟ فأنت لم تهتم به ولا بما كان عليه أبداً، عندما كنت أعيش معه، أليس كذلك؟ إذن، فالطريقة التي فارقته بها...

- أردت أن أعرف فيما إذا... فيما إذا كان ذلك قاسياً وجارحاً. بالنسبة لك، على الخصوص...

فقالت:

- أوه! أنا فارقته لألحق برجل أحبه. وهو بقي وحيداً. كما ترى...

فعبرت ذهن «جيل» فكرة صلفة، وقحة بعض الشيء بشكل غامض ومبهم. أخيراً، فإن زوجاً مهجوراً أكثر مضايقة بكثير من الزوج الحاضر والمتواجد، بالمعنى العاطفي للكلام. كانت «ناتاليا» ترتجف قليلاً، وكان يشعر أن يديها باردتان جداً، بين يديه. وراودته رغبة غامضة بأن يراها تبكي، وأن تروي له كل شيء، أن تهمل نفسها تلقي نفسها بين ذارعيه، مستسلمة له مع تلك الحركات من الحساسية الجسدية، التي تثيرها في كثير من الأحيان. بعد أحد الأحداث، القسوة التي تستخدم ضد أحد ما.

ولكنه لم يكن يتحمل هذه المرأة المنفعلة وهي ترتعش والتي بدت لا صوت لها كأنها خرساء.

وقال:

- أتشعرين بالخوف؟ ألست على ما يرام؟ تعالي لأريك منزلي. كان، بهمة غير معهودة أبداً لديه، «قد رتب» المنزل من أجلها. وقامت «البوابة» ببعض الأعمال المنزلية، كالجلي والتنظيف... واشترى شاياً،

ومحارم ورق وباقات زهور، وبسكويتاً وأسطوانة جديدة. وقام زوج البوابة بتبديل المصابيح الكهربائية، وقام أيضاً بتشغيل البراد. وباختصار، فإنه لم يتصور ولا خلال لحظة واحدة مصيبة «ناتاليا» وما تعاني من تعاسة وبؤس، أو بالأحرى، فإنه قد تصور ذلك في صيغة مسرحية، تغص بالأحداث، بالدموع الحارة والعنيفة، أي إجمالاً بحوادث «يمكن أن تروى» بل مثيرة ونابضة. ولم يكن قد تصور هذا الحزن الذي يتسم بالهدوء والاطمئنان.

ونهضت فتبعته تلقائياً، وبصورة تكاد تكون آلية، والواقع أنه لم يكن هنالك شيء لتراه، سوى المطبخ، وغرفة النوم، وغرفة الحمام الخشبية والصغيرة (وهي عملية تجديد فنية قامت بها «ايلوييز»). فألقت على كل هذا نظرة شاردة ولاهية، اتسمت بالعذوبة واللطف. ولم يكن هنالك أحد يمكنه أن يتصور أن يراها تنام في هذا السرير، وتعلق ملابسها في هذه الخزانة، لا أحد أبداً. ولا حتى «جيل». وانتابه ذعر مفاجئ: فماذا لو أنها لم تستطع أن تفعل ذلك؟

وماذا لو أنها أتت بالضبط لكي تقول له (لأنها لم يكن من طبعها أن تكتب أو أن تستخدم الهاتف، ونادراً ما كانت تفعل ذلك) وأنها أتت لتشرح له أنها لن تتبعه، ولن تبقى معه. وفجأة، بدت له الزهور التي اشتراها، والسرير الكبير المكشوف غطاؤه والمهيأ لها، وشهر أيلول (سبتمبر) والشتاء المقبل بكامله، والحياة، كل ذلك بدا كريهاً لا يطاق ولا يحتمل في نظر «جيل» فأمسك بذارعها، وأدارها نحوه:

- هل أحببت هذا المنزل؟

- نعم، بالطبع، إنه ظريف.

وكلمة «ظريف» هذه أقنعته. فهذا الصمت الذي لزمته وانعدام الحركات والإشارات نحوه، وتلك اليدان الباردتان كالثلج، والنظرة الساهمة والشاردة إلى أماكن وأجواء أخرى.. «ناتاليا» لم تعد تحبه. وأيام الانتظار الثلاثة، وذلك الانتظار المشوب بالقلق والجنون، الذي أمضاه وعانى منه، وتلك الأيام الثلاثة التي كان خلالها يلقي الصحف على الأرض، ولا يكاد يرفع سماعة الهاتف، حتى يعيدها إلى مكانها بدت محذرة ومنذرة بالنسبة له فهو سيبقى وحيداً، من جديد، وهي ستهجره. وتحول عنها، وابتعد متجهاً نحو النافذة. كان قد خيم الظلام. والصيف لا يزال مقيماً في الشوارع. وكان وحيداً.

فقالت:

- «جيل»!

فالتفت، كانت مستلقية على السرير، وقد نزعت حذاءها. كلا، إنها لن تسافر ثانيةً في الحال، فهي ستمضي أمسية، بل ليلة مع «حبيبها»، «حبيبها العزيز» كما كانت تلقبه وتناديه، وستقول له كل شيء، في الصباح، قبل أن تسافر من جديد. فقد كانت صادقة، وفية، حقاً، ولكن هنالك أشياء لا يحرم المرء نفسه عنها. وشعر بالغضب ينتابه، فابتعد عن النافذة، جلس على حافة السرير: كانت جميلة هكذا، متعبة، شاردة الذهن، وكأنها مزدرية بكل شيء. وكان يحبها:

- هل ناديتيني؟

فنظرت إليه، مندهشة، مدت يدها نحوه، فأمسكها بسرعة، وشد عليها:

- أتمنحينني ليلة أخيرة؟

فاعتدلت قليلاً. وتابع:

- وغداً تشرحين لي بأن ذلك قاسٍ أكثر مما ينبغي، بالنسبة لفرانسوا. وتحدثيني عن حياتك وعن كل عاداتك... الخ. وتسافرين. أليس كذلك؟

كان يأمل، وقد استبد به الغضب، أن يراها تستاء وتغضب ويبدو ما تكتمه تحت تأثير صدمة الحقيقة، وتأثير مفاجأتها بحدسه. ولكنها اقتصرت في رد فعلها على التحديق به وقد جحظت عيناها، وفجأة طفرت الدموع من تلك العينين، دون أن يتحرك وجهها. فأدرك بأنه قد أخطأ، وارتمى بجانبها، وهو يشعر بالارتياح وبالخجل. ودفن رأسه تحت كتفها، ولم يعد يستطيع أن يتكلم. وكانت هي التي تمتمت:

- يا إلهي، كم أنت أناني، يا «جيل»!...

فقال:

- لقد خفت كثيراً، ثلاثة أيام. ثم الآن..

أنت لن تتركيني أبداً؟

فخيم صمت قصير. ثم ها هو صوت «ناتاليا» الاعتيادي، وقد عاد إليها، صوت يمتزج في نبراته العطف والسخرية: وقالت:

- كلا، إلا إذا رغبت أنت بذلك.

فقال:

- لن أطيق ذلك ولن أستطيع أن أتحمله.

لم يكن يتحرك، كان يستنشق عطرها من جديد، هذا العطر الذي يتداعى ويمتزج في ذهنه بشكل قوي مع الريف،

والعشب الندي والغرفة الفارغة الكائنة تحت السقف. وكان يبدو له غريباً سحرياً ومقدساً على وجه التقريب، أن يشم كل ذلك هنا، في هذه الغرفة الكائنة في مدينة كبيرة، حيث سبق أن مر كثير من النساء، وحيث عاشت «ايلوييز» فترة من الزمن. والغرفة وهي ترى هكذا، عبر ذلك العطر، يقسمها إلى اثنتين كتف «ناتاليا» لم تعد تبدو أنها هي الغرفة نفسها. كان هو غريباً فيها وهذه المرأة الخائفة، أيضاً. كان من الممكن تماماً أن يكونا أيضاً في أحد الفنادق، كعاشقين تعيسين، هاربين ومتذمرين والحال، هي أنهما كانا مجتمعين وفي منزلهما. من أين كان يأتيه هذا الغم؟ كان هنالك شيء يشد على خناقه، شيء لم يعد هو الذعر، الذي عانى منه في الأيام الأخرى، ولا الغضب، ولا الحزن. شيء أكثر عمقاً بكثير، شيء مجهول كأنه حدس عظيم وفظيع.

واقترب منها، تمتم بكلمات رقيقة وعذبة، تأوه وأنّ قليلاً. كانت يد «ناتاليا» على قفا رقبته، وكانت تتنفس بهدوء، وتبين له أنها مستغرقة في النوم. فنهض، وذهب ففتح زجاجة الشمبانيا التي كانت في البراد، سكب منها قدحاً كبيراً، وعاد إلى جانب السرير. كان وجه «ناتاليا» جميلاً، حلواً، تنم أساريره عن الثقة والتعب. قدم القدح الذي يحمله، فجأة، حتى جعله فوقها، وأقسم بأنه لن يسيء إليها، ولن يسبب لها أي مكروه، ثم احتسى جرعة كبيرة من الشمبانيا الباردة. فذكره ذلك، على الفور، بزجاجة البيرة، الصغيرة الساخنة التي شربها هكذا، بجرعة واحدة في ذلك المقهى، مع

«جان»، عندما صرح أنه كان يحب هذه المرأة. كان ذلك قبل شهر، بل قبل عشر سنوات. والآن هي في منزله، وهي له، لقد ربح، ولم يستطع أن يمتنع عن الابتسام، لضلاله وزيغه، ولإصراره، بل لعناده الخاص، ولحسه الخاص بالمسؤوليات، ولمظاهر جنونه، ولفوزه وانتصاراته.

٢

قال «جان» وهو يضحك:

- لم أحدثك عن أخبار «ايلوييز» لأني أتصور أن «جيل» حدثك عن هذه المسكينة.

فابتسمت «ناتاليا» وهزت برأسها.

كان الثلاثة في مطعم صغير يقع على ضفة نهر السين. وبدا «جان» و «ناتاليا» في أحسن حال، كما كان «جيل» مسروراً، - كنت متأكداً من أنه قد حدثك عنها. لأن «جيل» لا يستطيع أن يصمت أو أن يكتم شيئاً أبداً. والمرة الوحيدة التي حاول بالحقيقة أن يفعل ذلك، كانت بشأن موضوعك. وعند ذلك أدركت أنه يحبك. وقد جعلته يعترف بذلك. ولكن هذا، فإني أتصور أنه لم يطلعك عليه؟

فقال «جيل»:

- كفاية، يا «جان»:

ولكنه كان يبتسم، بمودة وبطيبة قلب. وأخيراً فقد كانت تلك عبارة عن متعة مراهق. دون شك، ولكنها متعة عذبة عند سماعه أفضل صديق له، وخليلته، يهزءان منه بعطف ومحبة. وكان يشعر أنه غير مقصود تماماً بذلك، كشيء غريب يلفت الأنظار. وهش. لا يمكن الإمساك به، وينتهي به الأمر بأن يتماهى مع ذلك الشيء الذي يصفانه، فيشعر أنه هام ومحبوب.

- إيه، حسناً، سأجعلك تشعر بالخيبة: «ايلوييز» احتلت موقعاً هاماً ومثيراً، فهي خليلة المصور الأول، في مؤسسة «فوغ»: (VOGUE)، وكل شيء على ما يرام، بالنسبة لها، تأمليه جيداً، يا «ناتاليا»، لقد أصيب بخيبة الأمل، فهو يود أن تظل النساء تبكيه طيلة حياتهن.

فقال «جيل»:

- أنا لا أهتم بذلك أبداً.

فقال «جان» وقد أمسك يد «ناتاليا» وقبلها؛ فابتسمت له:

- لو كنت مكانك، لفعلت مثلما فعلت أنت.

منذ ثمانية أيام، وهما يتسكعان في باريس التي كانت لا تزال تبدو خالية، في شهر آب (أغسطس)، ومنذ ثمانية أيام وهما ينامان سوية، كل ليلة، في السرير الكبير، الكائن في المنزل الذي يقع في شارع «السيد - الأمير» وكانت تبدو سعيدة تماماً، ولم يكونا قد رأيا أحداً، ما عدا «جان» وهو ذاهب إلى السهرة. وكل ما هنالك، أنه

عندما مر بهما ليصطحبهما إلى النادي، قبل ذلك بساعتين، فقد تصرفت في ذلك المنزل كأنها مدعوة، أو زائرة، تواجدت هناك بالمصادفة، و «جيل» هو، الذي كان عليه أن يقدم الكؤوس، ويجلب مكعبات الجليد.. الخ.. وقد فكر بأن عليه أن يسألها فيما بعد، لماذا تصرفت هكذا.

وقال «جان»:

- يجب أن أذهب إلى النادي، الآن. هل ذهبت إلى هناك «ناتاليا»؟ كلا؟ يجب أن تذهبي إليه، لكي تري ما الذي يترصدك، مساءً، مع هذا «الداعر» السيئ التربية!

فنهضت «ناتاليا» وذهبت لتصلح زينتها. فتأملها «جان» وهي تذهب، وقد اعترت وجهه الكبير، مسحة من الكآبة، وقال:

- إنها جميلة، بشكل مثير.

فقال «جيل»:

- أنت تراها هكذا؟

كان قد تكلم بصوت خافت مزماري النغم ينم عن شرود الذهن، جعلهما يضحكان معاً.

وتابع «جان» بلهجة من يحلم:

- إنها أفضل منك، أفضل بكثير. وأضاف:

ولا أقصد بذلك الجانب المتعلق بالجسم.

فقال «جيل»:

- شكراً.

واستأنف «جان» الكلام:

- حاول ألا...

ثم توقف، وهز رأسه.

فقال «جيل» وقد بدا مرحاً:

- أني أعرف ماذا تريد أن تقول: «حاول ألا تجعلها تتألم، وأن تحافظ عليها، كما هي، وألا تكون أنانياً، وأن تتصرف كرجل حقيقي... الخ.

فقال «جان»:

- نعم، حاول ذلك!

وتصفح كل منهما وجه الآخر، ثم حولا ناظريهما، سوية. وكان «جيل» في بعض اللحظات، يكره انعكاس صورته في عيني «جان». ونهضا عندما عادت «ناتاليا»، وخرج الثلاثة سوية.

كان جو النادي مرحاً، يغص بالرواد، فلم يعد هنالك على ما يبدو شهر آب (أغسطس) بالنسبة للباريسيين. واستقبلهم «بيير» الذي لوحت وجهه الشمس، وضم «جيل» إلى قلبه، منادياً إياه: يا «ولدي» متناسياً تماماً أنه وجه له لكمة قوية، في آخر مرة رآه فيها. ثم ألقى نظرة تنم عن التقييم والدهشة والفضول، على «ناتاليا». فبدا التردد على «جيل»، فلو كان مع أي امرأة جديدة أخرى لكان قال: «ناتاليا» هذا «بيير» وهكذا كان يمكن أن ينتهي الأمر: فخليلة «جيل لانتييه» تدعى: «ناتاليا». ولكنه لم يستطع ذلك. وقال بصوت أجش:

«هل أستطيع أن أقدم لك «بيير لورو»؟، يا سيدة «سيلفينير»

واحمر وجهه.

وعـاد فكـرر «الحفلـة» نفسها خمـس عـشرة مـرة، في تلـك الأمسية. كان الجميع يربتون على كتفه. والبنـات يعانقنـه حسب تلك القواعد المعبرة عن المحبة المتبادلة، المتبعة في ذلك العصر، وفي كـل مـرة كـان يـتخلص مـن ذراع قـوي أو نحيـل - حـسب الجـنس (ولـيس الأمـر دائمـاً هـكـذا، بالـضرورة) - ثـم يلتفـت نحـو «ناتاليـا» ليقدم هذا أو ذاك للسيدة «سيلفينير». وكان من البديهي أن مجرد تهذيبه كان في كل مرة، يثير فضولاً معيناً، ولكنه تـابع طريقته وظل مصراً عليها، تحت نظر «جـان» الـذي بـدا أن ذلـك يسليه وأنـه مسرور به، وتحت نظر «ناتاليا» التي بـدت غير متفهمـة لـذلك أبـداً. وبـالطبع فـإن العجـوز الطيـب «نيقـولا»، الزميـل القـديم «الثمـل» قـد حـضر بـدوره، وبعـد أن تم تقديمـه بـاحترام، لناتاليـا، توجـه إليهـا، قـائلاً:

- أنـت الـتي اختطفتيـه منـا؟ كنـا قلقـين عليـه، لـو أنـك تعلمـين. ولكـن، لاحظـي، أنا لو كنت مكانه لما رجعت إلى هنـا أبـداً وضـحك ضـحكة مرحـة وبريئـة، كمـا يفعـل الرجـل الظريـف، وجلس بهـدوء واطمئنان إلى مائدتهم:

- أتقدمون لي كأساً، احتفالاً بذلك؟

فقال «جيل»:

- لم نـكـن نحتفـل بـشيء أبـداً، كنـا نحتفـل بطمأنينتنـا، حتـى وصولك.

فقال «نيقولا» وقد تـأثر قليـلاً، وهـو علـى أي حـال، كـان يـشعر بالعطش:

- يا إلهي، يا إلهي، ولكنه غيور!... وأنا متأكد أن السيدة ستكون مسرورة جداً، ونحن نشرب، تحيةً لأول زيارة تقوم بها للنادي.. لأني لم يسبق لي أبداً أن رأيتك هنا، أليس كذلك؟ ولو رأيتك لكنت تذكرتك وأستطيع أن أؤكد لك ذلك وأعدك به...

وتناول الزجاجة عن المائدة، وهو يبتسم بمودة «لناتاليا»، وصب لنفسه قدحاً كبيراً من الويسكي. وبدا «جيل» غاضباً لا سيما وهو يرى عيني «جان» تبرقان في الجانب الآخر من المائدة، ولديه رغبة قوية بأن يضحك. و «ناتاليا» التي كانت تجلس بجانبه لم تقل شيئاً.

فقال:

- اسمع، يا «نيقولا» إننا نتحدث في شؤون العمل.

- إذا كنتم تتحدثون بشؤون العمل، فإن السيدة ستشعر بالملل، أتريدين أن ترقصي معي، يا سيدتي؟

وفجأة، أخذت «ناتاليا» تقهقه ضاحكة، ومثلها فعل «جان» ولم يعودا يستطيعان التوقف عن الضحك. بدافع من المرح الطبيعي، واقتدى بهما «نيقولا» وهو يملأ لنفسه قدحاً آخر. وظل «جيل» لوحده محتفظاً بجديته ووقاره وهو يشعر بالمذلة وبالغيظ.

وقال «جان» هو، هو لو أنك كنت ترى رأسك... كانت عينا «ناتاليا» طافحتين بالدموع لكثرة ما ضحكت، وأبدى «جيل» ابتسامة خفيفة، مغتصبة. كان يشعر برغبة جامحة بأن يفارق هذين

الأحمقين، وأن يذهب ليسكر مع أصدقائه القدامى، الجالسين إلى مائدة أخرى. وبعد كل شيء، فقد مضى زمن طويل لم ير فيه باريس، وإذا كانت جميع الجهود التي يبذلها من أجل مداراة ومراعاة حساسية خليلته، ستؤدي به إلى هذا، فما عليه إلا أن يتخلى عن ذلك. وهذا كان سهلاً.

وسأل «ناتاليا»:

- لماذا لا تذهبين وترقصين؟

فأجابته:

- لا أجيد هذه الرقصات، وأنت تعرف ذلك جيداً، وقالت لنيقولا: «لا ينبغي أن تستاء مني، يا سيدي، فأنا قادمة للتو» من الريف.

- يا إلهي، ومن أي مقاطعة في الريف؟

- من مقاطعة «الليموزين».

- من «الليموزين»؟ أحبها لدرجة العبادة، حتى أن لي فيها أقارب. هذا إذن... هذا يشرب نخبه! «جيل» لنشرب نخب «الليموزين».

عند ذلك، وتحت نظر عيني «جيل» الحائرتين، بدأ حديث مطول بين «ناتاليا» و «نيقولا» عن جمال وسحر الريف، وعن موسم الحصاد، جني المحاصيل، وقطاف العنب، وهذا الأخير هو ما أعجب به «نيقولا» بشكل خاص أكثر من غيره، وكانت الساعة تشير إلى الثانية صباحاً، عندما انصرف «جان» وكان هو نفسه يبدو فرحاً واصطحبهما إلى أمام مدخل منزلهما وكانت

«ناتاليا» تترنح قليلاً ، وكان مزاج «جيل» متعكراً ، فحضر بعض الجمل اللاذعة ، وهو في الحمام، ولكنه عندما عاد إلى غرفة النوم، كانت قد استغرقت في النوم، فاستلقى بجانبها ، وأمضى فترة طويلة ، قبل أن يستطيع النوم.

٣

وفي اليوم التالي، استيقظت، وهي تبدو حائرة ومندهشة كيف أن بعض الناس، رغم إفراطهم في الشراب واحتسائهم عدة كؤوس زيادة عما ينبغي، ومعاناتهم من شعور خفيف بالذنب ينامون ملء جفونهم، ويشعرون عند استيقاظهم بأنهم نشيطون وجاهزون للعمل. وأخذت تنظر إليه بمكر وتكتم. فلم يستطع أن يمتنع عن الابتسام. وقال:

- ماذا بك، هل حلمت جيداً بـ «نيقولا»؟

فقالت:

- أعبد «نيقولا» ، فهو يبدو ككلب ضخم، فقال «جيل»:

- كلب ضخم، سكير ومدمن على الكحول، نعم، وبالمناسبة ، أنا لم أكن أعرف أنك تستطيعين احتساء الخمر.

ونظرت إليه ، ترددت قليلاً ، ثم قالت:

- ذلك... ذلك لأني كنت خائفة جداً. فأنا لا أعرف أحداً، وأنت تعرف الجميع، وكنت أبدو مضحكة للغاية بجانب كل أولئك الفتيات...

فنظر «جيل» إليها منذهلاً وقد بدا عليه الاضطراب. وأضافت:

- نعم، كنت أرتدي فستاني القصير الأسود وكانت كل تلك الفتيات بملابس «ديانا» آلهة الصيد. وكنت تبدو منزعجاً بتقديمي إلى الجميع وتعريفي بهم...

فقال «جيل»:

- هذا، هو الأهم، إنه الأدهى والأهم من كل شيء...

أتعتقدين حقاً أني يمكن أن أخجل بك أمامهم.

كان قد استلقى على السرير وهو يمسك بها إلى جانبه. وكانت تشعر بالخوف... «ناتاليا» التي لم تكن تخاف من شيء، التي تحدت مقاطعة «الليموزين»، والتي هجرت زوجها، «ناتاليا» هذه، خافت من نادي رواده كحوليون، أي شباب لطفاء يحتسون الكحول. كان «جيل» يشعر برغبة بالضحك وبالتأثر والرفق بها، في آنٍ معاً.

فقالت، بصوت، ينم عن التفكير الحالم:

- ليس أن تخجل بي، بالحقيقة، وليس الخجل، بل الملل، فيمكن أن تشعر بالملل، ولذلك كنت مسرورة جداً برؤية «نيقولا» وهو يجلس معنا.

- ولكن، كان هنالك «جان»، وهو معجب بك، ويرى أنك مدهشة، «جان»، هذا.

- على أي حال، «جان» هو قبل كل شيء صديقك، وتستطيع أن تعمل به أو أن تعمل بي أي شيء، وهو سيصفح عنك. وأني حتى لأتساءل، فيما إذا كان، بطريقة معينة، لا يحب بأن يراك تتصرف بشكل سيء.

فقال:

- مجنونة أنت.

ومع ذلك، فقد أخذ يتذكر، آنذاك، بعض عبارات «جان» التي تعبر عن البهجة والسرور، عندما كان «جيل» نفسه يعاني مما كانوا يسمونه جميعهم فترات أزمته، وأن أي تجاوز أو خطأ أو حماقة يرتكبها كانت تبدو لجان، جيدة. وكان «جان» يحاول تهدئته، ورده إلى جادة الصواب، ولكن بنوع من التسامح اللاهي الذي ينم تقريباً عن الإعجاب، والذي كان، في معظم الأحيان، يجعله ينطلق أكثر فأكثر فيما يرتكبه من أخطاء. وعلى أي حال، فإن المرء لا يعرف شيئاً عن أصدقائه، ولا عن التأثير الخفي، الذي يظل، في بعض الأحيان، مجهولاً من قبلهم بالذات، والذي يمارسونه عليك. ومع ذلك، فإن الفكرة عن «جان»، «جان» الطيب، بأن يكون موجهه السيئ للشر، كانت فكرة غريبة وسخيفة. ولذلك، أخذ «جيل» يضحك، وقال:

- تجعلين كل شيء مطروحاً للنقاش، فهل تنوين أن تقلبي حياتي وتشويشها، هكذا؟!

- لا يبدو لي أنك، راعيت حياتي وداريتها كثيراً.

قالت ذلك بوداعة وهدوء، وكانت تنظر إليه مبتسمةً وقد أغمضت عينيها، قليلاً. وربما أنها قد خافت من جميع أولئك الناس

ليلة البارحة، ولكنها لم تكن تشعر بأي خوف منه، في ذلك الصباح. وكان هذا، بادياً عليها بوضوح.

وقال:

- أنت امرأة قاسية ومتحجرة العاطفة. لا تخافين شيئاً. وعلاوة على ذلك فأنت «كحولية» تحتسين الخمر، وبالإضافة إلى ذلك أيضاً، فأنت منحرفة وضالة، وأنهى كلامه، وارتمى عليها، وهو يقول: يجب أن أقدمك إلى «جيلدا» وأعرفها عليك.

- ومن هي «جيلدا» هذه؟

كان آنذاك فوقها، يشعر برغبة بها ويشتهيها، وليس لديه أي رغبة بأن يتحدث عن «جيلدا»، ومع ذلك، فقد أجابها، باقتضاب وغموض:

- إنها امرأة منحرفة.

فقالت:

- كل النساء يمكن أن يكنّ منحرفات، وأنا كذلك، كما تعلم... وهذا لا يعني شيئاً، الانحراف، ماذا يعني؟... المتعة، عندما نحب أحداً ما...

فقال:

- اسكتي، أيتها الثرثارة.

وذهبا لتناول طعام العشاء، في مطعم «ليب» «LIPP» في وقت متأخر جداً. وتابع «جيل» تعريف الناس على «ناتاليا» وتعريفها عليهم، ولكن بكل يسر وارتياح. وبعد ثلاثة أيام، سيبدأ العمل، وخليلته جميلة، وهو يحبها. وكان سعيداً، وأخذ يتساءل كيف

أمكن له أن يكون ذلك الشبح المرتعش والفاقد العزيمة، البائس، قبل ذلك الحين بثلاثة أشهر. فلا بد من أنه كان منهكاً جسدياً، في تلك الفترة، حتى دون أن يدرك ذلك ويتبينه. أما اليوم فالعالم له وفي متناول يده. وكان يرغب باحتساء الشمبانيا، ومن الحماقة احتساء الشمبانيا مع «الملفوف المملح والمخلل»، ولكنهما، مع ذلك، احتسيا الشمبانيا.

ثم ذهبا لمشاهدة فيلم سخيف، في السينما المجاورة، وأمضى «جيل» الوقت، وهو يوشوش، ويهمس في أذن «ناتاليا» العبارات التافهة والسخيفة، الأمر الذي كان يغيظها، لأنها تبدي عادة، لأي مشهد، جدية واهتمام الأطفال بما يعرض أمامهم من مشاهد. وعلاوة على ذلك، فقد كانت تلح عليه، بشكل أثار لديه الملل، منذ ثلاثة أيام، من أجل الذهاب لمشاهدة مسرحية ثقافية، كانت، على ما يبدو جميلة جداً، ولكن مجرد التفكير بذلك، كان يجعل الدم يتجمد في شرايين وأوردة «جيل» فلم يكن قد ارتاد أي مسرح، منذ سنوات عديدة. وكانت الأمسيات التي يخطط لها، ويتم التفكير بها مسبقاً، تزعجه كثيراً، ولم يكن يهتم بما كان يسميه جانبه الريفي، بل كان يستخف به ويزدريه. وكان يقول:

- لديك مزيد من الوقت، فأنت لا تزورين باريس لتمضي فيها أسبوعاً وحسب. ولست ملزمة بأن تري كل شيء خلال أسبوع واحد، لكي تتحدثي عن كل ذلك وترويه للسيدات المتطوعات لخدمة الصليب الأحمر في «ليموج».

فكانت تقول:

- ولكني أحب هذا، وأنت لا تتفهمه. ومعك أنت إنما أرغب بالتحدث عنه، بعد ذلك.

فكان يتمتم شاكياً:

- هذا مفرح، لقد عثرت على امرأة مثقفة.

فكانت تجيب دون أن تضحك:

إني لم أكتم ذلك ولم أخفه عنك أبداً.

وكان تفكيره بـ «ناتاليا»، عشيقته، بذلك الجسم المتطلب والحار، وقد تحولت إلى مفكرة ومثقفة، يجعله يضحك إلى أن تطفر الدموع من عينيه. ومع ذلك، فإنه أحياناً، عندما يتبين له بإحدى العبارات، أو بشيء بسيط من أدق التفاصيل، مدى عمق واتساع ثقافتها، بالمقارنة مع ثقافته هو وبالنسبة لها، كان يشعر بشيء من الدهشة. ومن المؤكد، أنها قد أتيح لها الوقت للقراءة والمطالعة، خلال ثلاثين سنة أمضتها في الريف، ولكنها بالفعل كانت تحب ذلك. وعندما كان يقول بدافع من تعبه، إحدى التناقضات (كالرأي المخالف لآراء الناس) أو أحد الأفكار العامة المبتذلة، الدارجة آنذاك، كانت تلومه على ذلك، دون تسامح، بشيء من الغيظ الذي يتسم بالدهشة كما لو أنه قد بدا فجأة، غير جدير بشخصيته بالذات.

فكان يقول:

- يا عزيزتي - وإن كان متأكداً من نقيض ذلك - لست رجلاً ذكياً جداً. يجب أن تقتنعي بهذا وتتقبليه.

وكانت ترد ببرودة، مختلفة معه في الرأي:

- كان يمكنك أن تكون كذلك، لو لم تكن قد تخليت عن استخدام ذكائك لأمر آخر، غير حياتك الشخصية والخاصة، فليس لديك أي أثر للفضول ولحب الاطلاع. وإني لأتساءل كيف ولماذا احتفظوا بك في تلك الصحيفة.

- لأني نشيط في عملي، أعمل كثيراً وبجد، وأنا لطيف جداً، وأضرب جيداً على الآلة الكاتبة؟

فهزت كتفيها وأخذت تضحك. ولكن كان في ضحكتها شيء من الضغينة. وعندما كان يصل بها الأمر إلى هذا الحد، كان «جيل» مع ذلك، يبدو مسروراً. فقد كان، على الدوام يحب كثيراً أن يلام و «يوبخ». وكان كل ذلك ينتهي طبعاً بكلمات الحب، وحركاته، وكان «جيل» عندما يمسك بها ويجعلها تحت رحمته، عبر المتعة واللذة، يسألها بصوت متقطع ومبتور، عما إذا كانت تحب ما يعمله لها عشيقها الأحمق. وكان يقوم بذلك في تلك اللحظة الشهية والساحرة من الحب، حيث يحلو للمحبين ويحبون لدرجة العبادة أن يتشاجروا، وحيث لا يستطيعون حتى أن يتصوروا أن هذه المواضيع المتعلقة بمعارك حانية وناعمة يمكن أن تكون الخمائر، والملائكة المبلغة والمعلنة عن معارك أقل مرحاً وبهجة.

٤

للمرة الأولى منذ شهرين، وهو يعمل، شعر بالرغبة بأن يحتسي كأساً لوحده في إحدى الحانات، قبل العودة إلى المنزل. كان يبدو له الأمر ظريفاً، أن يتصرف كشاب، الشاب الحر، عندما يكون أحد ما يحبه، وهو واثق منه، ينتظره في مكان ما. كانت مقاهي وحانات باريس تشكل انحداراً بالنسبة للرجال المتوحدين والمنفردين ولكنها عبارة عن وسيلة ومحفز للعشاق السعداء. وقد استغل الوقت حتى لتوجيه المديح والثناء «لنادلة» ساقية الحانة، ولتصفح إحدى الصحف المسائية. ولم يتساءل لماذا لم يرجع مباشرة وعلى الفور إلى المنزل، وكل ما هنالك هو أنه كان ممتناً من «ناتاليا» لصنعه من هذه المهلة الحمقاء التي فرضها على نفسه، قبل أن يعود ويلتقي بها، صورة سعيدة، غنية وتامة، بصورة مسبقة لحريته. فالمرء لا يكون أبداً حراً، إلا بالنسبة لأحد ما، وعندما يكون متمتعاً بالسعادة مثله، تكون تلك

أكبر حرية في العالم. كان قد اشتغل كثيراً في ذلك اليوم، وفي المساء كان عليه أن يتناول طعام العشاء مع «فيرمون»، «جان» و «ناتاليا». وكان يجهل حتى ذلك الحين، فيما إذا كان «فيرمون» سيأتي مع زوجته. ومن المحتمل أنه لن يصطحبها، لكونه هو و «جان» سيصطحب، كل منهما عشيقته. وكان عليه أن يعود بسرعة إلى المنزل لكي يغير ملابسه. والحال هي أنه كان لديه شعور براحة البال، بالخمول والاسترخاء في تلك الحانة، وكان من الصعب هز ذلك الشعور أو تغييره. وعندما سيصل إلى المنزل، ستكون «ناتاليا» هناك دون شك، وهي متعبة من تلك الجولات والاكتشافات التي تقوم بها دون توقف في باريس: في متاحفها، شوارعها وأحيائها، بولع متجدد كل يوم، والتي كانت تجعله، في كل مرة، متشككاً ومرتاباً، بعض الشيء. وأصبحت آنذاك تعرف شوارع ومقاهي، وقاعات لعرض اللوحات والصور، لم يكن قد سمع بها، وكان يتساءل بقلق وباستعجال، ماذا ستفعل، بعد أن تنتهي من التجول في هذه المدينة ومن اكتشاف كافة معالمها؟ كانا يتناولان كل يوم طعام العشاء، خارج المنزل، في أحد المطاعم، ويذهبان إلى النادي في بعض الأحيان، حيث كانت في كل مرة تنزوي مع مجموعة كبيرة من الناس الظرفاء الذين كان يعرفها عليهم، وتبدي على الطريقة الروسية، التعلق والمحبة لـ «نيقولا» وتخصه باهتمامها، وبجيل أيضاً، أثناء تلك السهرات. وكان يلاحظ بدهشة، علاوة على ذلك، أن هذا الأحمق الكبير «نيقولا» قد قرأ كثيراً، وأنه خبيث ومحتال، وربما كان نسبياً «صائماً» لم يتذوق المتع والملذات، وأنه سيقع بسرعة في حب

«ناتاليـا». وأخـيراً كـان ذلـك مـسلياً، بمـا فيـه الـكفايـة: فبـدلاً مـن الحديث عن أخلاق ممثل معروف في تلك الفترة، أخذوا يتحدثون عن أخلاق أحد أبطال الكاتب «زولا»، وإن كان لا يكاد يوجد هنالك أي أثر للحداثة أو للتجديد، فما كان يتعلمه، مع ذلك، لم يكن قليل الشأن. وكانت «ناتاليا» تصرح بعد ذلك، بحماسة وعنف، أنه كان مخجلاً ومعيباً، بالحقيقة ألا يعثر «نيقولا» على منتج يتمتع بقدر كاف من الذكاء لكي يعهد إليه بثلاثمائة مليون، وإنه كان أمراً عجيباً أن هذا الشاب لم يصبح أكثر غيظاً وسخطاً وكان يدعها بالأحرى تقول، وهو مفتون بها دون أن يريد أن يشرح لها بأن «نيقولا» كان خاملاً كالدودة، لا يعمل ولا ينتج شيئاً، وهو مع ذلك يتمتع بوجاهة عامة، مدمن على الكحول، حتى الموت، بعد ست فترات معالجة وحماية، لم تحقق أي نجاح، وهو عاجز منذ عشر سنوات. بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ. وكان «جان» ينضم إليهم، في بعض الأحيان، مصحوباً بـ «مارت» عشيقته، البقرية الشكل، التي كانت تبدو بشكل واضح أن الذعر قد انتابها، حيال «ناتاليا» وأحاديثها، وكأنها حيال ارتكاب مخالفة للآداب العامة لأنها كانت تعتقد أن النساء يجب عليهن التزام الصمت والإصغاء إلى ما يروى من أحاديث. وفي بعض الأحيان كان يبدو في نظرة «جان» تعبير عن الاستياء، شبيه، بعض الشيء، بما كانت تعتقده عشيقته. ولكن «جيل» كان يعرف سبب ذلك: فمنذ خمس عشرة سنة، كانا يتحدثان سوية، فوق رؤوس نساء شابات، خاضعات ومرغوبات: وأن تتواجد فجأة بينهما هما الاثنين، واحدة منهن، مرغوبة وناشطة، في آن معاً، فإن هذا

لا يمكن أن يثير لديه سوى الغيرة أو الحسد، أو أحد أنواعهما الودي الذي يحصل بين الأصدقاء، وهو يكون أسوأها، في معظم الأحيان. ولكن «جيل» وهو المتسامح، بدا زاهياً فخوراً وهو يصغي لنتاليا وهي تسأل، تعترض، وترد أحياناً بقسوة، دون أن يبدي أي اعتراض. فبعد ساعة أو ساعتين، ستكون له، خاضعة مستسلمة، كما لا يمكن أن تكون أبداً غير هكذا، وهذا كان يكفيه عن سعة. و «مينرفا»، آلهة الحكمة هذه، ستتحول بسرعة إلى عاشقة متيمة، وهو يعرف ذلك، ،إذا كانت لم تألف بعد البيجامات أو أحذية «صيادات» النادي، ولم تستخدمها فإن رأسها الزاهي والفخور، وعينيها الخضراوين، والنوع من العنف الذي يحتويه جسمها، كل هذا يجعل الفستان القصير الأسود والعقود القديمة، التي تتمسك بها، تختفي في الحال. وعلى العكس من ذلك، كان في كل هذا بالنسبة لجيل، نوع من الإثارة الجسدية والجنسية، تجذبه لينظر إليها ويتأملها، وليصغي لتلك المرأة الشابة، القديمة الزي، وهي تتحدث عن «بلزاك»: (BALZAC) بحماسة وشغف، هذه المرأة الشابة التي كانت تخاطب جميع أولئك الذين يخوضون الليالي، كمن يمشي وهو نائم، أولئك الثرثارون المعروفون والمألوفون بصيغة الجمع، قائلة لكل منهم: «أنتم». هذه المرأة الشابة التي يعرف أنها ستكون عارية، ودون شك، أكثر حرية في ممارسة الحب، من أي واحدة من هؤلاء النساء الشابات «اللواتي يرتدين أحدث الأزياء»، بعد بضعة ساعات. وعلاوة على ذلك، فإن بعض النظرات المعبرة ببلاغة، التي كان يلقيها بعض الرجال، الخبراء حقاً بأمور النساء وبجمالهن، في ذلك النادي جعلته يدرك أنه محسود!

أقيمت حفلة العشاء في مطعم كبير، يقع على ضفة نهر «السين» اليمنى. وبسبب «جيل»، فقد وصلوا متأخرين قليلاً. وأتى «فيرمون» بمفرده، واعتذر عن عدم حضور زوجته، بجملة جعلت «جيل» و «جان» يبتسمان وألقى نظرة على «ناتاليا»، ودهش دون شك، لأنه لن يتناول عشاءه مع إحدى نجوم السينما، وأوصى على أطباق وجبة العشاء، وقد بدا عليه بعض الاضطراب. و «مارت» التي من المؤكد أن «جان» قد أوصاها ونبهها لبعض الأمور، كانت توجه إليه نظرات تنم عن الإعجاب، والإعجاب الدائم. فشعر «جيل» برغبة شديدة بالضحك. كان يعرف أن «فيرمون» مسرور منه، كما كان الفضول يدفع «ناتاليا» للتعرف عليه. وكل شيء سيسير على ما يرام. وبالفعل، فقد سار كل شيء على ما يرام في بداية الأمر. وسأل «فيرمون» «ناتاليا» فيما إذا كانت تحب ذلك المطعم، فأجابته بأنها سبق لها أن ارتادته، عدة مرات مع زوجها، وأنه يقدم «محارات» لذيذة. و «فيرمون» الذي كان على ما يبدو مطلعاً على قصتها. أخذ يسألها عن أحوال مقاطعة «الليموزان»، فكانت تجيبه باقتضاب، ثم اتخذ الحديث، بعد ذلك منحى عاماً، أكثر مدعاة للارتياح. وكان «لفيرمون» و «لناتاليا»، القسط الأكبر فيه، وفي نهاية الأمر. كان في نظرته إليها، شيء من التساؤل، كما لو أنه كان يتساءل عما يمكنها أن تجد مع شخص مثل «جيل». فأدركت «ناتاليا» ذلك، ووجهت ابتسامة رقيقة جداً وحانية إلى عشيقها، جعلته يمسك يدها، خلال تلك اللحظة، تحت المائدة. وكان «فيرمون» آنذاك، يرغب بأن يحظى بالإعجاب، فأخذ يتحدث، بعد أن شرب قليلاً، وكانت عينا «مارت» المستديرتان، ترف جفونهما، من شدة الاهتمام.

وقال «فيرمون»:

لدينا أوضاع صعبة تماماً، فالأحداث متناقضة جداً...

فقالت «ناتاليا»:

- إنها هكذا، على الدوام.

فقال «فيرمون»:

- وآخر الأمر «ينبغي على القلب أن ينسحق ويتحطم، أو أن يقسو ويصبح كالبرونز» على حد قول «ستندال».

فقالت «ناتاليا»:

- أعتقد أن «شمفور» هو الذي قال ذلك.

- عفواً؟

كان «فيرمون» قد توقف، دون أن تبدر منه أي حركة، وهو يمسك بشوكته مشرعة في الهواء. فهو يرغب تماماً بأن يدعو معاونيه لتناول طعام العشاء، بل وحتى عشيقاتهم، ولكنه لم يكن يحب كثيراً أن يتلقى دروساً في الثقافة. ووجه «جيل» ركلة بقدمه إلى «ناتاليا» فحدجته بنظرة تنم عن الدهشة والاستغراب.

وقال «فيرمون» أخيراً، بتصميم:

- إني آسف لمخالفتك في الرأي، ولكن «ستندال» هو الذي قال ذلك. ، اعتقد حتى أن هذا ورد في روايته «LA CHARTREUSE» «الراهبة الشارترية».

هذا ما أضافه، بلهجة حالمة، أخافت «جيل» لأنها دلت على بعض الشك - الذي يثبت أن الحق كان مع «ناتاليا».

وقال بتسرع:

- على أي حال، فالجملة مدهشة.

فقال «فيرمون» مخاطباً «ناتاليا»:

- إذا سمحت، فإني سأتحقق من الأمر.

وأضاف موجهاً كلامه إلى «جيل» بصوت عذب، وهو صوته، عندما يغضب عادة:

على أي حال، فأنا مسرور، لأني أرى أنك تعرف امرأة مثقفة، فهذا يفيدك ويجعلك تتغير، بل وتتحسن قليلاً.

فخيم صمت قصير، وانحنى عند ذلك «جيل» وقال:

- شكراً.

وكان غاضباً بعض الشيء، آنذاك، من «فيرمون» لأنه يعتبره فظاً، ومن «ناتاليا» لعدم تصرفها بكثير من اللباقة. وقد احمر وجهها قليلاً، هي أيضاً، وحلت دقيقة من الصمت الثقيل، وفي اللحظة المحددة التي كاد فيها «جيل» أن ينتشي من عذوبة الثناء الذي تلقاه، سمع بالقرب منه صوت «ناتاليا» تقول:

- إني آسفة جداً، فلو إني كنت أعرف أن تصحيح عبارة، يمكن أن يزعجك إلى هذا الحد، لكنت لزمت الصمت.

فقال «فيرمون» مع ابتسامة خفيفة:

- لا شيء يمكنه أن يزعجني إذا كان صادراً عن امرأة جميلة وظريفة.

فتبادر إلى ذهن «جيل»: «سينتهي بي الأمر لأصبح مستخدماً جوالاً في تلك الجريدة» ووجه نظرة، تنم عن التوسل، نحو «جان» الذي كان يتابع كل ذلك، دون أن يبدر منه أي تعليق أو أن يبدو عليه أي

تأثر. بل لقد كان حتى مسروراً، بصورة ضمنية وخفية. ولكنه هل كان كذلك لأنه رأى «فيرمون» أخيراً، وقد أخطأ وارتبك أم لأنه رأى «ناتاليا» تضع «جيل» في موقف حرج ومزعج»؟...

وبدت الفترة الأخيرة من تناول طعام العشاء، باردة ومملة، وافترق الجميع في وقت مبكر جداً. وعندما أصبح «جيل» و «ناتاليا» لوحدهما في المنزل، التفتت نحوه:

- أنت غاضب، أليس كذلك؟ لقد كان مزعجاً جداً..

فأنا نادراً ما رأيت رجلاً متبجحاً ومدعياً إلى هذا الحد.

فقال «جيل»:

- ومع ذلك، فهو الذي يؤمن لنا حالياً وسائل معيشتنا.

فقالت بعذوبة وهدوء:

هذا لا يبرر أن نخلط بين «ستندال» و «شمفور». وألا نميز ما قاله هذا عما قاله ذاك، خاصة، بتلك السلطة الحمقاء..

فقال «جيل»:

- حمقاء أم غير حمقاء، إنه رئيسي.

كان منزعجاً، لسماعه جملاً كهذه، يلفظها هو. وكان يشعر بأنه «موظف حديث السن» أو «مستخدم، تقدمت به السن»، وعلى أي حال، ليس محرر الوقائع المرح والخبير الذي كان يريد أن يكونه. وذلك بسبب هذه المرأة، التي كانت تبتسم، وهي جالسة بالقرب منه فلماذا، بعد كل شيء، لا تتصرف بشكل يساعده في عمله؟ فهي تعلم تماماً أن الأمور ستكون وستظل على ما هي عليه، وأن هنالك حالات، ينبغي على المرء فيها أن يرضي الآخرين، ولو اختنق، مع

احتمال أن يكون مستعداً لأن يضحك؟ بعد قيامه بتصرف ينم عن النذالة والجبن.؟ وليس بالإمكان التصرف باستقامة وبصدق في باريس سنة ١٩٦٧ ، في تلك المهنة. وكان ذلك واضحاً وبديهياً ، وهنالك نوع من سوء النية في الإصرار على ذلك والتمسك به؟ فلماذا تضع في كل مكان ذلك المطلق، التام والقائم بذاته، وتبدي ذلك النفور من الحلول الوسط، التي كانت هي الوحيدة، التي تتيح لك أن تعيش بهدوء واطمئنان، وليس غيرها أبداً؟ وكان يشعر وكأنها قد خذلته، وقال لها ذلك.

فردت عليه، قائلة:

- لو أني كنت أحب الحلول الوسط والمؤقتة، لما كنت هنا، بل كنت بقيت في «ليموج» وأذهب لممارسة الحب معك، كل خمسة عشر يوماً.

- إنك تخلطين بين العواطف، وبين المفاخر والأعمال المأثورة.

فقد لحقت بي لأنك أحببتني ولأني أحببتك، ولم يكن هنالك ما ينبغي عمله سوى ذلك. وهذه الضرورة لم تكن موجودة بشكل بديهي، مساء اليوم، في تصرفك مع «فيرمون».

- أردت فقط أن أقول، وبكل بساطة، إني لو استطعت تحمل هذا الرجل، لكنت استطعت تماماً أن أتحمل حياتي السابقة، وهذا كل ما هنالك.

كان «جيل» يشعر بشيء ما، يحنق ويتذمر في داخله، نوع من الضغينة والحقد، لم يكن قد سبق له أبداً أن تبينه وميزه لديه بهذا الشكل.

- الخلاصة، وباختصار، أنت مسرورة بالدور الذي تقومين به: دور المرأة التي تخلت عن كل شيء من أجل عشيقها، تتجول على المتاحف، تبتهج كثيراً بمشاهدة الأعمال الفنية، وتكتشف أبطال بعض أعمال «تشيخوف» في جماعة من أمثال «نيقولا» الذين تلتقي بهم في النادي، المرأة السامية، التي تتمسك بالأمور بشكل مطلق، وتتعلق بالمصادفة «بكتيب» بكاتب بسيط، بل بصحفي تعيس، ضعيف، وذي طبيعة أقل جودة منها، وهي المرأة الحقيقية، المتفهمة، المتحمسة والمدلهة، المرأة التي...

فقاطعته، قائلة:

- نعم، إني بما فيه الكفاية، امرأة كاملة. ولكني، من جهة، لست فخورة بذلك، ومن جهة أخرى، كنت أظن أنك قد أحببتني من أجل ذلك، أيضاً.

فقال، بشيء من الشرود:

- ... وعلاوة على ذلك، فهذا صحيح وحقيقي، وأنت محقة وعلى صواب، بشكل دائم.

فقالت:

- «جيل»!

فنظر إليها. كان في عينيها ذعر مخيف. فضمها بين ذارعيه. والحقيقة هي أنه كان يتصرف كنذل كبير: كان يتركها لوحدها، في تلك المدينة المجهولة، طيلة نهارات بكاملها، ويصطحبها لتناول طعام العشاء، مع أناس تافهين، ويلومها على كل ذلك. وربما كانت تشعر بملل قاتل في باريس. وربما كانت

جهودهـا اليائسة للاحتفاظ بظل من الكرامة لشخصها، بصفتها خليلة معروفة لرجل مثله، لم تكن عائدة إلا إلى غريزة المحافظة وحب البقاء، الحيوية بالنسبة لها بقدر ما هي حيوية لحبها الشديد له.. فلماذا لا تتزوجه؟ لقد اقترح عليها، عشر مرات، أن تتزوجه، وعشر مرات، رفضت ذلك. وعلاوة على هذا، فإنه من جهته كان يعرف أنه بالحقيقة كان يخاف من الزواج، بغباء وبرجوازياً، وبحجة تحاشي البرجوازية، بالضبط. وكان من الممكن أن توافق وأن يكون عليها أن تقول: «نعم» وبعد أن تحصل على الطلاق وتجره من شعره إلى دائرة العمدة، أياً كانت التحفظات والمخاوف التي تتبينها لديه، فهنالك لحظات ينبغي فيها على المرء أن يرغم الناس ويلزمهم بما يريد، وأن يكف عمداً عن المحاولة والرغبة بأن يفهمهم وحيث ينبغي عليه أن يتصرف بنفسه ولمصلحته، وضدهم بالذات، ولخيرهم، كمحصلة، في نهاية الأمر. ولكن هذا، فهي لن تستطيع أبداً أن تفعله، ومن أجل هذا، إنما كان يحبها. وكان الأمر يبدو مبهماً معقداً، يتعذر حله.

وقال لها، برفق وحنان:

- تعالي، ونامي، لقد أصبحنا في ساعة متأخرة من الليل.

ففي ذلك السرير الكبير، على الأقل، لن يكون هنالك مشاكل. ولا شك بأنها كانت تشاطره رأيه، لأنه بدت أكثر شغفاً، ورقة مما كانت عليه في الليالي الأخرى. وحوالي الساعة الخامسة صباحاً، استيقظ ورأى «ناتاليا» جالسة بالقرب منه ساكنة لا تبدر منها أي حركة تدخن سيجارة عبر الظلام، وقد

جحظت عيناها. فأراد أن يستيقظ تماماً وينهض، لكي يسألها مستوضحاً عما بها، ولكن شيئاً ما، في داخله، جعله يغمض عينيه من جديد، ويلزم الصمت، كأي نذل جبان. ويمكن أن يتبادلا الشرح والتوضيح غداً - فيما إذا كان هنالك ما ينبغي شرحه وتوضيحه.

٥

- هل تتناول قدحاً صغيراً من الكونياك؟ فلدينا مزيد من الوقت.

فتبادر إلى ذهن «جيل» بغضب شديد: «يمكنني أن أتناول «دزينة» أقداح. كانوا في أحد تلك المطاعم التي ينبغي أن يتناول المرء فيها بأي ثمن كأساً ويتذوق ما تقدم من لحم مطبوخ. وبعد ما يقرب من ساعة، سيكونون جالسين في شرفة أحد المسارح لكي يشاهدوا المسرحية الشهيرة التي أرادت «ناتاليا» أن تراها. كانت قد التقت في باريس، بإحدى صديقات الطفولة، وهي ذكية، ولكنها قبيحة الشكل، وقد تزوجت بشكل سيئ من رجل يعمل في الصناعة، مرح ومهذار. وكانت قد دعتهما إلى ذلك العشاء، بعد أن أنذرتهما مسبقاً بالملل الذي سيسببه لهما زوجها. وحالما جلست أخذت تتحدث بمرح مع صديقتها القديمة، عن أحداث طفولتهما، تاركة «جيل» وزوجها

المخبول يتدبران أمورهما. وهؤلاء، بعد أن استعرضا أخبار السوق المالية (البورصة)، الضرائب، والمطاعم، والسياسة والحركة «الديغولية»، كان «جيل» قد أخذ يشعر، أنه على وشك الإصابة بأزمة عصبية.

- عليك أن تصدق صديقك «روجير» - كما قلت لك، يا «جيل»

- سنكون بحاجة لذلك، فأنا، من جهتي، المسرح يجعلني أنام على الفور. وزوجتي تجرني إليه كل شهر، على الأقل.

فتبادر إلى ذهن «جيل» وهو مشمئز، ويشعر بالقرف: «ها هو قاسم مشترك بيننا»: الناس المساكين الذين يعملون طيلة النهار وتضطرهم «سيداتهم الصغيرات إلى الخروج، في المساء».

وتابع «روجير» حديثه، قائلاً:

- خاصة وأن التلفاز، هو ما هو، وأنا أتفق معك على ذلك، ولكنه، في بعض الأحيان يعرض أشياء مفيدة وهامة. فيجلس أحدنا على أريكة مريحة، يدخن، يحتسي كأساً، وهو مرتاح في بيته، ولا يدفع ثلاثة آلاف فرنك، لكي يقضي وقتاً، يشعر خلاله بالملل الشديد، أليس هذا حقيقياً؟

فقال «جيل» بحزم وتصميم:

- أنا أحب المسرح كثيراً، ولكني، مع ذلك، أحتسي الآن كأساً من الكونياك.

فبدأت «ناتاليا» كلامها قائلة:

- وأنت تذكر.. فعن أي شيء كنتما تتحدثان، أنتما؟

وألقت على «جيل» نظرة تنم عن التوسل، وعن الاعتذار.

فقال بلهجة ساخرة:

- كنا نتحدث عن المسرح. والسيد... عفواً... «روجير» يفضل التلفاز.

فقالت صديقة الطفولة:

- إني أجد صعوبة جنونية لإقناعه بالخروج، وقد توصلنا إلى اتفاق: مرة في الشهر، ، أصطحبه بالقوة لمشاهدة إحدى المسرحيات.

فقال «جيل» إلى «ناتاليا» وهو يبتسم بخبث:

- سنصل، بالتأكيد إلى ذلك، فالاتفاقات تشكل عامل قوة بين الاثنين.

فلم تبتسم «ناتاليا»، فقد كان على وجهها مسحة واضحة من الأسى والضيق، وقد كانت تبدو مرحة قبل قليل، لدرجة أن «جيل» قد استاء من نفسه، فهي، بعد كل شيء، لا تعرف في باريس أحداً، سوى هذه الصديقة البائسة، وهي لا شأن ولا علاقة، لها إذا كان الزوج هو ما هو عليه، وكانت مسرورة بالذهاب إلى المسرح. فلماذا يفسد لها أمسيتها؟

وقال لها:

- أتريدين كأساً من الكونياك؟

وأمسك يدها عبر المائدة، وهو يبتسم. فوجهت له نظرة تنم عن الامتنان، فشعر «جيل» فجأة أن قلبه قد انقبض، فهو يسيء لها ويسبب لها الألم، أو أنه يهم بأن يفعل ذلك. وهذا ما كان يحسه ويشعر به. فماذا يمكن أن تعمل لها، بعد كل شيء، أمسية مملة؟ فقد كان عليها أن تمضي أمسيات كثيرة أخرى، منذ ثلاثة أشهر،

مع أصدقائه. ومع ذلك كان ينبغي تماماً القول بأن لا أحد لديه إمكانية الثرثرة والهذر الفظيعة التي يتمتع بها «روجير»، هذا، وينبغي على المرء أن يكون من الريف، لكي يتعرف على باريسيين مثله.

وقالت صديقة «ناتاليا»:

- يجب أن نسرع، ثم وجهت كلامها إلى «جيل»:

«إنك لا تستطيع أن تتصور كم أنا سعيدة لأن «ناتاليا» أصبحت أخيراً تقيم في باريس. وسوف نرى بعضنا كثيراً، إني آمل ذلك....؟

كان في نبرة صوتها تساؤل مشوب بالقلق. فهي لا بد تعرف هذا الذي تزوجته. ولا يمكن أن تلام على ذلك، فهو أمر منطقي، على أي حال: فتاة قبيحة الشكل في الريف. باريسي يمر هناك. وكان ذلك منطقياً تماماً. ولكن «جيل» كان يكره عملية التشبيه التي تجريها بين حالتها وحالة «ناتاليا». فقد كان صحيحاً أنهما ترتديان ملابس متشابهة بعض الشيء، وأنها قد حصلت بينهما مناقشات حماسية وحادة كالتي تحصل بين تلميذتين لا يمكن أن يتوقع أحد سماعها بين باريسيتين، تكونان عادة مشغولتين بشؤون زوجيهما وبأمور أخرى، ونادراً ما تلجأن لمثل هذه المناقشات الثنائية، ولكن «ناتاليا» جميلة وليست برجوازية، وهي تحبه. وها هو يبتسم، ويقول:

- بالتأكيد، سوف نذهب من وقت لآخر، لمشاهدة بعض أفلام رعاة البقر، الأميركية، على سبيل التغيير، ليس إلا.

فقال «روجير» متذمراً:

- كان هنالك بالضبط، هذا المساء، أحد هذه الأفلام في التلفاز، وفي المرة المقبلة يا عزيزي، سوف نبقى نحن الاثنين في المنزل كعازبين، ونرسل النساء لمشاهدة قصصهن. فما هو رأيك؟

وكان مجرد تصور تلك الأمسية قد أرعب «جيل»، بصورة واضحة لدرجة أن «ناتاليا» أخذت تضحك، بشكل عصبي، وكانت لا تزال تضحك خفية وفي سرها، وهما في قاعة المسرح، ومدت يدها عبر الظلام فأمسكت بيده، فدس يده تحت معطفها، وأخذ يتحسس فخذها، لإثارتها ولكي يجعلها تضطرب، ولكنها لم تعد تنتبه إليه، وانصرفت بكل جوارحها لمتابعة المشهد، الذي كان بالحقيقة، جميلاً جداً، ولكن «جيل» الذي كانت أعصابه متوترة ومعدته مثقلة بذلك العشاء اللعين، لم يكن يصغي للحوار إلا بأذن واحدة.

وفي فترة الاستراحة ذهبوا لاحتساء الويسكي، وهو أمر لا بد منه، وبينما كانت المرأتان تتناقشان بحماسة وشغف، و «روجير» يحتسي بعض الكؤوس الإضافية، وهو كئيب النظرات، كان «جيل» ينظر حوله، متفرساً في المشاهدين. فبدا له أن مقاطعة ريفية بكاملها قد التقت في موعد لها هناك. وكان يوجد بعض الأزواج والزوجات في سن الشباب، وآخرون في سن متقدمة، وبأعداد مختلفة. ونساء يرتدين الملابس المزينة بأنواع مختلفة من فرو الحيوانات الأميركية «كالظربان أو الفيزون»، والجميع كانوا بصورة عامة يرتدون ملابس الخروج والأعياد، أي أفضل وأجمل ما لديهم من ملابس، وبدوا مزدهين وفخورين بوجودهم هناك وقد أخذوا يتحدثون

ويتناقشون في موضوع المسرحية والأفكار التي يعرضها المؤلف من خلال حوار الممثلين بطلاقة البرجوازيين الفرنسيين المزيفة.

وبعد أن تناولوا كأس الوداع الذي لا غنى عنه، في إحدى الحانات الموحشة، الكائنة قرب المسرح، افترقوا. وفي سيارة «السيمكا» القديمة، التي استردها «جيل» أخيراً، التزم بصمت حذر، وسادي بعض الشيء. وفي النهاية خرقت «ناتاليا» ذلك الصمت بصوت مشوب بالحزن:

- لقد شعرت بملل شديد، ومزعج، أليس كذلك؟

فقال «جيل»:

- كلا، فالمسرحية كانت جيدة جداً. أنذهب إلى النادي، لنحتسي الكأس الأخير؟

فقالت «ناتاليا» دون أن تجيبه على سؤاله:

- لقد كانت فتاة طيبة جداً، تتمتع بخيال حالم وواسع.

فقال «جيل»:

- إنها تبدو ظريفة، ومن المؤسف أن تكون قد تزوجت هذا الشخص.

- نعم، إن هذا مؤسف جداً.

فالتفت نحوها وابتسم، ثم قال:

- «ناتاليا» أتعلمين أني أحبك؟

ولم يكن يدري لماذا قال لها ذلك، كان يشعر وحسب أنه يجب أن يقوله لها. فوضعت يدها على يده التي تمسك مقود السيارة، وضغطت عليها دون أن تجيب. وكانا قد وصلا إلى النادي.

وقد أحدث الدخان وضجيج الأصوات الحادة ووجه المراقب المعروف عند الباب، على «جيل» أثر دفقة الهواء البارد والندى. وكان مع ذلك، من الغرابة بمكان التفكير بذلك وعثرا فوراً على منضدة صغيرة، واحتسيا بسرعة كأسين. وشعر «جيل» بنوع من المرح الذي ينم عن الارتياح: وكانت لديه رغبة بأن يسكر، ويروي الحماقات، وأن يتخاصم مع أحد ما على سبيل المزاح، وأن يعمل أي شيء. وفجأة لمح «جان» في الجانب الآخر من القاعة، مع مجموعة من أناس مجهولين، فأشار لهما بيده، فنهض «جيل» في الحال واصطحب «ناتاليا». وهكذا، فإنه سيجد نفسه مع جماعة يخوضون الليالي كمن يمشي وهو نائم، جماعة من المنحطين، المدمنين على احتساء الكحول، والذين لا يصلحون لشيء. ولم يعرف «ايلوييز» إلا بعد أن اقترب من المنضدة. كانت فاتنة، وقد بدت له غريبة الشكل في لباس قصير من الجلد، وتزينت بكثير من السلاسل. وابتسمت له، دون تحفظ، وألقت نظرة تنم عن الرضا والإعجاب وجهتها إلى «ناتاليا»، وقدمت لهما أميركياً طويل القامة، كان ثملاً بعض الشيء، كعادة بعض النساء بتقديم عشاقهن. وكان «جان» يبتسم وهو ينهض لاستقبالهما، وأجلس «ناتاليا» بالقرب منه، فهي بالتأكيد ستحدثه عن المسرحية، وهو يحب هذا النوع من الأحاديث. وهكذا، فقد سارت الأمور على ما يرام، واستطاع «جيل» أن يبدو شاباً نشيطاً ومرحاً. فأمسكه الأميركي من منكبيه، وحاول عبر ضجيج الموسيقا أن يقول له شيئاً، لم يتوصل «جيل» إلى فهمه:

- «ايلوييز» وأنت...؟ سابقاً؟ نعم؟

وكان يشير بسبابته، على التوالي إلى «ايلوييز» وإلى «جيل» وهو يضحك. ففهم «جيل» عند ذلك، ما كان يريد أن يقوله الأميركي، وأخذ يضحك، بدوره، وقال:

- نعم، لقد كانت صديقتي.

والتقت نظرته بنظرة «ناتاليا» فابتسم وقد بدا بالحقيقة، مزهواً لكونها عرفت «ايلوييز» وهي بذلك الشكل، على وجه الخصوص. فقد كان ذلك يشكل إطراء وتدليلاً له ولها.

وصاحت «ايلوييز» عبر الصخب الذي يسود القاعة:

- إنه هو الذي جعلني أتعذب.

فقال الأميركي، وهو يهز «جيل»:

- شخص سيء، والآن، أنت تعيش لوحدك؟

فصاح «جيل» - لأن الموسيقا ازدادت قوة وصخباً -

- كلا، إني أحب هذه السيدة.

- إيه سيدة؟

فأشار بإصبعه إلى «ناتاليا»، ولاحظ أنها انزعجت قليلاً، فلم يلح على ذلك. وكانت قد أدركت ماذا يقولان، وماذا في ذلك؟ فقد كان يقول أنه لشاب طيب وظريف يحبها. ولم يكن ذلك يشكل تطفلاً أو إفشاء لسر، بل كان عبارة عن ألفة تلقائية، وحماسة ليلية، دون أي أهمية. واحتسى قدحاً كبيراً من الويسكي. فبعد تلك الأمسية المملة، كان له الحق تماماً بأن يروح عن نفسه ويسترخي، على أي حال. فهو يستحق ذلك.

وسأله «جان»:

- هل أحببت المسرحية؟

فأجابه:

- عبدتها، أحـ... بب... تها... حتى العـ... با.... دة!

فأخذ «جان» يضحك، والتفت نحو «ناتاليا». وكان «جيل» يشعر أنه مرح جداً، لا يلام على شيء وغير مسؤول عن أي شيء، وتلك السهرة المزعجة جداً، قد انتهت بشكل مريح، وعلى ما يرام.

وقالت له «ايلوييز»:

- يمكنك أن تراقصني، كذكرى للأيام السابقة الحلوة.

لم يكن يجيد الرقص ولا يحبه، ولكن أي أهمية لذلك؟ فقد لاحظ من جديد أنه يقوم بانزلاقات وبعثرات في حلبة الرقص، وسط جمهور من الراقصين مرح وسادي. وكان الرجال ينظرون كثيراً إلى «ايلوييز» وقد لفتت أنظارهم بملابسها «الطرزانية».

وقالت له:

- يا إلهي، أنت تدبر أمورك دائماً، لكي ترقص بشكل سيء.

فضحك دون أن يرد عليها، فقد استعاد ذكرى عطرها. لقد كن ظريفات كل تلك النساء، كنصب وشواخص بل كنقاط علام في دروب ومسالك الحياة.

وتابعت، قائلة:

- وماذا بالنسبة لباقي الأمور؟

فقال لها:

- لقد أصبحت متهتكة ووقحة جداً، ولكني لا أستطيع أن أجيبك أو أن أرد عليك هنا.

ولماذا لا، بعد كل شيء؟ سيكون ذلك مسلياً أن أمارس الحب من جديد ذات يوم مع «ايلوييز» هذه الجديدة. كان ذلك عبارة عن جناس وتلاعب قاسٍ، ولا بأس به بالألفاظ، قاله لها، ولم يبد عليها أنها فهمت. أما «ناتاليا»، من جهتها، فيمكنها أن تفهم ذلك، فهي مثقفة، وآنذاك، كانت تمر بالقرب منه وهي بين ذراعي الأميركي، الذي كان يراقصها وهو يتعثر قليلاً، بينما كان يبدو عليها الملل. فتبادر إلى ذهنه، بنوع من الغيظ: «هيا، إلهي وتسلي»! وعاد «جيل» و «ايلوييز» إلى مكانيهما، بينما ظل الأميركي و «ناتاليا» يرقصان.

وقالت «ايلوييز»:

- لا يبدو على صديقتك أنها مسرورة، وأنها تلهو وتتسلى.

فقال «جيل»:

- لا بد من أن صديقك «الصغير» يهشم لها قدميها.

فقالت «ايلوييز»:

- أنه لطيف جداً.

فتبادر إلى ذهن «جيل»: «إنها قبل شهرين، لا يمكن أن تقول عن أي رجل أنه «لطيف». فلا بد من أنها كانت قد اكتشفت الرجال الأشرار معي». وبتأثير الكحول انتابته موجة عاطفية مفاجئة:

- قولي لي إنك سعيدة، يا «ايلوييز».

فقالت بجفاء، وقد أشاحت عنه بوجهها:

- إذا كان ذلك يسرك.

وفي تلك اللحظة نفسها، مرت من أمامه «ناتاليا» وهي تنحني بشكل يكاد ينم عن الألم، فاحتسى قدحاً آخر. النساء جميعهن متشابهات، فهن لا يشعرن بالسعادة أبداً. والذنب في ذلك هو ذنبك على الدوام، ولم يكن هنالك بالتأكيد سوى الرفاق والزملاء، وألقى نظرة تتسم بالتواطؤ والمشاركة، على «جان» فرد له «جان» النظرة نفسها. وعادت «ناتاليا» فنهض. ولكنها ألقت عليه نظرة تنم عن الريبة والتردد، وسألته:

- ألست متعباً؟

فها هي الآن ترغب بالعودة إلى المنزل، في اللحظة التي أخذ فيها يلهو، بالضبط عندما بدأ يلهو ويتسلى، أخيراً!...

فقال لها:

- كلا، هيا بنا لنرقص.

ومن حسن الحظ، أن الرقصة كانت آنذاك هي «سلو» (SLOW) وهي رقصة «فوكستروت» قديمة وبطيئة من رقصات الصيف. فتذكر، فجأة، حفلة الرقص في الهواء الطلق، عند أولئك الناس، بالقرب من «ليموج». وتلك الرقصة التي انتزعها من «ناتاليا» عندما شعر بالغيرة من أخيها، وتلك القبلات الحارة والجنونية، التي تبادلاها خفية، خلف إحدى الأشجار...

و «ناتاليا» كانت تتمايل ببطء وهدوء، بين ذراعيه، وهي ملتصقة به، وكان يشتهيها بعنف وقوة، فهو يحبها، وهي حبيبته الريفية، رفيقته الجميلة، مجنونته. فانحنى، وهمس كلاماً في أذنها، فوضعت رأسها على كتفه. فلم يعد هنالك أصدقاء ولا خليلة سابقة، ولا رفاق متفاهمون، لم يعد هنالك أحد سواها.

وبعد ذلك، بوقت طويل، انصرفا عند بزوغ الفجر، وكان على «ناتاليا» أن تقود هي السيارة. فهو بالكاد كان يستطيع الوقوف على قدميه، ولكنه كان يكثر من الكلام، ويبدي بعض الأفكار الغامضة والقوية في آن معاً وكان يعرف في واقع الأمر ما الذي كان يحصل بينهما. وطيلة الفترة التي كان خلالها مريضاً، وكانت تعتني به كأنه طفل صغير، كان آنذاك يشعر بأنه متكامل، وقد جمع قواه كلها في ذلك الحب. والآن، وقد أصبح من واجبه أن يعتني هو، بدوره بها، وأن يدافع عنها ويحميها، فأخذ يشعر بأنه قد تفكك، وانقسم إلى اثنين، فمن جهة، هو «جيل» السابق والقديم، ومن جهة أخرى «جيل» عاشق «ناتاليا» المتيم. وشرح لها كل هذا بصوت ركيك، يشوبه التردد، بينما كانت تساعده على الاستلقاء في السرير لكي ينام، ولكنها لم تجبه ولم ترد عليه.

وفي اليوم التالي، أيقظه عند الفجر، أحد عمال محل لبيع الزهور حاملاً حزمة كبيرة من الأزهار والورود فروت له «ناتاليا» وهي تتثاءب أن الأميركي، ظل يطلب منها أن تتزوجه طيلة تلك الليلة.

٦

ظل «يجتر» غيظه وضغينته طيلة النهار فهو مع هذه المرأة يقوم على الدوام بدور المغفل الأحمق. فهو لا يفقه شيئاً في المسرح، ولا الشيء الكثير في الآداب، ولا شيء أبداً فيما يتعلق بالذوق وبالحس السليم، وإذا حصل بالمصادفة أن تكلم عما يعتقد أنه مجاله الخاص، فكانت هي تسبقه وتتجاوزه ولا بد من أنها قد ضحكت كثيراً، عندما رأته يغازل المسكينة «ايلوييز»، «ايلوييز» هذه، التي كان عشيقها الغني، وهو ليس مجنوناً، على أتم الاستعداد لأن يهجرها، في تلك اللحظة بالذات، من أجلها هي: أي «ناتاليا» لأن لديها شيئاً أنثوياً تماماً، وجاذبية جنسية قوية. تكمن خلف مظهرها الأنيق والذي ينم في آن معاً عن القوة والثبات، وكان ذلك الأميركي قد اكتشف كل هذا وشعر به عبر كل ما احتساه من الكحول. وعندما عاد «جيل» إلى غرفتهما، صباح ذلك اليوم، حاملاً باقة الزهور، وهو

يبدو في وضع مضحك، فهقهت هي ضاحكة، حتى قبل أن يشرح لها الموضوع. وظل برهة بالقرب من السرير، وهو يتمتم: «هذه هي القضية، إذن، هذه هي القضية» حتى اللحظة التي انتزعت من يديه باقة الزهور، وهي تضحك، ثم نهضت لكي تضمه إليها وتعانقه.

- إيه، ولكن، ماذا قلت له؟

- إنه ظريف ولطيف جداً، ولكني أحب شخصاً آخر. وأضافت بفتور ودون اهتمام: وقد نسيت أن أشير إليك، بإصبعي.

فقال «جيل» وهو يحاول أن يضحك:

- إن لديه شيئاً من الوقاحة.

ولكنه كان منزعجاً. فهو لن يستطيع أبداً أن يقوم بدور حسن ومناسب معها، وهذا كل شيء. وهي تحبه، بالتأكيد، ولكنها بالأساس أقوى منه. وتبادر إلى ذهنه في تلك اللحظة، بأن هذا دون شك هو الذي أنقذه مما كان يعاني منه، قبل ثلاثة أشهر، ولكنه في الوقت نفسه، كان يبحث عن وسيلة لكي يبرهن لها، عكس ذلك. وعندما فكر في الأمر، تبين له أنها هي منذ بداية علاقتهما، التي كانت تقوم بجميع المبادرات. والشيء الوحيد الذي قام به هو، كان تسريع انطلاق تلك المبادرات وتنفيذها. فهي التي اختارته، أغرته، أقنعته وجذبته للعيش معها. وهي التي سوف تملي وتقرر تماماً، خلال بعض الوقت، نمط وطريقة معيشتهما، فيما لو ترك لها الحرية والمجال لكي تفعل ذلك. والشاهد على هذا، هي أمسية البارحة. وإن كانت، بالتأكيد، هذه هي المرة الأولى. خلال شهرين، التي تفرض عليه، فيها عملاً بل وضعاً شاقاً، ولكن لا بد لكل شيء من بداية. ومن

رجل منزعج ومستاء، أخذ يتحول إلى رجل مقيد ومسير. وأخذ يعمل بشكل سيء، وقد تعكر مزاجه تماماً، فقرر أن يذهب لزيارة «جيلدا». فلم يكن قد مر عليها منذ عودته، لكي يسلم عليها على الأقل، وهذا تصرف لا يتسم بالكياسة والظرف. وعلاوة على ذلك، فإن «جيلدا» تتمتع بميزتين هامتين: فهي أولاً تظل على الدوام بجانب الرجال، وتؤيدهم تماماً، وثانياً فهي تستطيع التزام الصمت، بل وهي تجيد ذلك. وفي الساعة السادسة وصل إلى منزلها، وتذكر منذ أن عبر المدخل، تلك الأمسية الفظيعة التي أمضاها في هذا المنزل، مساء يوم من أيام الربيع، وهو ينتظر امرأة، وفي النهاية، عندما أتت، فإنه لم يفتح لها الباب. كان ذلك «قبل ناتاليا» وتبين له ذلك، بعد أن كاد يلزم الصمت. إذ أن «ناتاليا» كانت سره، زوجته، فلا ينبغي له أن يتحدث عنها إلى أحد، فهذا أمر معيب، وهو دون شك، أحد الأمور النادرة التي لا يمكن أن تغفرها له أبداً. ولكنه كان قد جلس على الأريكة الكبيرة الحمراء، وفي متناول يديه كاس من الشراب البارد، وقبالته، جلست تلك المرأة الودودة والفضولية، رفيقته وشريكته القديمة في مغامراته الجنونية الماضية. فأخذ يشعر بأنه قد عاد شاباً فتياً. فعلى أي حال، وبعد كل شيء، فإن قصة حب، هي قصة حب.

وقالت «جيلدا»:

- ماذا هناك؟ تبدو مرحاً وبصحة جيدة، يا «ذئبي» الصغير بل أنت سعيد جداً، على ما يبدو.

فقال، باسترخاء:

- نعم، سعيد جداً!

فهي تحصل دائماً على جميع المعلومات.

- لماذا أتيت إلى هنا إذن؟ وماذا ستعمل؟ (وأخذت تضحك).

ثم أضافت:

عندما يأتي الرجال إلى منزلي، فلكي يمارسوا الحب، أو لكي يبثوني شكاواهم، وليتحدثوا عن همومهم ومشاكلهم، وأنت لا يبدو عليك شيء من ذلك، ولست على الخصوص، مشبوب العاطفة. إذن، ماذا تريد؟

فبدأ، قائلاً:

- الأمر معقد، بعض الشيء...

وتكلم.... وظل يتكلم، مغيراً الوقائع قليلاً لصالحه، كارهاً نفسه لكونه يفعل ذلك. وبدا محبطاً ومنهكاً تماماً عندما أنهى حديثه.

وقد أصغت إليه دون أن تنبس ببنت شفة، محدقة به، وهي تدخن سيجارة بعد أخرى، وقد بدت كما كان يلقبها هو في سره، كقارئة الكف، ونهضت عندما انتهى من حديثه وصمت، خطت ثلاث خطوات في القاعة وهي تتمايل وتحرك قليلاً ردفيها، ثم عادت فجلست وأخذت تحدق به. وأخيراً بدت في وضع مضحك وسخيف، فأخذ يتساءل لماذا أتى إلى هنا، وماذا يفعل آنذاك. فتبينت فجأة بريق الخبث في نظراته، وعند ذلك، ثارت أعصابها:

- إذا كنت قد فهمت جيداً ما رويته لي، فإن هنالك امرأة قد تسلطت عليك وألقت عليك شباكها، ولم تعد تستطيع الخروج منها.

فانتابت «جيل» موجة من الغيظ، وقال:

- ليس هذا هو الذي حصل، لقد نسيت الجانب الهام، فأنا لم أذكر لك الجانب الهام في الموضوع.

والجانب الهام، كان حرارة «ناتاليا» وتجويف عنقها، عندما كان ينام، عطفها وحنانها اللذين لا ينضب لهما معين، صدقها وإخلاصها التامين، والثقة التي لا حدود لها، التي يوليها إياها. كل ما لم تستطع أن تعرفه هذه «النصف - عاهرة» المترفة، مع كل مفاسدها التي لا قيمة ولا أهمية لها ولكن، ماذا يفعل هو إذن هنا؟

- وما هو، الهام؟

كان قد نهض، وأخذ يتمتم، بدافع من الغضب أو من الخجل، فهو لم يعد يعرف، ولا يستطيع التمييز بين الأمرين، وقال، بصعوبة واضحة:

- لقد أسأت الشرح والتعبير عن أفكاري، عليك أن تنسي كل ذلك، وأن تعذريني.

فقالت:

- عندما تكون قد ذهبت إلى قاضي الصلح، عليك أن تعود لكي تقابلني، فأنا، كما تعلم، هنا على الدوام.

ففكر بكراهية: «نعم أنت هنا، على الدوام، وستظلين هنا على الدوام، لممارسة النذالات والسفالات ولإشباع رغبات الرجال الذين يعرفونك وتعرفينهم. وأنت من ذلك النوع من النساء اللواتي يفترض أنهن يجعلننا ننسى كل شيء من الحياة، لكثرة ما يدسسن أنوفهن في شؤوننا ويتدخلن فيها».

كان قد أصبح بالقرب من الباب، عندما قال لها:

- ليست هي التي ألقت شباكها علي، كما قلت ولكني، أنا الذي تعلقت بها.

فقالت، وهي تضحك ثم أغلقت الباب:

- إذن، كان عليك أن تروي لي قصة أخرى.

كان يرتجف من الغضب وهو نازل على الدرج، ولكنه لم يكن يعرف جيداً ضد من هو غضبان. واجتاز باريس، بأقصى سرعة، وركن السيارة، كيفما اتفق، وتسلق الدرج مسرعاً. ولكنه سمع، خلف الباب ضحكة «ناتاليا» وصوت رجل. فأخذ نفساً عميقاً: فماذا لو كان هذا الرجل هو «الأميركي»؟ إنه سيهشم له وجهه وسيكون في ذلك منفعة كبيرة له وللأميركي، كليهما. وبدلاً من أن يستخدم مفتاحه، قرع الجرس، وقد رأى أن في ذلك، شيئاً من اللياقة والأناقة. ولكن ضحكة «ناتاليا» كانت مستمرة، عندما فتحت له الباب. وقالت:

- احذر من هنا!

كان أخوها واقفاً عند مدخل غرفة الانتظار، وهو يبتسم. ولا بد من أن تعابير وجه «جيل» كانت غريبة وغير طبيعية، لأن «ناتاليا» سألته:

- ولكن من كنت تعتقد أنه موجود هنا؟

فقال:

- لا أدري، نهارك سعيد، مرحباً بك يا «بيير».

- أكنت تعتقد أنه «والتر»؟

- ومن هو «والتر»؟

- الأميركي الذي التقينا به مساء البارحة، وكنت الآن، بالضبط، أتحدث عنه إلى «بيير»، و...

وارتمت على أريكة، والدموع تسيل من عينيها من شدة الضحك. وكان أخوها بقربها وقد أخذ يضحك أيضاً، فشعر «جيل» بنوع من السعادة تغمره. فقد كانا هناك كطفلين، يتسمان ببراءة الطفولة واستقامتها، وقد بدا منظرهما أخاذاً ومطمئناً، كشخصين طبيعيين وسويين، فلا يزال هنالك أشخاص أسوياء. وارتمى على إحدى الأرائك، متعباً ومسروراً: فهو في بيته، في وضع عائلي، بعد نهار من الحماقة، تعود إلى طباعه التي تتسم بالحماقة.

- منذ متى أنت هنا؟

- منذ صباح اليوم، كان لدي يومان لا عمل لدي خلالهما، ورغبة شديدة برؤية «ناتاليا». إذ أن رسائلها لم تكن تكفيني.

هل كانت تكتب كثيراً لأخيها؟ بين زيارتين تقوم بهما لبعض المتاحف؟ وماذا كانت، إجمالاً، تعمل طيلة أيامها؟ كان هو، من جهته، يروي لها كل شيء عن عمله، كل يوم، عند عودته إلى المنزل، وكانا يتناقشان كالمجانين، في الشؤون السياسية، وشؤونه الصحفية والأصدقاء، ولا شيء، أبداً، عن حياتها اليومية، ولم يسبق لها أبداً أن حدثته عن شيء يتعلق بها، وفي الأساس عن أي شيء يتعلق بحياتها، فيما عدا حبها له. وماذا يمكنها أن تكتب لأخيها: «إني سعيدة... أشعر بالسأم... «جيل» لطيف... «جيل ليس لطيفاً»...؟ وألقى نظرة على «بيير»، محاولاً أن يرى انعكاس تلك الرسائل على تعابير وجهه، ولكنه لم ير شيئاً؛ فضول يتسم بالمودة والمحبة، ولا شيء أكثر من ذلك. كلا، فلا

بد أنها متكتمة مع أحدهما كما كانت متكتمة مع الآخر. وتذكر تلك الساعة التي أمضاها في منزل «جيلدا» فانتابه خجل شديد.

وقال بلهجة سريعة:

- أليس لديك ما نشربه؟

إن «ناتاليا» كربة بيت، ضعيفة جداً، تثير الشفقة والرثاء.

فقال «بيير»:

- «ناتاليا» تعتبر نفسها ضيفة، مدعوة في كل مكان، وعلى الدوام، ولا تستطيع شيئاً حيال ذلك. وكان يبتسم. فأسرعت «ناتاليا» نحو البراد، وظلا لحظة لوحدهما، فقال «بيير».

- أختي تبدو سعيدة.

كان يتكلم بهدوء واطمئنان، ولكن كان في صوته دائماً تلك النبرة التي تتسم بالتهديد، وهي نفسها التي بدت في صوته في «ليموج»، أثناء تلك الأمسية الشهيرة، وهذه الصفة: «الأخ الشريف» أثارت قليلاً حفيظة «جيل».

فقال:

- إني آمل أن تكون كذلك.

فاستأنف «بيير» الكلام بهدوء قائلاً:

- يسرني كثيراً أن أكون قد أخطأت في تقديراتي السابقة، وعلى أي حال، فإن «ليموج» تبدو موحشة بدونها.

فقال «جيل»:

- يؤسفني ذلك، ولكن باريس تصبح أيضاً موحشة بالنسبة لي، بدونها.

- هذا هو الأمر الهام، بالواقع، وهو كل ما كنت أريد معرفته.

- ألم تكتب لك؟ ألم تحدثك عن ذلك في رسائلها؟

فأخذ «بيير» يضحك:

- «ناتاليا» لا تتحدث أبداً عن عواطفها، ولا بد من أنك تعرف ذلك.

وعادت وهي تحمل صينية، وبدت مرتبكة ومنزعجة قليلاً، فنهض «بيير» بسرعة، وتناولها منها.

نعم، فلا بد من أنها ظلت تتمتع بالحماية طيلة حياتها، ومحبوبة طيلة الحياة، ولا بد من أنها تشعر بالخوف معه، في كثير من الأحيان بسبب نرفزاته العصبية كالطفل المدلل. وكان بينها وبين أخيها نوع من التبادل والمعاملة بالمثل ومن الامتنان المتبادل. وذكرى ألف من المبادرات الجيدة والخدمات الحسنة المقدمة والمتلقاة، وألف خدمة مجانية وأخذ «جيل» يتمنى، فجأة، لو أنه قد عرف ذلك، في حياته، هو أيضاً. ولكنه لم يكن يذكر سوى أنه كان له مع أخته علاقات ساذجة بعض الشيء، وكانت تبدو وكأنها من جانب واحد وحسب، ومع النساء، بصورة عامة، لم يكن له سوى معارك صامتة ومحزنة، كانت تتخللها لحظات من السعادة، ولكنها كثيراً ما تختتم بانتصارات لها طابع الهزيمة وطعمها، أو بهزائم واضحة المعالم.

وقال:

- لماذا لا تذهبان وحدكما لتناول طعام العشاء؟

فتكونان أكثر طمأنينة وهدوءاً، وأنا سأنام في وقت مبكر، لأني متعب، وقد أفرطت في الشراب مساء البارحة.

وكان يتوقع أن يسمع بعض الاحتجاجات، ولكن «ناتاليا» بدت مسرورة بذلك:

- ألا يزعجك ذلك، ويجعلك تشعر بالسأم؟

فأنا لم أر «بيير» منذ زمن طويل...

فقال «بيير»:

- حقاً!

فأخذ «جيل» يفكر: «يا لك من مسكينة يا «ناتاليا» فأنت لم تري أي شخص مناسب منذ زمن طويل. والحقيقة، من هم الذين رأيتيهم؟ «نيقولا» الضال والضائع إلى الأبد، «جان» الذي يغار منك، صديقتك البائسة، التي لا بد من أنها تعيش حياة مرة المذاق، وبين الساعة الثامنة مساءً والصباح، السيد الحزين الذي هو أنا، والذي دفعك الجنون لأن تحبيه». وهز رأسه:

- كلا، بالحقيقة، اذهبا وحدكما وتناولا طعام العشاء، فإذا لم أنم، فسأتناول معكما كأساً من «الزهورات» عند عودتكما.

وعندما ذهبا، فتح التلفاز وأغلقه بسرعة، التهم قطعة من اللحم، وهو واقف قرب البراد، ثم ذهب فاستلقى على السرير. كان لديه رواية بوليسية رائعة يريد مطالعتها، وبقربه زجاجة كبيرة من مياه «ايفيان» الغازية، علبة سجائر، ومعزوفات موسيقية جميلة في المذياع. والوحدة لها سحرها وفتنتها، من وقت لآخر. وهو، بالأساس، كان على الدوام انعزالي، يميل كثيراً إلى العزلة والوحدة، وقد استغرق في النوم وهو يتمتم، متخيلاً صورته تلك، دون أن يطفئ المصباح.

٧

ومع مرور الوقت، قررت «ناتاليا» أن تعمل. وصرحت إلى «جيل» بأنها عثرت على مركز ظريف ومريح جداً، في إحدى وكالات السفر، وبراتب مغرٍ وأن ذلك سيتيح لهما معالجة أزمات أواخر الشهور التي غالباً ما تكون صعبة. فأخذ يضحك في بداية الأمر، منزعجاً بعض الشيء، لأنها تصرفت بمفردها ودبرت العمل بدون مساعدته، ولاهياً، مسروراً، لفكرة رؤيته «ناتاليا» جالسة خلف أحد المكاتب.

- أيمكن أن تكوني قد انتهيت من زيارة جميع المتاحف؟

ماذا بك؟

فقالت:

- ليس لدي ما أعمله طيلة النهار، وهذا يجعلني أشعر بالملل.

- وماذا كنت تعملين في «ليموج»؟

فقالت بهدوء:

- في «اليموج» كانت لدي مشاغلي.

فقهقه ضاحكاً: هذه المرأة مجنونة.

وقالت:

- أعرف أن هذا يبدو غير معقول، ولكن، كما تعلم فإني كنت أقدم بعض الخدمات لكثير من الناس...

فقال:

- ومع ذلك... فأنت كسيدة أعمال... كنت تقضين كل فترات بعد الظهر في سريري.

فقالت:

- كان ذلك في فصل الصيف، وفي فصل الشتاء، تكون الظروف قاسية جداً، بالنسبة للناس الفقراء.

كان ينظر إليها، وقد انتابه الذهول:

- إذا كنت قد فهمت ذلك جيداً، فلو أني أتيت إلى بيت أختي في فصل الشتاء، لما كنت قد تعرفت عليك أبداً؟

فبدا عليها التردد، واحمر وجهها، وقالت:

- بلى، ولكن ليست هذه هي المسألة. فتلك الوكالة ظريفة جداً، ومديرها لطيف، وهو صديق أخي «ببير» كما أنه من المسلي تنظيم الرحلات للناس: فسوف أرسلهم إلى «البيرو» إلى «الهند» وإلى «نيويورك».

فقال:

- إذا كنت ستقومين بذلك لدوافع وأسباب مادية، ففي ذلك شيء من الحمق والغباء، ويكفي أن ننتبه، ونضغط نفقاتنا قليلاً.

وكان بديهياً أنه هو بالأحرى، الذي كان يبذر، وينفق النقود دون حساب، ودون أن يعرف كيف كان يحصل ذلك: بين الأصدقاء، في البارات والحانات، على سيارات الأجرة، وعلى الدوام كانت النقود تتسرب من بين أصابعه، وإذا كانت «ناتاليا» تستطيع الخروج، وشراء الملابس المناسبة، فهي مدينة بذلك للمائة ألف فرنك التي كانت تتلقاها كل شهر، بفضل مورد من ميراث عائلي، أكثر مما هي مدينة بذلك لجيل، وعلاوة على ذلك، فقد كان قد اشترى لها حلية جميلة كهدية، بمناسبة عيد الميلاد، لم يكن قد أنهى تسديد ثمنها. كلا إن تلك الفكرة، المتعلقة بعملها لم تكن سيئة، ولكنها كانت تغيظ «جيل» دون سبب، أو مبرر محدد.

وقالت:

- ليس ذلك بدافع مادي، بل لأنه يسليني، ويشغل وقت فراغي، ولكنك إذا كنت لا تريد ذلك، فإني أرفضه.

فقال لها:

- تستطيعين أن تفعلي ما تشائين، وبمناسبة الحديث عن الرحلات، متى سيعود بائع الزهور؟

والمدعو «والتر» كان بالفعل يلح كثيراً، ويغرق «ناتاليا» بالورود - ومن هنا كان اللقب الذي أطلقه عليه «جيل» - وبالرسائل العاطفية اللطيفة. وكان عليه أن يقوم برحلة طويلة، وأخذ يرسل البطاقات البريدية الظريفة من أي بلد يمر به، بطمأنينة الرجل الذي قرر الانتظار حتى ولو امتد ذلك إلى ثلاثين سنة، الأمر الذي كان

يضحك «جيل» أو يغيظه، حسب الأيام، وحسب حالته المزاجية. أما «ناتاليا» من جهتها، فكانت متأثرة ومترفقة ولا تكتم ذلك أبداً، كما هي عادتها، الأمر الذي كان بالتأكيد يدعو إلى الاطمئنان، بالنسبة لجيل، ولكنه كان يمنعهما من الضحك على ذلك سوية. وقد سبق لها، فعلاً، أن صرحت بأن أي ولع من أي نوع كان ليس فيه ما يدعو إلى الضحك. وقد أجرت بعض المحادثات المطولة حول هذا الموضوع، مع «غارنييه» الذي كان «جيل» ذات يوم، قد عرفها عليه، وكان لا يزال ينتظر خروج فتاه الصغير من السجن. وعلاوة على ذلك فإن «غارنييه» كان يزيل عن كاهله شيئاً فشيئاً أعباء العمل ويلقي بها على كاهل «جيل» الذي كثيراً ما كان يجدهما، عند عودته إلى المنزل، جالسين قرب المدفأة، وقد أخذا يثرثران بحماسة وشغف. وهكذا فإن «ناتاليا» لديها، مع ذلك، ميول غريبة: فبين «العاجز» «نيقولا»، واللوطي «غارنييه» كانت تزداد حيوية ومرحاً، بينما كانت مرافقة «جان» وهو مع ذلك ذكي، تثقل كاهلها وتزعجها، بشكل واضح. وكانت تقول له، عندما يتحدث إليها عن ذلك: «أنت لا تدرك ماذا هنالك إنه جانب يتسم تماماً بالبراءة، هو الذي أحبه لديهما». فيهز كتفيه، لأنه، من جهته، كان يعتبرهما ثقيلين ويبعثان على الملل، ولكنه يفضلهما كرفيقين لها، على «بائع الزهور» الأميركي.

كانت «ناتاليا» قد بدأت تعمل، وفي معظم الأحيان، تمر مساءً على مقر الصحيفة لكي تلتقي بجيل وترافقه إلى المنزل. وكان العالم يزداد جنوناً بين يوم وآخر، والمناقشات بين المسؤولين

في إدارة الصحيفة، تزداد حدةً وعنفاً. وكان يحصل مع «ناتاليا» أن تمضي ساعة أو ساعتين في الندوة الكائنة في الطابق الأرضي، وهي تنتظر «جيل»، ومن المؤكد أنها لم تكن تلومه على ذلك، بل لقد كانت ترثي له وتشفق عليه. ولكنه عندما يفكر بأنها جالسة وحدها، وأنها، بالضرورة، سوف تشعر بالملل، كان ينزعج ويتألم. وانتهى بهما الأمر إلى الاتفاق، على الالتقاء «في البيت»، مباشرة وبشكل دائم. وهكذا، فإنه، ذات مساء، لم يعد إلى البيت.

كان قد أمضى نهاراً مرهقاً وفظيعاً. إذ أن المدعو «توماس»، «توماس» المزعج، كان قد تجاوز حدود القباحة، وعمد «فيرمون» إلى استدعاء «جيل» لكي يوجه له توبيخاً: لأنه يبدو أن مقالاته كانت «تقليدية» أكثر مما ينبغي، ومجردة من كل ما هو مثير الذي يعجب «القارئ»، ولم يكن «جيل» يعرف هذا القارئ الشهير الذي يريدون تشنيف أذنيه، هذا النموذج للجندي المجهول الذي يسهر على السخافات والحماقات، ولكنه لو أمسك به لأجرى له عملية إصلاح جميلة.

وقال «فيرمون»:

من المؤكد أنه يجب إطلاع «القارئ» بصورة موضوعية، ولكن القارئ يجب أن يتحسس ويتحمس، بل وأن ينفعل بموضوع ما.

فقال «جيل» ساخراً:

- ألا ترى أن الوقائع والأحداث، مثيرة بما فيه الكفاية؟ الحروب في كل مكان، و...

- ليست مثيرة بالنسبة للقارئ إلا إذا شعر بأنه مقصود ومعني بها بصورة مباشرة.

فقال «جيل» وقد عيل صبره:

- ولكنه مقصود ومعني بها. أتريد أن أعطي للقراء عنوان أحد مكاتب التطوع والسوق إلى «فيتنام»؟ ألا تبدو لك الأرقام معبرة بما يكفي من الوضوح والفصاحة؟

وباختصار، فقد خرج «جيل» من هنالك وهو يكاد يجن من الغيظ، واضطر إلى إعادة كتابة موضوعه بكامله. وكانت الساعة آنذاك تشير إلى السادسة مساءً. والتقى مصادفة بـ «غارنييه»، فكلفه بأن يذهب ليبلغ «ناتاليا» عن تأخره، وإذا أمكن، فليصطحبها لتناول طعام العشاء، وبدا أن ذلك قد سر به «غارنييه». وظل «جيل» وحده في مكتبه، أمام آلته الكاتبة، منشغلاً بالردود الموقوتة، التي كان يحضرها لفيرمون أكثر من انشغاله بذلك الموضوع. كانت مكاتب الصحيفة خالية آنذاك، وجيل يمشي ذهاباً وإياباً، في كل الاتجاهات، وهو يشعر بالقرف والاشمئزاز مما كتبه، وحتى من نفسه أيضاً.

ودخل إلى مكتب «جان» فاكتشف زجاجة الويسكي، تناولها، وسكب كأساً كبيرة، ولكن عبثاً، فذلك لم يجد نفعاً. لقد مل من هذه الصحيفة، ولن يتوصل فيها إلى أي شيء، وسيقبع هناك، ويذوي حتى آخر حياته، ويظل يتلقى اللوم والتوبيخ من «فيرمون» الذي يزداد صلافة من يوم لآخر. وستتقدم به السن ويشيخ وتتحول «ناتاليا» إلى سيدة ريفية، وربما تزوجا، وأنجبا أطفالاً.

ويمكن أن يشتريا سيارة ومزرعة صغيرة ويجهزانها جيداً، بما في ذلك التلفاز. ويكون قد ساعدهما الحظ كثيراً إذا توصلا لتحقيق هذا المشروع وبدا له ذلك مرعباً. فهو، «جيل» الذي بإمكانه القيام بجميع التجاوزات، والذي يرغب بالقيام بكثير من الرحلات، هو، «جيل» الشاب، يستمر في إضاعة حياته بين «رئيس عمل» و «خليلة» كل منهما يقيمه، ويحكم عليه على هواه. إيه! إنه لم يعد يريد أن يقيم، ولا أن يسامح ويصفح عنه، ولا حتى أن يدخل في أي جهاز أو تنظيم، إن كان مهنياً أو عاطفياً. فهو يريد أن يكون وحيداً وحراً، كما كان سابقاً، كالكلب الصغير الذي كانه. وأخذ آنذاك، يشرب مباشرة من الزجاجة، ويتذوق غضبه وغيظه، آه! كان من المفروض أن يصحح ما كتبه على صفحاته، كتلميذ مجد، ومحتجز، آه! كما كان يفترض أنه سيعود إلى منزله، ويلتقي بخليلته الوفية والصادقة، إيه، حسناً! سوف يرون. وتناول معطفه الواقي من المطر، وخرج دون أن يطفئ المصابيح. والقارئ الشهير، سوف يدفع الفاتورة.

استيقظ عند الظهر، في سرير مجهول أو بالأحرى معروف أكثر مما ينبغي، في أحد بيوت الدعارة، وبجانبه فتاة ضخمة سمراء، لا تزال مستغرقة في النوم، وهي تشخر. وأخذ يتذكر بشكل غامض، البارات والحانات الليلية الكائنة في حي «مونتمارتير»، ومشاجرة حصلت هناك، ووجه أحد رجال الشرطة. والشكر لله، لأنه اقترف حماقاته على الضفة اليمنى لنهر «السين». ولم يكن يشعر حتى بأي ألم في رأسه، ولكنه يكاد يموت عطشاً. فنهض وشرب ما يزيد

على ليتر من الماء من المغسلة المزخرفة التي كانت تزين الغرفة بظرف وأناقة. ثم ذهب إلى النافذة: وهي تطل على شارع صغير مجهول لا يعرف عنه شيئاً. فأخذ يئن قليلاً، بصورة خفية وداخلية: فكيف أمكنه أن يفعل ذلك؟ وهز الفتاة التي أخذت تغمغم، وهي تحاول أن تستيقظ، وأخذت تنظر إليه وهي مندهشة مثله تقريباً. لقد كانت قبيحةً، حقاً. وقالت:

- إيه، حسناً، أنت... ماذا كنت تقول؟

- أين نحن؟

- بالقرب من الجادات. أنت مدين لي بخمسة آلاف فرنك، أيها الشاب.

- ماذا حصل لي، وماذا فعلت؟

- لا أعرف شيئاً عن ذلك، لقد ألقيت نفسك بين ذارعي حوالي الساعة الخامسة والنصف، فأرقدتك في السرير، وتصبح على خير، وما حصل لك قبل ذلك، فأنا لا أعرف عنه شيئاً.

فأخذ يرتدي ملابسه بسرعة. ووضع ورقة النقد على سرير الفتاة، واتجه نحو الباب. فقالت له:

- إلى اللقاء، يا عزيزي.

- إلى اللقاء.

كانت الشمس ساطعة، وهو في جادة «الإيطاليين». «ناتاليا»، «ناتاليا» أين كانت «ناتاليا» في ذلك الوقت؟ ربما كانت لا تزال في الوكالة التي تعمل فيها، كلا، فهي لا بد من أن تكون، كعادتها، تتناول طعام الغداء في المطعم القريب من مقر الوكالة. واستقل سيارة

أجرة، وهو يشعر أن رأسه فارغ. كان ينبغي أن يراها، وهذا كل ما هنالك. ولكن الوكالة كانت مغلقة، وهي لم تكن في المطعم المجاور للوكالة. فكاد يجن. واحتفظ بسيارة الأجرة، وأعطى للسائق، كيفما اتفق، وبعد كل ما حدث عنوانه. وفتح الباب بهدوء ودون أن يحدث جلبة أو ضجة، وتجمد في المدخل: كانت «ناتاليا» جالسة على أريكة، بشكل هادئ، ينم عن الطمأنينة. فحصل لديه انطباع بأنه يكرر تمثيل مشهد قديم جداً، ويتسم بالغباء الشديد: عودة الزوج الفاسق بعد تمضيته ليلة في التهتك والمجون.

وقال:

- لقد سكرت.

فلم تجب، ورأى الازرقاق الدائري حول عينيها. فكم هو عمرها، بالضبط؟ كانت ترتدي فستاناً قصيراً أسود، وتضع حليتها. ولا بد من أنها أمضت الليلة هنا، دون أن تتحرك من مكانها.

وتابع كلامه:

- مررت على «الوكالة»، لم تكوني هناك. فأنا... أنا آسف جداً، يا «ناتاليا»، هل شعرت بالقلق؟

لم يكن يقول سوى السخافات التي تنم عن الحمق والغباء، ولكن، بالحقيقة لم يكن هنالك ما يقال سوى ذلك. وقد بدا، بالأحرى، مرتاحاً، بعض الشيء. وآنذاك أخذ يدرك أنه لم يكن يشعر وهو في سيارة الأجرة، طيلة الوقت، سوى بالخوف من ألا يجدها. ولكنها كانت هناك، بل وها هي تبتسم تقريباً.

وقالت:

- أشعر بالقلق؟ ولماذا؟

واقترب منها، فنهضت عند ذلك، وتأملته مواجهةً، بنظرة تنم عن الفضول وحب الاطلاع، بل عن الاستغراب، تقريباً. ثم صفعته بعنف مرتين، وبعد ذلك اتجهت نحو المطبخ، وهي تقول بصوت هادئ النبرات:

- سأحضر القهوة.

لم يتحرك «جيل». ولم يكن يعاني بشكل محدد ودقيق، من شيء معين، ولكنه كان يشعر بألم في وجنتيه: فقد صفعته، بعنف وقوة. وأخيراً اتجه نحو المطبخ، واستند بمرفقه على الباب. كانت تتأمل الماء وهو يغلي باهتمام شديد وغريب.

وقالت، وهي ما زالت تتكلم بهدوء:

- لقد بقى «غارنييه» هنا حتى الساعة الثالثة صباحاً، وتلفن إلى الجريدة، ثم إلى النادي. لم تكن لا هنا ولا هناك، عند ذلك تلفن إلى «جان» الذي قال لنا أن من عادتك أن تتصرف هكذا وأن تقوم بمثل هذه الأمور. ويبدو أنه كان يرى ذلك أمراً عادياً وهذا ما طمأننا، بعض الشيء.

كان في صوتها نبرة تنم عن سخرية مخيفة. وأضافت:

وبما أنه لم يكن يدري أني استمع إلى المكالمة بالسماعة الثانية، فقد قال لغارنييه أن ينصحني بأن أعتاد على هذه التصرفات وأن أألفها، لأني سأحتاج إلى ذلك.

فقال «جيل»:

- كفي عن الكلام.

- إني أشرح لك بدقيقتين ما حصل في ليلة مدتها اثنتي عشرة ساعة، وهذا ليس كثيراً، وزائداً عن المألوف.

- إن أياً من الناس يمكن أن يسكر مرة أو أخرى.

- وأي من الناس يمكنه أن يتصل ويقول: «إني أسكر، نامي مطمئنة». ولكني أتصور أن ذلك كان يمكن أن يفسد متعتك.

فأخذ «جيل» يفكر: «وعلاوة على ذلك، فهذا صحيح، وهو أن فكرة شعوري بالذنب هي التي كانت تدفعني إلى ذلك التصرف في تلك الليلة».

وقالت:

- هاك القهوة، لقد حصلت على كل ما كان يلزمك: ليلة قضيتها في الحماقات، مشاحنة مع خليلتك، زوج من الصفعات، فنجان قهوة؟ فهل اكتملت صورتك النموذجية؟ حسناً، أنا ذاهبة إلى «الوكالة».

وتناولت معطفها بسرعة وخرجت. فظل واجماً، خلال برهة طويلة، احتسى قهوته وفتح الصحيفة، ولكنه لم يكن يقرأ. لم يكن ما أحدثه لديها لا الغيرة ولا الغضب، فقد أحدث لديها، القلق أولاً ثم الاحتقار. ورن جرس الهاتف، فقفز مسرعاً نحو الجهاز. وربما كانت ناقمة عليه بسبب إهماله وقسوته؟

كان صوت «جان» الذي قال:

- ماذا، يا عزيزي، هل عدنا لمتابعة الحماقات؟

فقال «جيل»:

- نعم.

- هل أنت وحدك، الآن؟

- نعم.

كان صوت «جان» طلقاً، مرحاً، مشاركاً ومشجعاً ولكن شيئاً لدى «جيل» كان يتردد في الميل والانقلاب نحو ذلك الصوت، ونحو ما يقتضيه وما يتضمنه.

- كيف حصلت وانتهت العودة؟ بصورة سيئة؟

فقال «جيل»:

- بصفعتين.

وعندما قهقه «جان» ضاحكاً، أدرك «جيل» أنه قد تأرجح وانقلب، بل لقد وقع فعلاً.

٨

أصبح آنذاك يعرف ذلك، كان هنالك شيء قد أصيب بصدع بينهما. وهو لا يعرف بالضبط ما هو... ربما كان يشعر بالإحباط والخيبة وحسب، بسبب الغيرة، وربما كان بحاجة، دون أن يعرف ذلك، لأن تقوم بفعل منحط أو سخيف وتافه، يمكن أن يضعهما متقابلين وجهاً لوجه، ومتساويين. أكانت تلك الأمسية التي سكر فيها - وهي إجمالاً عادية ومبتذلة، بالنسبة لرجل قلق ومنزعج - هي التي أزاحت وجهيهما، ووضعت وجه «ناتاليا» فوق وجهه أم كانت تلك هي النتيجة الحتمية والتي لا يمكن تحاشيها، لستة أشهر من الحياة المشتركة. وهل كانت هي أفضل منه؟ وهل يمكن أن يكون المرء «أفضل» من أحد ما، في العلاقات الغرامية، وهي التي تكون فيها، بالضبط، جميع القيم الأخلاقية منحاة، لتحل محلها وتعوض عنها قيم عاطفية؟ وعلى أي حال، فهي أصبحت تضحك أقل من السابق. وأخذت تضعف وتزداد نحولاً، وحل

في معظم الأحيان، في علاقتهما الجسدية الصرف والمجردة، شيء من العدوانية والعنف المقصود، كما لو أن كلا منهما كان يريد، في آن معاً، أن يرضي، يفعم وأن يخضع الآخر، كما لو أن متعة الآخر، نفسها، لم تكن تلك الهدية الرائعة، التي كانت حتى آنذاك، تعتبر هكذا بل، دليلاً على... ولكن ماذا تستطيع تلك الصيحات وتلك الشكاوى والانتفاضات، وماذا يستطيع ذلك الجسدان المسكينان، المتحدين تماماً، بعد بعض نظرات من «ناتاليا»، وبعض غيبات من نظرة «جيل»؟ إنهما لا يستطيعان شيئاً: فهي ضرورية ولكنها غير كافية، كانا يلتقيان ينضمان غالباً، وعبثاً ودون جدوى، في المتعة، و «جيل» لم يسبق له أبداً أن كان مغرماً بأحد إلى هذه الدرجة، من الناحية الجسدية والحسية، ولا أقل مرحاً وبهجة من كونه كذلك.

وكان على «ناتاليا» أن تسافر، ذات يوم، إلى «ليموج». إذ أن العمة «ماتيلد» التي كانت ترسل لها كل شهر مائة ألف فرنك قد استدعتها، وهي على فراش الموت. وكان عليها أن تبقى هناك أسبوعاً، تقضيه في منزل أخيها، على أن تعود، بأسرع ما يمكن. ورافقها «جيل» إلى المحطة، محطة «أوستيرليتز» تلك المحطة التي شاهدته يسافر وهو بائس جداً، قبل ثمانية أشهر ويعود وهو غير واعٍ، يسافر من جديد وهو مغرم ومحب، ويعود وهو ملتزم. ولم يعد يعرف بين هؤلاء المسافرين الذين كانهم، أي الذين كان هو، هم، أيهم يفضل. بلى، كان يعرفه، إنه الرجل المغرم والمحب الذي كان، في شهر أيار (مايس) واعياً ومدركاً لحبه، ولا يدري بأنه منتظر، ورأى مياه نهر اللوار، وهي تجري، الضواحي، الغيوم، الليل وكأنها مفاجآت مبهرة، قبل مفاجأة «ناتاليا» له، وهي تقف على رصيف

المحطة، بعد أن هربت من حفلة عشاء. واندفعت نحوه. كان يحب قصتهما حتى وإن كان أحياناً لا يحب حياتهما المشتركة. ووصل به الأمر إلى أنه أصبح يحب ذلك الفتى النحيل، الحزين والبائس، الذي تألم كثيراً لأنه كانه، وكان يحب هذه المرأة المشبوبة العاطفة، المجنونة، المغالية، والمتطرفة، واللائقة جداً، التي أحبته بولع وشغف. آه، يا حقول ويا براري مقاطعة «الليموزان» ويا للعشب الحار وقاع الماء في النهر، ويد «ناتاليا» على رقبته والسرير الموحش الذي مارسا عليه الحب لأول مرة، ونظرة صاحب الفندق، والغرفة الحارة تحت السقف، وكؤوس «البورتو» التي كان يملؤها «فلوران».. ولكن لماذا كانا يتجولان هكذا على ذلك الرصيف، كحيوانين ضالين، وتائهين، يبحثان عما يقوله كل منهما للآخر، يضبطان ساعتيهما، ويشتريان بعض المجلات السخيفة؟ فما الذي حدث؟ كان يرى «ناتاليا» بصورة جانبية ويتصور تلك الثلاثة أشهر التي أمضياها في باريس، ولم يعد يعرف شيئاً غير ذلك. ولم يكن يريد منها أن تسافر، ولكن إذا أمكن أن تكون سكة القطار الحديدية قد التوت وتخربت لسبب غريب في مكان ما بالقرب من «أورليان»، فلم يغادر القطار المحطة، ويكون عليها أن تعود معه إلى بيته، لكان شعر بغيظ شديد. فقد كان عليه أن يتناول طعام العشاء مع «جان» وبعض الأصدقاء. ولم يكن هنالك شيء أو أحد يثير عواطفه ويجعله يتحمس، لا شيء أبداً يمكنه أن يفعل ذلك سوى هذه المرأة، ومع ذلك، فقد كان يتمنى أن تذهب، وأن يقدم القطار موعد انطلاقه. فقد كان مجنوناً: إنه تعيس مجنون، تسكنه وتشغل باله، قبل كل شيء حرية لا جدوى ولا فائدة منها.

عانقها مطولاً، وأخذ ينظر إليها وهي تسير، مبتعدة، في الممر. وأمامه امتدت المدينة، عظيمة وفسيحة، مشققة، كصور القمر، مدينة جافة ونيرة، كثيرة الأضواء، مدينة في متناول يده. نعم، إن «ناتاليا» كانت على صواب، عندما تقول بأنه منسجم تماماً مع عصره، وكانت تقول:

- هذا كل ما تحب، وأنت تدعي أنك تكره الغباء الطبيعي الذي يتسم به هذا العصر، أكاذيبه وعنفه. ولكنك وأنت فيه تبدو كالسمكة في الماء. وأنت لا تسبح جيداً إلا في داخله، وبعكس التيار، بالتأكيد، ولكن بمهارة كبيرة. فأنت تطفئ التلفاز، وتغلق المذياع، ولكنك تحب أن تفعل ذلك. فهذا يجعلك متميزاً.

فسألها:

- وأنت... أي عصر كان من الممكن أن تحبي؟

فأجابته:

- أنا، يمكن أن أحب التأمل بإعجاب.

التأمل بإعجاب.. المرأة لا ينبغي لها أن تقول هذه الأشياء. فالمرأة يجب عليها أن تتأمل بما يكفي من الإعجاب الرجل الذي تعيش معه، لكي لا تحدث لديها بعض مظاهر الحنين الصغيرة والطفولية، بل والصبيانية.

وانضم إلى الآخرين، في وقت متأخر بعض الشيء، وقوبل باستقبال يتسم بالفوز الرصين، فوز رصين جداً، بالتأكيد، ولكنه الاستقبال الذي يبدونه مع ذلك إلى رجل فاز بحريته. وصاح أحدهم: «ها هو جيل»! فأخذ الجميع يضحكون عندما انحنى وهو يضع يده على قلبه. ومن المؤكد، إنهم لا يمكن أن يقولوا أبداً: «ها هما جيل وناتاليا» بهذه اللهجة نفسها. ولكنه. لا يمكن أن يستاء وينقم عليهم: فالناس الذين يبحثون عن المتعة

هم قبل كل شيء، ناس يتمسكون بعاداتهم، وكان قد انقضى زمن طويل، آنذاك. أي ما يقرب من خمس عشرة سنة وهو يمثل دوره كشخص انعزالي. انعزالي، ترافقه في معظم الأحيان امرأة، ولكنها امرأة، يمكنه أن يتركها ويمضي، بينما تظل جالسة إلى إحدى الموائد، أو أن يعرفها على أحد أصدقائه، وينصرف، أي امرأة كايلوبيز، على سبيل المثال، التي تعرف كل الناس، والتي يهجرها بشكل مرح ودون استياء، لأنه يعرف أن أول شاب يأتي سيجلس إلى مائدتها، أو ربما تأتي إحدى رفيقاتها. أما هو. آنذاك فهنالك في حياته «ناتاليا». «ناتاليا» التي لا بد أنها كانت في ذلك الوقت، تعبر مدينة «أورليان».

وأمضى أمسية هادئة، احتسى قليلاً من الشراب، وعاد لوحده إلى المنزل، بعد منتصف الليل بقليل. كان لديه رقم هاتف «بيير»، فاتصل به، حالما وصل إلى المنزل. فردت عليه «ناتاليا» في الحال، وشرح لها بتلطف وحنان أنه في البيت، يستمع إلى موسيقى «موزارت»، وأن السرير يبدو له كبيراً وواسعاً أكثر مما ينبغي، بدونها، وأضاف على ذلك بعض المزاح والمداعبات لكونه كان مسروراً من حسن سلوكه، آنذاك.

وقالت «ناتاليا»:

- كانت الرحلة طويلة جداً، وأنا لا أحب الرحلات الطويلة.

هل أنت على ما يرام؟

وبدا صوتها بعيداً، إذ يبدو أن خطوط الهاتف كانت سيئة، وكان يبحث عن كلماته، ولو أنه ارتكب بعض الحماقات لكان لديه، بالتأكيد، أكثر بكثير من الأمور التي عليه أن يرويها لها. فالكذب يجعل المرء حاذقاً ومبتكراً ويوسع خياله.

وقال:

- إني سآوي إلى سريري بعد قليل لأنام، لدي غداً كثير من العمل. وأنا أفكر بك، كما تعلمين.

- وأنا أيضا أفكر بك، أرجو لك نوماً هنيئاً، يا عزيزي.

ووضعت السماعة مكانها. كانا يبدوان وكأنهما قد تزوجا منذ عشر سنوات. ونزع ربطة عنقه، تثاءب قليلاً، وألقى نظرة على وجهه في المرآة. وهم بأن يستلقي على السرير ويرتاح، ويصغي لبعض المعزوفات الموسيقية (وكان ذلك سهلاً ومريحاً في ذلك الوقت، ولم يكن قد فعل شيئاً سوى أنه تحدث مسبقاً عن «موزارت»، إلى «ناتاليا»). حسناً، لا بأس بذلك، وهو سينام كالطفل، نوماً عميقاً، ليكون وافر النشاط في اليوم التالي، لكي ينجز أعماله المتراكمة، بانتظار عودة حبيبته الجميلة. ولكن المرآة كانت تعكس صورته التي تنظر إليه، وكان يرى قبالته ذلك الغريب وهو يبتسم، كان «يرى» نفسه، بالحقيقة وهو يبتسم، فتناول سترته، خرج وأغلق الباب.

ها هو في النادي، و «جان» أخذ يضحك. كان يشعر بالدفء بين كل أصدقائه، أصدقاء حقيقيين أو مزيفين، فهذا مؤكد، ولكنهم أصدقاء مرحون، مستعدون للقيام بأي شيء، أصدقاء، كان مع ذلك قد هجرهم، وتخلى عنهم بشكل جدي، من أجل امرأة. ولم يكن هذا تصرفاً حسناً، من قبله: إذ أن توازن كل هؤلاء الناس كان هشاً، ولم يكن ينبغي التخلف والتغيب عن «الدروس المسائية» لفترة طويلة من الزمن، لأن ذلك يمكن أن يثبط من عزائمهم. وانحنى نحو «جان»:

- كنـت أنـوي بالحقيقـة أن أبقـى في البيـت، ولكـن، فجـأة، شعرت أنه من المستحيل علي أن أنام، فأنا لا أحب أن أنام لوحدي.

فقالت صديقة «جان»:

- هذا أمر يمكن تسويته.

كانت فظة، ذلك المساء، فهو كان، على الدوام، يعتبرها تافهة، بعض الشيء، وليس فظة، أبداً. ولم يقل «جان» شيئاً، وربما كان يفكر بأن «ناتاليا» هي التي أوحت له بهذه المفاهيم عن الذوق أو الحس السليم، والسيئ، وأن هذا يصبح متعباً للغاية.

وقال:

- هنالك، بالطبع «كاترين» الصغيرة. وهي فتاة شقراء رائعة الجمال، كانت تقول له دائماً إنه يعجبها، وكانت تمر من أمامهم، في تلك اللحظة، بالذات.

- أنا لا أنصحك بمرافقتها، فهي ثرثارة كالقاقة، وسوف تعرف «ناتاليا» ذلك.

هذا ما قاله أخيراً «جان» وكان يتحدث إليه بحزم كما لو أنه كان يتحدث إلى تلميذ هرب من مدرسته. وعلاوة على ذلك، فإن «جيل» لم يكن يعرف فيما إذا كانت تلك الجملة القصد منها تحاشي تسبب الحزن لناتاليا، أم التأكيد على تعلقها به، أي بـ «جيل».

وقال:

- لقد تقدمت بي السن بما فيه الكفاية، وليست فتاة مثل «كاترين» يمكنها أن تحدث أو أن تقطع، أي شيء بيني وبين «ناتاليا».

فقال «جان» بهدوء:

- أنا لست واثقاً من ذلك، فصديقتك «ناتاليا» ذات طباع خاصة، وهي حازمة ومتشددة.

وكان يبتسم، وكأنه متعاطف معه، فألقى عليه «جيل» نظرة متفحصة، مستفسرة، كانت كجميع النظرات من هذا النوع، لم تجد نفعاً، ولم تفده بشيء، فليس هنالك سوى النظرات الجريئة للحصول على المعلومات. ومن المؤكد أن هنالك ما يشغل باله. فعندما كانت «ناتاليا» موجودة هنا، كان يشعر أنه «مفخخ» بل وربما مقيد، وعندما لا تكون موجودة، فكان ذلك، تقريباً، أسوأ: أليس هذا ما يسمى «إفساد حياة» شخص ما؟ ففي كل النظرات التي كان يلاحظها وفي كل الأحاديث التي تجري معه، كان يشعر كأنه «الشخص المغرم بامرأة، وهو وحيد، هذا المساء». أو أنه «الشخص الذي نحته امرأة، جانباً، وتركته، فأخذ يروي ما كان يكبته» (لم تكن هذه أدواره). فإذا كان لا يتحرك عن مائدته، فهو يبدو حزيناً. ومن جهة أخرى، إذا أسرع نحو «كاترين» في النادي، فإن تصرفه هذا يكون مذلاً لناتاليا، وله بالذات. فتنهد، وطلب فاتورة الحساب، فهو لم يعمل شيئاً سوى إفساد ساعة من وقته، وإضاعتها.

٩

لم يعمل شيئاً، سوى إضاعة ساعة من وقته. فقد أدرك ذلك، في اليوم التالي، عندما تلفن إلى «ناتاليا» حالما استيقظ.

قالت له:

- نسيت البارحة أن أقول لك إن بزتك الزرقاء جاهزة في المصبغة. وقد حاولت الاتصال بك، ولكنك لم ترد علي.

بالتأكيد، فقد خرج بعد دقيقة من الاتصال الهاتفي الذي أجراه كولد عاقل. وعلاوة على ذلك، فقد خرج دون هدف معين، ومن أجل لا شيء، ولكن، كيف يمكنها أن تصدقه آنذاك. فالحقيقة والكذب قد تحالفا ضده. وكان قد قرر أن يبقى في المنزل، مع ذلك، في هذا الوقت.

وجاء صوت «ناتاليا» قائلاً:

- كنت أتصور أنك ستذهب لتلتقي بأصدقائك ولكن لماذا مثلت لي ذلك الفصل؟ هل أنا ثقيلة عليك إلى هذه الدرجة؟ لماذا تحدثت

عن البيت وعن السرير الكبير أكثر مما ينبغي وعن الموسيقا ، لماذا؟ لماذا فعلت كل ذلك، يا «جيل»؟

فقال:

- كنت «أريد» البقاء، عندما اتصلت بك، ثم قررت فجأة أن أخرج.

- بعد ذلك، بدقيقة واحدة؟

كان ذلك يبدو زيفاً وكذباً. الحقيقة تبدو كذباً، بصورة فظيعة، ولم يكن يستطيع عمل أي شيء حيال ذلك، ولكنه تابع:

- تناولت كأساً في النادي مع «جان» وعدت إلى المنزل، بعد ساعة. «وليس بسببك وحسب، لم أفعل شيئاً مع تلك الفاتنة «كاترين». ولم أتصرف كملاك وحسب، بل إني علاوة على ذلك جعلتك تتألمين وتعتقدين أني أكذب. وهذا لا مخرج منه، وليس في اليد حيلة».

كان يستشيط غيظاً وكان يفهمها: وهو ذو نية حسنة، وصادق، ومقتنع بالكذب.

وقالت «ناتاليا»:

- الموضوع لا يتعلق بما تفعله أو لا تفعله. إنه يتعلق بما تقوله، وبما تعتقد أنك مضطر لأن تقوله.

فتنهد، أشعل سيجارة، ومر بيده على شعره، ثم قال:

- سأشرح لك كل شيء. كيف حال عمتك؟

- إنها بحالة سيئة جداً، ومن المؤكد أنها ستموت بعد يوم أو يومين. أنا ذاهبة، مع «بيير»، في الحال، لكي نراها.

حقاً، لقد كان هنالك «بيير»، الذي لا بد من انه رأى أخته، عندما رفعت السماعة بالأمس، وردت على المكالمة بصوت عذب، ثم

صاحت: «آه! المصبغة» ثم كيف حاولت الاتصال، ولم تتلق رداً، فحولت نحوه وجهها الهادئ القسمات. والمرء يسبب، في معظم الأحيان، من السوء والشر بل من الأذى إلى الناس، عبر أقاربهم والمقربين منهم، أكثر مما يسببه لهم عبر أنفسهم بالذات. لأنهم، عند ذلك، بدافع الكبرياء، يصبح عليهم أن يشكوا مما هو كذب ومزيف، وأن يتصوروا أي شيء كان، وأن يكدوا ويجهدوا أنفسهم وينسوا على ما يبدو، الهاتف، مع أنه بالقرب منهم. و «ناتاليا» وحدها، هي التي كان من الممكن أن تحاول الاتصال به، كل نصف ساعة، وربما كان قد رد عليها في المحاولة الثانية. آه، إن الحياة سخيفة أكثر مما ينبغي، في نهاية الأمر.

وقال:

- «ناتاليا»، إني أحبك.

- فقالت:

- وأنا أيضاً أحبك.

ولكن لم يكن في صوتها أي نبرة تنم عن المرح، وبدلاً من ذلك، كانت لهجتها تنم عن تبينها لأمر، سلمت به وغضت عنه النظر.

وأعادت سماعة الهاتف إلى مكانها. بعد أسبوع سيشرح لها كل شيء، يضمها بين ذراعيه، ويلتصق به ذلك الجسد الحار، المنفتح والشديد الحيوية، جسد «ناتاليا» الجميل، بدلاً من ذلك الرأس القاسي والمغلق، وبدلاً من تلك الجمل الثقيلة، والكئيبة، التي يتبادلانها بالهاتف، وتستخدم كصلة وصل بينهما. أما الآخرون (ولم يكن يعرف بالضبط من هم «الآخرون»، بل كان يتصور حشداً باريسياً ضخماً، يدمدم، يهدد ويتوعد) فسوف يرون أيضاً، أو بمزيد

من الدقة، لن يروا. لن يروه بعد ذلك، طيلة أسبوع. في بداية الأمر، وبعد ذلك، لن يروه، هم، أبداً، عندما تكون قد عادت. فهما سيظلان في المنزل، أو يذهبان إلى المسرح، لأنها تحب مشاهدة المسرحيات، أو إلى الحفلات الموسيقية لأنه يحب الموسيقا. ومن المؤكد أنه كان بالحقيقة، يفضل الاستماع إلى أسطوانة جيدة، وهو جالس باسترخاء، في المنزل، على أريكة مريحة. ولكنه سيعمل، ما يجب عليه أن يعمله. وقد قوت هذه الفكرة، من عزيمته، فنهض وهو يدندن بأغنية شعبية شائعة، وذهب إلى مقر الجريدة، قبل الوقت المحدد، تقريباً. واشتغل بهمة ونشاط. وبدا منذهلاً تماماً، وهو يجد نفسه واقفاً في النادي، الساعة الثالثة صباحاً، وقد انهمك في نقاش حاد مع صحفي إنكليزي عن التمييز العنصري في أميركا.

وصلت «ناتاليا» عند الساعة الحادية عشرة، إلى محطة الجنوب - الغربي، محطتهما العزيزة بعد ذلك بعشرة أيام. وكان يتقدمها جمهور مرح من السيدات الريفيات، ويتبعها جمهور آخر، أكثر بهجة ومرحاً. وبدت ملابسها كملابسهن، طويلة بعض الشيء، وعلى رأسها وشاح حريري. وحقيبتها الصغيرة بيدها. وفيما عدا غطاء رأسها وعن مزيد من القرب، جمالها، لم يكن هنالك ما يميزها عن بقية السيدات. كان قد عاش مع نساء، يحمل لهن خدمهن كلاباً صغيرة، كما تحمل طاقات الزهور، ولم يعجبه منهن ذلك، آنذاك، ولم يرتح له أو يجده مسلياً. ولكنه، مع ذلك، وفي تلك المحطة الداكنة، ذات الجو الذي يبعث على الحزن (كان المطر يهطل بغزارة) لكم كان يحب أن يرى خليلته تصل كبقعة ملونة، كشيء غريب وعجيب كشعلة من ضوء.

وضمها بين ذراعيه وعانقها. كانت عيناها محاطتين بهالتين زرقاوين، مرتدية بالطبع ملابس الحداد السوداء، فكم كان غبياً ومغفلاً!.

وصاحت، قائلة:

آه - أهذا أنت؟ وألقت بنفسها عليه، وظلت ساكنة، لا تبدر منها أي حركة. وأخذ الناس ينظرون إليهما ويتصفحون وجهيهما، فشعر بشيء من الخجل: فهما، بعد كل شيء، ليسا في الثانية عشرة من العمر، لكي يتصرفا بهذا الشكل، في إحدى محطات القطار. وحاول أن يضحك:

- ومن أردت أن يكون؟

فقالت:

- أنت، بالضبط أنت!

وكانت قد رفعت رأسها نحوه، فأخذ يتأملها ويتصفح وجهها. فلاحظ أن ملامحها متورمة بعض الشيء، وأنها لم تتزين، ورأى أن تفحصه لها طبيعي، كوجوده هو، آنذاك هناك. فقد ذهب ليصطحب خليلته، بل زوجته تقريباً من المحطة. وكان ينظر إليها، مثلما ينظر العشاق القدامى إلى بعضهم. وأمسك بذارعها، وقال:

- لقد اشتريت فروجاً بارداً، وسنتناول عشاءنا في البيت.

هل سافرت، في الحال، بعد الدفن؟

- نعم، بالتأكيد، فكما تعلم، «ليموج» لم تعد مستحبة بالنسبة لي.

- وهل كان الناس الشرفاء يلومونك ويقذفونك بالحجارة في الشارع؟

فقالت:

- أوه، كلا، إنهم يعرفون أن الطبيعة الإنسانية ضعيفة وأصبحوا يطالعون الصحف، في أيامنا، هذه.

وألقت نظرة شاردة على الفوضى الذي استطاع أن يحدثها في المنزل، خلال ساعتين، قبل أن يذهب إلى المحطة.

وذهبت إلى الحمام، فأصلحت زينتها، وطلت وجهها، من جديد بالمساحيق، بينما كان يقطع الفروج، وهو يرسل اللعنات والتجديف. وبعد أن تناولا القهوة، انتقلا إلى غرفة أخرى. فوضع بكل عناية أسطوانة «هايدن» الجديدة، التي كان قد اشتراها لتوه فسألته:

- إيه، ماذا حدث في باريس؟

وكانت تتكلم دون اهتمام وقد أغمضت عينيها، وكان يبدو لمن يسمعها، أنه بالحقيقة لا يمكن أن يحدث شيء في باريس.

وأجابها:

- لم يحدث ما يستحق الذكر، هل طالعت الصحف؟

- وأنت؟

كان الصوت هو نفسه. فابتسم:

- لا شيء، أيضاً، لقد اشتغلت كثيراً، وشربت أكثر من المعتاد بقليل، أثناء غيابك، واشتريت هذه الأسطوانة.

ولم يضف أنه كان في نهاية الأمر، قد رافق «كاترين الجميلة»، إلى منزلها، وهو سكران جداً، وأنه مني بإخفاق وبعجز جنسي تام. وعلى أي حال، فإن «كاترين» ستلزم الصمت، ولو لمرة واحدة، على الأقل، إذ أن لها مصلحة بإخفاء العجز الذي مني به

«جيل» فجأة، لا سيما وهو مطلع على جميع عاداتها المستهجنة وميولها المفرطة الصغيرة. ومد يده نحو «ناتاليا» فأمسكتها:

- وأنت؟ هل رأيت «فرانسوا»؟

فقالت:

- نعم، بالتأكيد، فقد أتى ليراني عند «بيير».

- ولماذا؟

لأنه كان يريد مني أن أعود. وأعتقد أنه يشعر بملل شديد.

فقال «جيل»:

- لقد تغير الريف.

وكان منزعجاً بعض الشيء، دون أن يعرف سبباً. فجميع الرجال يريدون أن يأخذوا منه هذه المرأة، ولا يتصورون لثانية واحدة أنها يمكن أن تحبه، أو أنها حقاً تحبه... وكان ذلك يشكل، بصورة واضحة، حدثاً، في حياته.

- وماذا قلت له؟

- أن كلا، وإني لن أعود، فأنا أحبك، وإني آسفة. و «بيير» أيضاً، يريد مني أن أبقى.

كان نوع من الغضب يستبد بجيل. فمن المؤكد، أنه تصرف كفتى مراهق، وكشاب حر وطليق، خلال عشرة أيام. ولكن بماذا لخص ذلك؟ ساعتين مع عاهرة صغيرة، وعدة ليال أمضاها في الكلام، يتكلم ويتكلم مع عقول أنهكتها الكحول أو الامتثالية والتمسك بالأعراف وبالشكليات. وأثناء ذلك الوقت، كانت هي تجابه وجوه رجال معروفين، ناشطين، يبدون فجأة مجردين من الكبر

والعجرفة، كانت تعيش وتمثل دور «أنا كارينينا» بالمقلوب. وكان لديها تبكيت ضمير وندم بل وحسرة وأسف، عواطف ومشاعر، في نهاية الأمر.

وقالت:

- إني حتى لا أدري لماذا أحدثك عن ذلك. فأنا متعبة جداً. إذن أنت مسرور من عملك؟

فهل تهم بأن تسجل له فوزاً وعلامة جيدة؟ لم يكن يتفهم تلك الغيرة التي لديه، ذلك الغيظ. ولكن أخيراً ها هي قد عادت. وقد تخلت عن كل شيء من أجله. وهي الآن هنا، فمم يخاف؟ وأي شيء يخشى؟

- لقد رأيت أختك أيضاً و «فلوران» أثناء الجنازة، وهي تشكو لكونها لا تصلها أخبارك، كان عليك أن تكتب لها.

فقال:

- سأفعل ذلك غداً.

كان يحاول أن يهدئ صوته، وارتجاف يديه. بل وكان يبتسم. وقال:

- كان عليك أن تذهبي لتنامي، فأنت منهكة، وسألحق بك.

وعندما بقي لوحده، ابتلع جرعة كبيرة من الكحول، من الزجاجة مباشرة، حرق بلعومه. وبعد قليل، سيمارس الحب مع هذه الرفيقة الممتازة، الخليلة الممتازة، الممتازة بكل شيء. فالحياة أصبحت سليمة وجيدة، أخيراً. ويمكنه حتى أن يقول لها بعد قليل: «لقد اشتقت إليك، أتعرفين ذلك». ودون أن يكذب عليها، ولكنه كان يرتعش.

١٠

وبالحقيقة، فقد كانت قد قطعت العلاقات الأخيرة التي كانت تربطها بماضيها، بطفولتها وبأصدقائها. وكان أخوها قد أفرط بتزويدها بالنصائح والتوسلات، وزوجها وضع لها الصفقة بين يديها:

«ابقي الآن، أو انصرفي إلى الأبد» وقد اعترفت بكل هذا إلى «جيل» بجمل صغيرة، جادة النبرات، عبر الظلام الذي كان يسود جو الغرفة، وكان مسروراً من ذلك الظلام لأنه كان يمنعه من رؤية دموعها. وبالتأكيد، لم يكن أحد في مقاطعة «الليموزان» يثق بـ «جيل»، بما فيهم حتى أخته «أوديل» التي انتحت بناتاليا جانباً، بجرأة مفاجئة، وسألتها عما إذا كانت سعيدة، وكأنها تسأل عن أمر مستحيل. وقالت «ناتاليا» لجيل: «لم يعد لدي ما أعمله هناك». وكثيراً ما كان يتساءل فيما إذا لم يكونوا هم، الأقوياء، ذوو الأجسام الصلبة الريفيون الذين يعملون في الأرض، المصيبون وعلى حق.

وبالانتظار، كانت الأيام تمر وتنقضي، ونيسان (إبريل) أضفى الخضرة على الأشجار، وكانا يعيشان كما يستطيعان وكما يحبان. وذات صباح، وصل «جيل» متهللاً، فرحاً، إلى الجريدة، فقد كتب بالأمس، مقالة جيدة جداً عن اليونان، وقرأها لناتاليا، فأعجبت بها كثيراً وأثارت عواطفها. وكان يشعر بالثقة بنفسه. وبالفعل، فقد وجد «فيرمون» المقالة جيدة جداً، وكذلك «جان» وحتى «غارنييه» الذي كان منذ مشكلته المعروفة، يتحاشاه قليلاً، هنأه على مقالته. وهذه المقالة كانت موجزة، عنيفة، دقيقة وواضحة. وقد صرح «فيرمون» بأنها مقالة ينبغي أن تنشر الصحيفة واحدة مثلها كل أسبوع. و «جيل» كان سعيداً. وعندما انتهى العمل في الصحيفة، دعا الصديق القديم «جان» لتناول الطعام معه، وطيلة الوقت ظلا يتحدثان في السياسة. ودفعهما الخمول والكسل إلى الذهاب إلى السينما، واتجها نزولاً في جادة «الشنزيلزيه»، ولكن دون جدوى، لأن كلاً منهما كان قد شاهد الفيلم الذي لم يشاهده الآخر. فقال له «جان»:

- أنا لا اقترح عليك أن تذهب معي إلى البيت، فاليوم هو يوم استقبال «مارت» ولا أريد أن أعرضك لهذا الإزعاج.

فقال له «جيل»:

- هيا بنا، ولنذهب إلى بيتنا، «ناتاليا» ستعود، حوالي الساعة السادسة والنصف. وعلاوة على ذلك، فإني أود أن أحدثك أيضاً عن تلك القضية اليونانية.

كان يشعر بأن ذهنه متوقد، شارد، وبدا مسروراً بتمضية ساعتين أيضاً مع «جان» الذي كان يعرف عنه «جيل» أنه يجيد

الإصغاء، والتحية وعدم المبالاة. وفتح باب منزله، قدم كرسياً لجان، وسكب له كأساً من شراب «الكلفادوس» المسكر.

فقال «جان» وهو يجلس:

- منذ زمن طويل، لم أحضر إلى هنا.

لم يكن في لهجته أي أثر للعتاب أو اللوم، ولكن «جيل» فكر بأنه محق وعلى صواب فيما قال. ففي الماضي، كان يتواجد في منزله، على الدوام. كثير من الناس، يجلسون على جميع الأرائك والكراسي. كان هذا يحصل سابقاً.. قبل «ناتاليا». وكشر وتجهم وجهه قليلاً:

- أنت تعرف...

فقال «جان»:

- طبعاً أعرف، يا عزيزي، فالحب هو الحب. وهذا هو أفضل ما كان يمكن أن يحصل معك، وخاصة مع واحدة مثل «ناتاليا».

وبدا أنه صادق تماماً فيما قال.

فقال «جيل»، وقد انحنى إلى الأمام:

- نعم وكلا.

كان يشعر من جديد أنه ذو فكر محلل، ثاقب وبارع والمرء لا يشعر أبداً أنه خائن، عندما يشعر بأنه ذكي.

- كما تعلم، عندما تعرفت عليها، كنت.. وأنت تتذكر ذلك... كنت مسلوخاً وأنا حي. والله وحده يعرف السبب، ولكني كنت هكذا. فكستني بالريش وأدفأتني، وأعادت لي الحياة، حقاً وحقيقة. ولكن الآن...

- الآن ماذا؟

- الآن الوسادة تثقل بوطأتها على وجهي، وتخنقني هاك. ما هنالك. فكل ما كنت أحبه فيها وكل ما كان يسندني ويدعمني، إيمانها بالمطلق وتمسكها به، جانبها التخطيطي، صدقها ونزاهتها... وكل هذا، بل كل شيء قد تحول ضدها.

فقال «جان» بلهجة تتسم بالعطف وبالمحبة:

- ذلك لأنك ضعيف، متردد وغير حازم.

- نعم، إذا كنت ترى ذلك. وربما أني لست سوى وغد مسكين. ولكن، هنالك لحظات، حيث... يمكن أن أدفع فيها أغلى ثمن لكي لا أقيم من قبلها. ولكي أكون بمفردي، وحيداً، مثلما كنت سابقاً.

وربما كان عليه أن يضيف. بدافع من الدقة واهتماماً منه بها، بأنه كان عاجزاً عن تصور الحياة بدونها. ولكنه عبر الانطلاقة التي منحه إياها الرضا والسرور. بكتابته تلك المقالة، وتأييد الجميع له وإعجابهم بما كتب، والاهتمام الذي أبداه «جان»، كل هذا، جعله يستغنى عن إضافة ذلك.

وقال «جان»:

- ربما كان بإمكانك أن تشرح لها..

ولكنه توقف فوراً عن الكلام، فالتفت «جيل»:

كانت «ناتاليا» تقف هادئة في الباب المؤدي إلى غرفة النوم. وكانت عيناها أكثر صفاء وأقوى بريقاً، من المعتاد. فهل كان هذا الباب مغلقاً عندما عادا إلى المنزل؟

وقال «جان»:

- مساء الخير.

كان قد نهض. وبدا شاحب الوجه، هو أيضاً.

فقالت «ناتاليا»:

- أكنتما تتحدثان؟ لقد كانت الوكالة مغلقة في فترة ما بعد الظهر، اليوم، فاغتنمت هذه الفرصة لأنام قليلاً.

فقال «جيل» بلهجة تنم عن اليأس:

- أنا... أكنت نائمة؟

- لقد استيقظت للتو، هنالك بعض «المشاوير» يجب علي أن أقوم بها. ولذلك، فإني أترككما الآن.

فقال «جيل» بسرعة:

- بل ابقي، ينبغي أن تبقي. كنت أتحدث مع «جان» عن تلك المقالة نفسها التي قرأتها لك، البارحة.

فقالت لجان:

- ألم تكن حقاً جيدة؟ يجب علي، بالحقيقة أن أخرج.

وابتسمت لهما وانصرفت،

فجلسا متمهلين وببطء شديد.

وأخذ «جيل» يجدف ويشتم:

هل تعتقد أنها...؟

فقال «جان»:

- لا أعتقد أنها سمعت شيئاً، ويبدو لي أن الباب كان مغلقاً. وعلى أي حال، فأنت لم تقل شيئاً خطيراً وكل ما قلته أنك أحياناً،

وفي لحظات معينة (تضيق ذرعاً)، وتشعر بالملل منها. وأي امرأة تعرف ذلك.

بلى، لقد كان ذلك خطيراً! بل إنه خطير، بشكل فظيع!

وصرخ:

- ولكنك لا تتبين أني أتحدث عن علاقتي معها، هكذا، ومعك أنت، علاوة على ذلك..

- ماذا تعني بقولك: معي أنا، علاوة على ذلك؟

فماذا عملت، أنا؟

فقال «جيل»:

- لا شيء، إنك لم تعمل شيئاً. وليس هذا هو الوقت المناسب لكي تستاء وتبدي انزعاجك.

فقال «جان» محاولاً تهدئته:

- صدقني، يجب أن ننهي هذا الكأس وننتظر، ستنال مشاجرة قوية، مساء اليوم، وهذا أسوأ ما هنالك، وأنت معتاد على هذه الأمور.

فقال «جيل» وقد بدا مستغرقاً في التفكير:

- كلا، كلا، لست معتاداً على هذه الأمور.

كان الوقت يمر، بل لم يكن يمر، وكان لا يكاد يسمع ما يقوله «جان». وقد انصرف بكليته إلى ترصد وقع الخطوات على الدرج. لقد انقضت ساعة منذ أن خرجت، بل ساعة ونصف. هي التي كانت تكره القيام «بالمشاوير». لم يكن ما يحصل يبدو حقيقياً أو معقولاً. فتلفن إلى «غارنييه» ليسأله عنها، ولكنه لم يكن قد رأى «ناتاليا». وعند الساعة الخامسة، راودته فكرة، بدت له بديهية جداً:

لقد ذهبت لتستقل القطار وتعود إلى بيتها السابق. فترك «جان» وذهب مسرعاً إلى المحطة، وتفحص كل عربات القطار، فلم يجدها. كلا، لم يكن هنالك قطار آخر قبل هذا. كلا، والطائرة لا تقلع إلى «ليموج» في ذلك اليوم، وفي الساعة السادسة، انطلق القطار، بدونه وبدونها. لم تكن قد أتت إلى هناك. فعاد أدراجه، في الاتجاه المعاكس وطيلة الطريق، ظل يصيح ويشتم تقريباً بسبب اضطراره للتوقف من شدة تزاحم السيارات في الشوارع... ربما كانت الآن في المنزل، وربما لم تكن قد سمعت شيئاً من حديثه إلى «جان»؟ وكانت الساعة تقارب السابعة، عندما فتح باب منزله، الذي كان خالياً، فيما عدا كلمة تركها له «جان»:

«لا تضطرب أكثر مما ينبغي، تعال لتناول طعام العشاء معنا، في المنزل، إذا رغبت بذلك».

ولكن هذا، يبدو أنه مجنون!...

لم يكن لديه سوى شيء واحد يعمله: الانتظار، وهو الشيء الوحيد في العالم، الذي لا يطيقه ولا يستطيع أن يتحمله. وماذا لو أنها كانت آنذاك عند صديقتها القديمة والقبيحة؟ فأسرع إلى الهاتف، ولكنها لم تكن هناك. ولم يعد يستطيع الصبر وتحمل الانتظار، وعندما تعود، سيناولها صفعتين. فقد فعلت هي معه ذلك، صباح اليوم التالي لسكرته الشهيرة. ولكن ذلك لم يكن من عادة «ناتاليا» ولا من طبعها أن تجعله، عمداً وعن قصد، يقلق، بل ويجن، هكذا. فهي تكن الاحترام للآخرين وجلس على إحدى الأرائك. ولم يحاول

حتى أن يقرأ صحيفة. كان هنالك فراغ كبير، صاخب ومدوٍ، في رأسه. وعند منتصف الليل، رن جرس الهاتف.

كان الطبيب رجلاً قصير القامة، أشهب اللون يداه بارزة العضلات، ومغطاة بالشعر. وكان من الغرابة بمكان أن يكون على يدي هؤلاء «الشهب الوجوه» دائماً، كل هذا الشعر. وكان يوجه إلى «جيل» تلك النظرة المحايدة التي لا تقيم ولا تدين، ولا تنم عن العطف والشفقة، التي سبق لجيل أن رآها في المشافي، في كثير من الأحيان. كان قد عثر على «ناتاليا» عند الساعة الحادية عشرة والنصف. وكانت قد استأجرت غرفة في أحد الفنادق، في الساعة الرابعة بالضبط. وقالت إنها متعبة، وطلبت أن يوقظوها في اليوم التالي، عند الظهر.

ثم تناولت ما يلزم من أقراص «الغاردينال» المنومة.

كان أحد نزلاء الفندق الذي يقيم في غرفة مجاورة لغرفتها، هو الذي سمع حشرجتها، وهو عائد إلى غرفته، عند الساعة الحادية عشرة. وقد تركت كلمة إلى «جيل» فاستدعي بعد أن قدمت لها الإسعافات الأولية. ولم يكن هنالك أمل كبير بإنقاذها، فالجسم كان قد انتفض وقاوم، بالتأكيد، وفي اللحظة الأخيرة شكا وتذمر ولكن القلب لم يصمد.

وقال «جيل»:

- هل أستطيع أن أراها؟

كان يجد صعوبة في الوقوف على قدميه. وكل ذلك لم يكن سوى كابوس فظيع وغير معقول. وهز الطبيب كتفيه:

- يمكنك أن تراها، إذا أردت ذلك...

كانت محاطة بالأنابيب، وبدت نصف عارية، وجهها مشوه لسبب كان يجهله. ونظر إلى ذلك الوريد الأزرق الذي يخفق في ذلك العنق، وكان يعرف الخفقان الجنوني لذلك الوريد، أثناء ممارسة الحب، فشعر بغيظ شديد وغامض. فما كان لها أن تفعل به ذلك، وأن تنتزع منه إلى الأبد هذا الجسد الجميل والحي الذي كان صديقاً حميمياً لجسده، ولم يكن ينبغي لها أن تحاول الهرب منه، وتجعله يخسرها. كانت خصل شعر «ناتاليا»، الشقراء التي بللها العرق، ملتصقة بجبينها. وكانت يداها تتحركان على غطاء السرير. وهنالك ممرضة تقف بالقرب من سريرها، قالت: وهي توجه نظرة استفهامية للطبيب:

- القلب ينحط وقد ضعفت نبضاته، يا دكتور.

فقال الطبيب «لجيل»:

- انصرف من هنا، يا عزيزي، وسألحق بك، فلسنا بحاجة إليك هنا.

فخرج «جيل»، وهو يستند على الجدار، وفي آخر الممر، كان هنالك نافذة وكان لا يزال الوقت ليلاً، وظلام الليل الدامس يخيم على تلك المدينة الصامدة والقاسية. ومد يده إلى جيبه، فعثر فيها على ورقة، أخرجها بصورة تلقائية كانت تلك هي رسالة «ناتاليا»، ففتحها وأمضى برهة حتى استطاع أن يفهم ما كان يقرأ:

«لا علاقة لك بالأمر، يا عزيزي. لقد كنت مهووسة بعض الشيء، على الدوام، ولم يسبق لي أبداً أن أحببت أحداً سواك» ووقعت

بحرف «ن» (N) منحرف قليلاً أعاد الرسالة إلى جيبه، فأين يمكن أن يكون قد وضع سجائره؟ و «ناتاليا»، وهي في الجانب الآخر، «ناتاليا» أين وضع «ناتاليا»؟

وخرج الطبيب من الغرفة. وكان بالحقيقة أشقر، بل أصهب، بشكل بشع.

وقال:

- لقد انتهت، يا عزيزي، وقد فات الأوان، وأنا آسف للغاية، هل تريد أن تراها؟

ولكن «جيل» كان قد أسرع بالهرب، وأخذ يركض نحو نهاية الممر، وهو يصطدم بالجدران، يميناً ويساراً. ولم يكن يريد أن يراه ذلك الأصهب، ذو الشعر الأحمر، وهو يبكي. وبعد ذلك أخذ يهبط بسرعة بل يتدهور على الدرج، في ذلك المشفى المجهول، وبالكاد كان يسمع صراخ الطبيب. وعند الدرجة الأخيرة توقف وقلبه يخفق بشدة.

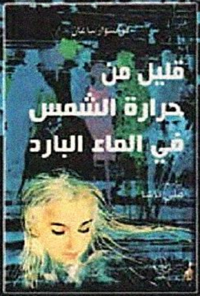
وكان الصوت، من الأعلى، وقد بدا بعيداً، وبعيداً جداً، يقول:

- وماذا عن الأوراق؟ ومن أجل الأوراق؟...

أليس لها سواك؟

فتردد لحظة، قبل أن يجيب بما يعرف أنه الحقيقة؛ قائلاً:

- نعم.



قليل من حرارة الشمس في الماء البارد

ودود، نافذ البصيرة وخفيف الظل، صحفي ناجح ومتألق، هكذا كان «جيل لانتييه».وعندما أصيب بشكل مفاجئ، بانهيار عصبي أفقده توازنه، حاول أن يمضي بعض الوقت، يرتاح فيه في منزل الأسرة القديم الكائن في مقاطعة «الليموزان» والذي تقيم فيه أخته وزوجها. وهناك، التقى بـ «ناتاليا سيلفنير» الفائقة الجمال، وهي امرأة لم يسبق له ان التقى بمثلها أبدا: جادة، وقورة، ولكنها حارة، طموحة ومتطلبة، لكنها خيرة وكريمة، ومستعدة للتخلي عن كل شيء من أجله.

وعادا ليعيشا سوية في باريس، سعيدين ومنبهرين في حياتهما الجديدة. فهل سيستطيعان تحقيق مشروعهما: أن يعيشا حياة مليئة وطويلة، يغمرها حب عظيم؟

يطلب الكتاب على العنوان التالي: دار علاء الدين للنشر والطباعة والتوزيع - سورية - دمشق
ص.ب. ٣٠٥٩٨ - هاتف ٥٦١٧٠٧١ - فاكس ٥٦١٣٢٤١ - بريد الكتروني ala-addin@mail.sy